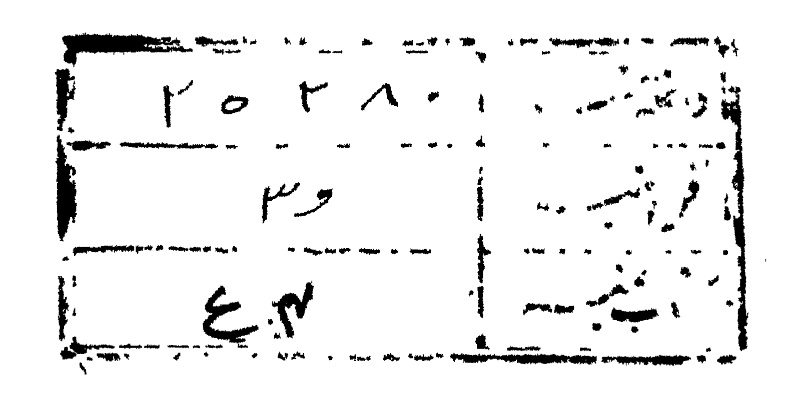
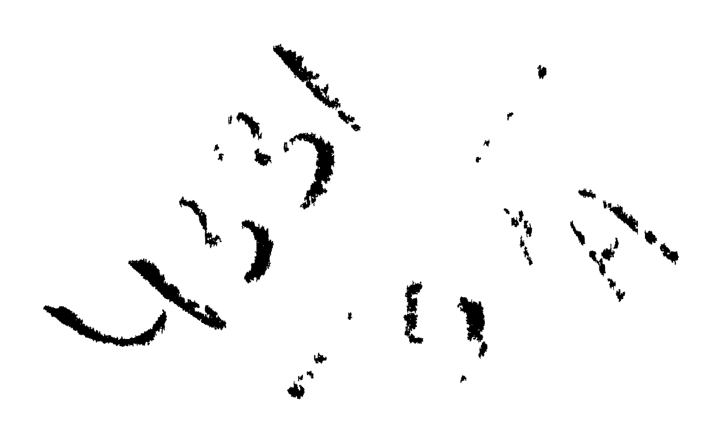



ذكرى الشاعرين

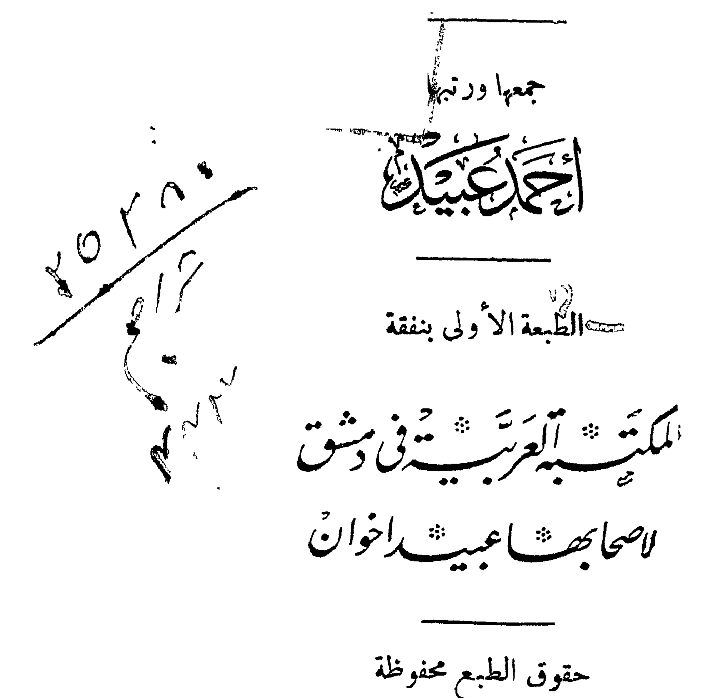
شاعر النيل وأمير الشعراء

دراسات ومراث ومقارنات

مدبجة بيراع أئمة البيان وأعلام الكلام في البلاد العربية

جمعها ورتبها

أحمد عبيد



الطبعة الأولى بنفقة

المكتبة العربية في دمشق

لأصحابها عبيد اخوان

مطبعة الترقي بدمشق

١٣٠٠/١٣٥١/١١/١

الشعراء الثلاثة

لا ريب في أن الحركة الأدبية قد نشطت في هذا العصر نشاطاً أهاب بكثيرٍ من الأدباء والشعراء إلى النزوع للتجدد في الأفكار والمنازع، ففتحت لهم من هذه المدنية الحديثة أبواباً من القول لم تفتح لمن سبقهم، وجالوا في ميادينَ من الأغراض الوطنية والاجتماعية ماجال في ساحها من تقدمهم، وسموا بأساليبهم ولغتهم إلى الأوج الذي حلّ فيه السابقون في أزهى عصور العربية وأنضرها، فحبب ذلك إلى الناشئين الأدبَ وأهله، فشرعوا يرتشفون من كأسه طربين، ويغازلون شمسه فكهين، وإن لمصر من ذلك الفضل السهمَ الأوفى، إذ كانت مَشرق تلك الشمس التي انبسطت أنوارها فعمت الأقطارَ العربية جميعاً، حتى ظهر فيها من أئمة الأدب والشعر مايكاد يضاهئ أمثالهم في أخصب أزمانها. ولقد استطاعت مصر في الحقب الأخيرة أن تنشر على البلاد ألوية الزعامة الأدبية بما قيض الله لها من بَسطةٍ في المال والرجال. ولعل من أجلّ ما أتيح لها في هذا العصر نبوغَ ثلاثةٍ من أعلام البيان المخة كان اسمهم ملء الأفواه والأسماع، وكانت آثارهم غذاءَ الأرواح والألباب، كانوا هم شيوخَ الأدب ومعلميه، والناهضين به والباعثين

روحه فيه ، فليس في المتأدبين من أبناء العربية من لا يقرأ للمنفلوطي ، أو من لا يروي لحافظ ولشوقي .

ولقد كان من حسن جدّ الشام و بنيه أن خصهم هؤلاء الأعلام الثلاثة بنصيب من المنافحة عنهم والثناء عليهم ، كلما وجدوا مجال القول ذا سعة .

فلا غرْوَ إذن — وقد غربت شمس حياتهم — إذا نهضت بلاد الشام بقسط مما يجب عليها من تخليد ذكراهم ، فرأينا حفلات التأبين — بعدما شهدنا حفلات التكريم — تقام لهم في كل مكان ، ولا بِدْعَ إذا كانت دمشق — وهم من أعضاء مجمعها العلمي — هي السابقة في الاضطلاع بذلك الواجب .

وإن مما تفخر به المكتبة العربية في دمشق أنها قامت من قبلُ بنشر كتاب عن السيد المنفلوطي — هو كلمات المنفلوطي — وأنها تقوم اليوم بنشر هذا الكتاب - ذكرى الشاعرين — اعترافًا بجميلهم ، وأذاناً بشكرهم .

وإننا آثرنا — على الغالب — فيما اخترناه لهذا الكتاب ما فيه دراسةٌ وتحليل لشعر الشاعرين وأدبهما ، أو تفصيلٌ لأخبارهما وأحوالهما ، ليكون الناظر فيه مُلِمًّا بالحركة الأدبية في هذا العصر الذي هو من أحفل عصور الأدب وأروعها ، وحسبه روعةً وحفولاً أن يكون فيه هذان الشاعران العظيمان ، وأن يكتب عنهما أساطين الشعراء والكُتّاب ما ندوّن بعضه في هذا الكتاب .

دمشق : غرة شوال ١٣٥١

احمد عبيد

القسم الأول

شاعر النيل

محمد حافظ ابراهيم

١

مقالات الادباء فيه



محمد حافظ ابراهيم

وفاة حافظ وجنازته

مات محمد بك حافظ إبراهيم شاعر النيل في الساعة الخامسة من صباح أمس « الخميس » ٢١ يوليو (تموز ١٩٣٢) .

ذلك هو النبأ المفجع الذي تناقلته الألسن وطيره الناس من جهة إلى أخرى في أنحاء هذه البلاد . وقد كان حافظ غرّيدها المحكي كما كان في كثير من الأوقات لسانها الناطق . وما شعره في حوادث السودان وسياسة مصر ومحاكمة دنشواي ووداع اللورد كرومر وسياسة دانلوب في المعارف وسياسة قصر الدوبارة والأمة العربية ووحدتها وإخائها إلا مثال من ذلك المنطق السليم والوحي العالي ، فليس عجيباً أن ترتجّ البلاد لنعيه ، وليس عجيباً أن يرتجّ الشرق كله لهذا النعي غداً .

ولد حافظ في القاهرة في ٤ فبراير (شباط) سنة ١٨٧٢ ودخل المدرسة الحربية بعد الدروس الابتدائية والثانوية وتخرج منها ضابطاً في الطوبجية برتبة الملازم الثاني ، وأدى خدمته العسكرية في السودان إبان الحملة الأخيرة بقيادة اللورد كتشنر ، وكانت منطقة عمله في السودان الشرقي . وفي سنة ١٨٩٩ أحيل إلى الاستيداع ، ثم بعد ذلك أعيد برتبته إلى البوليس ، ولكنه لم يظل طويلاً في هذه الخدمة فأحيل ثانية إلى المعاش ، وبلغ مجموع مدة خدمته في الجيش والبوليس ١٤ سنة . وفي سنة ١٩١١ عين رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب الملكية ، وفي فبراير ١٩٣٢ أحيل إلى المعاش .

ونال حافظ من الرتب : البكوية من الدرجة الثانية سنة ١٩١٢ ثم بنيشان النيل من الدرجة الرابعة . أما مؤلفاته فهي أولاً شعره المطبوع إلى الآن ثلاثة مجلدات وقد شرحه وكتب له مقدمة ذات قيمة كبيرة الكاتب المشهور محمد إبراهيم هلال وترجم مع صديقه الأستاذ خليل مطران كتاب الموجز في الاقتصاد ، وله التربية الوطنية وترجمة البؤساء لفكتور هيجو وليالي سطيح . وقد كان كثير من أصدقائه يهتم في العهد الأخير بجمع قصائده التي لم تنشر لنشرها لأن المطبوع كما قلناه هو القليل .

***

كان حافظ في العهد الأخير ضعيف الصحة ولكنه كان كعادته لا يلزم منزله ولا فراشه وفي ليلة وفاته دعا لتناول الطعام معه صديقه السيد إبراهيم راتب وآخر ، ولكنه لم يستطع مشاركتهما في تناول الطعام ، فكان متمدداً على مقعده يلاطفهما كعادته معتقداً بأن برداً طفيفاً أصابه ، وأن الطبيب وصف له الدواء لإزالة ما به من انحراف الصحة ، وبعد انصراف صديقيه أحس بالتعب الشديد فاستدعى الخادم ليناوله الدواء ، ولكن هذا الدواء لم يزل ما به وأحس باشتداد المرض عليه فأمر الخادم باستدعاء الطبيب ، ولمعرفة الخادم ما بينه وبين السيد عبد الحميد البنان من الصداقة كلمه بالتلفون ليحضر مع الطبيب في الحال ، لأن صحة حافظ بك ساءت كثيراً ، فأسرع صديقه والطبيب إلى منزله بكوبري القبة فإذا هو في النزع الأخير لا يقوى على كلمة الوداع يوجهها إلى صديقه وفاضت روحه إلى ربها .

ونعاه إلينا فى الساعة الخامسة صباحاً حضرة صديقه إسماعيل شيرين بك مدير قلم المطبوعات وقبل أن يخرج الناس إلى أعمالهم انتشر بينهم الخبر ووصل إلى جميع أنحاء القطر .

وكان موعد تشييع الجنازة فى الساعة السادسة مساء من كوبري الليمون فاجتمع هناك جمهور كبير من النبلاء والكبراء والأعيان والأدباء الذين يضيق المقام عن ذكر أسمائهم .

ولما وصل النعش إلى حيث ينتظره المشيعون أسرع إليه صديقاه الأستاذ خليل مطران والأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري فقبلا النعش وهما يبكيان فبكى لبكائهما الحاضرون ، ثم سار النعش إلى جامع أولاد عنان وهناك وصل حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصري فسار النعش ووراءه الناس كأنما على رؤوسهم الطير إلى جامع الكيخيا حيث صلي على الفقيد . ثم استأنف الموكب السير بالسيارات إلى مدافن الفقيد في مقابر السيدة نفيسة وهناك اجتمع المشيعون . وبعد أن ووري الفقيد ترابه رثاه الأستاذ محمد الهراوي والأديب المعروف السيد عباس العقاد .

وبعد ذلك نهض دولة محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين وصديق الفقيد الحميم وأخذ يتقبل تعازي المشيعين كما كانوا يعزون أنفسهم . نسأل للفقيد الراحل الرحمة والرضوان ونعزي أمته وأصدقاءه به ، عوض الله الأمة عنه خيراً .

مصر :　　　　جريدة الأهرام

حافظ في المرآة

حافظ إبراهيم شاعر ؛ فهو
يُحب الجمال ويجتمع له ويكره
القبح وينعى على أهله ، يجابهُ
بذلك مجابهة لا يتقي في القول
ولا يتحرَّف ؛ خفيف الظل ،
عذْب الروح ، حلو الحديث ،
حاضر البديهة ، رائع النكتة ،

الشيخ عبد العزيز البشري

بديع المحاضرة ، إذا كتب لك يوماً أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل إليك أنك في بستان تعطفت جداوله ، وهتفت على أغصانه بلابله ، وأشرق نرجسه وتألق ورده ، فأذكرك طلعة الحب : تانك عيناه وهذا خده ! وتنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فاعجبْ لمن ينشره هذا النسيم كيف يموت ! والبدر في مُلكه بين المجرَّة والجوزآء ، يخلع على الروض حلة فضية بيضاء ، فلا ندري أأمست السمآء في الروض ، أم أمسى الروض في السمآء ؟

ولم أرَ قط رجلاً أسرع منه حفظاً ولا أثبت حافظة ؛ ولقد تقع له المقالة الطويلة أو القصيدة الضافية فترى نظره يثب فيها وثباً حتى يأتي على غايتها ، وإذاهو قد استظهر أكثر جملها أو أبياتها إن كانت

قصيداً ، وإذا هي ثابتة على قلبه على تطاول السنين ، كذلك لم أرَ قط رجلاً اجتمع له من متخير القول ومصطفى الكلام مُرسلاً ومقفىً مثل ما اجتمع لحافظ إبراهيم ، فكان حقاً له من اسمه أوفر نصيب . وإذا كنت ممن يجري في صناعة الكلام على عِرْق وُهيٍّ ، لك أن يحاضرك حافظ في الأدب لصب على سمعك عصارة الشعر العربي وأبدع ما انتضحت به القرائح من عهد امرئ القيس إلى الآن ويمكنك أن تعد بحق حافظاً أجمع وأكفى كتابٍ لمتخير الشعر العربي عرف إلى اليوم . وليتهم إذ يشرف على السن ، بدل إحالته على المعاش يحيلونه على أحد (دواليب) القسم الأدبي في دار الكتب ، إذن لعصموا عليها ذخيرة هيهات أن نعوّض على وجه الزمان .

وإذا أردت أن تتعرّف لون شعره وإلى أي وادٍ من أودية الكلام ينتسب ، فارجع إلى أكثر ما يهتف به ويردده من شعر مَن قبله من الشعراء ، وإنه في هذا الباب ليؤمن قبل كل شيء بالصنعة والديباجة ونسج الكلام ، وما بعد هذا عنده ففضل . وهو يرى ، ولقد يرى معه كثيرٌ ، أن جلال الشعر وبهاءه ليسا في التعلق بدقائق المعاني وإن تزايلت من دونها الألفاظ ، وأن أدق المعاني وأجلها لقد تقع للدهماء في حوارهم ومنازع كلامهم ؛ أما إشراق الديباجة ونصاحة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر . أليس يَبهرُك ويروعك ويُشيع فيك كل الطرب قول البحتري مثلاً :

ذاكَ وادي الأراكِ فاحبس قليلاً مُقصراً في ملامةٍ أو مُطيلا
لم يكن يومُنا طويلاً بنعما نَ ولكن كان البكاءُ طويلا

وقوله :

وقفةً بالعقيق نطرح ثقلاً من دموعٍ بوقفةٍ في العقيق

وقولُ الشاعر :

يا ليت مآءَ الفرات يُخبرنا أين تولت بأهلها السفن

وقولُ الشاعر العربي :

فسائل بني جَرْمٍ إذا ما لقيتهم وسعداً إذا حجت عليك بنو سعد
فإن يخبروك الحقّ عني تجدْهمُ يقولون أبلى صاحبُ الفرَس الورْد

وغيرُ هذا من رائع الشعر ما لا يتناوله الحصر .

وبعد ، فأي معنى في مثل هذا يرتفع على ما تبتذل به العامة في أحاديثهم وأسمارهم وفنون مناقلاتهم ! إنما خطره كله في لطف الصياغة وشدة القول وقوة الأسلوب ، ولو قد ذهبتَ تؤدي بلغة أخرى أنخر ما نظم البحتري وأبو تمام وأضرابهما من أعيان الشعرآء ما خرجت من ذلك بجليل ، بل لو أنك تعمدت أبلغ ما قالوا فنقضتَ غزله ونثرت نظمه ما عدا أن يكون كلاماً من أوسط ما اعتاده الناس من الكلام!

هذا رأي حافظ في الشعر ، وتلك أيضاً صورة من شعره ! مشرق الديباجة جَزْل اللفظ ، صافي القول ، محكم النسج ، رصين القافية . ترى معناه في ظاهر لفظه ، فإذا أقبل عليك ينشدك من شعره أبصرت

البيت يستشرف وحده للقافية استشرافاً حتى لتقبض عليها بذهنك قبل أن ينطق بها حافظ إبراهيم .

وحافظ ، كما أسلفت عليك مؤمن كل الإيمان بالصنعة ، ولقد يسنح له المعنى الدقيق فيحاول أن يشكله بالقريض ، فإن أصابه في غير قلق ولا إعنات للفظ أو إخلال بقوة النظم ، وإلا صرف لغيره وجه القريض ؛ ولربما أصاب المعنى الرفيع فيسره للنظم تيسيراً حتى يخيل لك ، إذ تتلوه ، أنك في كلام من جنس سائر الكلام ! .

وهو ، كما حدثتك ، حاضر البديهة رائع « النكتة » يتعلق فيها بأدق المعاني في جميع فنون القول ؛ فلا يحتويه مجلس إلا رأيته يتنزى تنزيا من ضحك ومن طرب ومن إعجاب . وهو كذلك شديد الفطنة حلو الملاحظة لا يكاد يعرض لسمعه أو لبصره شيء إلا وجه عليه رأياً طريفاً يصوغه في « نكتة » عجيبة قد تستقر على سطوح الأشياء ، وأحياناً تتغلغل إلى الصميم حتى تتكشف الأيام منها لا عن طرفة متطرف ولكن عن رأي حكيم! وهو لا يتحامى في تطرفه ولا يتحرج ، فتراه يقتحم عليك بتندره كل مداخلك أنى سنحت له اقتحاماً ، فيصيب من خَلقك ومن ثيابك ومن أثاث بيتك ومن طعامك ؛ على أنه في كل هذا مرضيك ومؤنسك وباسطٌ أساريرَ وجهك إن لم يفرّج بالضحك من ثناياك ، فأما إذا كنت رجلاً ضيق العطن متزمّت النفس فلا خير لك في مجلس حافظ إبراهيم .

وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطاً مما أصابت يده من الأموال لكان اليوم من أهل الثرآء ، على أنه ما فتئ طوال أيامه يشكو البؤس حتى إذا طالت يده الألف ُجن جنونه أو ينفقها في يوم إن استطاع . فإذا استغلقت عليه أحياناً وجوه السبل لإتلاف الأموال عدّ هذا أيضا من معاكسة الأقدار ! ولعل هذا من أنه نضجت شاعريته في باب (شكوى الزمان) وقال فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ويتفقده تفقداً إيثاراً لتجويد الصنعة والتبريز في صياغة الكلام . وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظاً يحققها بيده إذا قصرت في تحقيقها الأيام . وإنه لفنان (Artiste) حقا ، وإن فيه لكل أخلاق الفنانين : تولّه بالطعن من جميع أقطاره ، فقد يسامحك ويتراخى بالصفح عنك ؛ أما أن تتولى فنه وتسلك بالطعن صنعته ، فذلك الكسر الذي لا يجبر ، وذلك الذنب الذي لا يغفر ؛ وذلك مثار الدمع ما يزال هامياً ، وذلك متنزّي الجرح ما يفتأ على الزمان دامياً .

والعجب أن حافظاً نفسه ضيق العطن قليل الصبر سريع الغضب ، وياويل الأرض منه والسمآء إذا تعجل أمراً فألبث دونه دقيقةً واحدة ، إذن لهاج هياج الصبيّ فما يجدى فيه التصبير ولا التعليل . وما أبدع غضبته وما أحلاها ساعة يهم بركوب مركبة في الطريق فيرى الخيل قد خلعت عنها أرسانها ، وهنالك تسمع منه ، وهو يكاد يتميز من

الغيظ، أبدعَ النكات وأدقها ، وقد عجلت إليه الشيخوخة قبل السن، وضربته أعراض السبعين إذ هو لم يذرّف كثيراً على الخمسين ، فغاض من أُنسه غير قليل ، وشغل بالمرض أو بتوهم المرض ، فما يلقاك إلا أبثك علة طارئة وطالعك بشكاة جديدة ، وتتقسم أوهامه مراجعة الأطباء والمتطببين ، وترديد النظر في كتب الصحة والأقرباذين ، فما سمع بعلة إلا أحس أعراضها ، ولا وقع على عقار من العقاقير إلا اتخذه وتداوى به !

ومن أظرف نوادره أن صديقاً له لقيه مرة في الطريق وهو منقبض النفس متربّد الوجه فسأله مابه ، فقال له : (إن المصران الأعور عندي ملتهب) فقال له صاحبه : وبماذا تشعر ؟ فقال : أشعر بوجع شديد هاهنا ،وأشار بيده إلى جنبه الأيسر ، فقال له : (إن المصران الأعور) إنما يكون في الجنب الأيمن لا الأيسر !فأجابه حافظ من فوره : (يمكن أكون أنا يا سيدي أعور شمال) !!!

***

ولا أحسب شاعراً يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ ، وإن له لصوتاً جهيراً فخماً رائع المقاطع ، فإذا هو وقف ينشد الجماهير هزّها هزاً ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات .

ولا ننسَ لحافظ يداً جليلة على اللغة العربية بما نظم وما نثر إنشاءً وترجمةً ، فلقد طالما استخرج من مجفوّها صيغاً طريفة بليغة أدت

كثيراً من الأسباب الدائرة بين الناس مما تتحرك معانيه في الأنفس ويعيي أداؤه على الأقلام .

وحافظ إبراهيم ، ولا شك ، من مفاخر هذا العصر ومن مباهجه معاً أسأل الله أن يبسط في عمره وأن يرزقه العافية ، على أن يقتنع هو أنه في عافية !

وبعد ، فإذا كنت يا صديقي قد وترتك بعض حقك ولم أعرض جميع مزاياك فلكيلا أجعل لأحد سبيلاً إلى الاتهام ؛ وإذا ظن بي شانئ أني لم أتسقط كل هناتك ، إن كانت لك هنات أخرى ، فما كان الودّ ليربني إلا الخير في أصدقائي ؛ على أنني أعتذر إليك في الأولى ؛ وأعتذر إلى القرآء في الثانية وأستغفر الله في الحالين ، وأسأله تعالى أن يصرف عني محنة الكتابة ويتوب عليّ من فن الكلام .

(السياسة الأسبوعية بمصر) عبد العزيز البشري

حياة حافظ في شعره

حافظ إبراهيم شاعر كبير . لكنه على عظمته كشاعر موجز تاريخ الحياة ، حتى لتستطيع القول بأنه نشأ نشأة عادية ، ثم التحق بالمدرسة الحربية ، ومنها سافر إلى السودان ضابطاً . وأقام بالسودان سنوات قليلة معدودة ، ثم عاد منه وأقام بمصر شاعراً يرتفع في سماء الشعر نجمه

الدكتور محمد حسين هيكل

حتى يبلغ السماك ، ثم يلتحق بعد ذلك بخدمة الحكومة في دار الكتب ، ويظل بها إلى أن يحال إلى المعاش في ٤ فبراير (شباط) سنة ١٩٣٢ . هنالك يعود إلى ميدان الشعر واسع الأمل لولا تهدم بنيانه وانهيار صحته انهياراً استعجل أجله فى ٢١ يوليو (تموز) الماضي ، أي بعد أربعة أشهر ونصف الشهر من إحالته إلى المعاش .

على أن هذه الحياة الموجزة التاريخ كانت زاخرة بفيض قوي من حيوية هي التي أوحت لحافظ شعره كله . وشعره هو المظهر الأول

والآخر لحيويته ، فمن شاء أن يلتمس ترجمة نفسه ففي هذا الشعر يجب أن يلتمسها، وإنه لواجده تسري فيه من أوله إلى آخره وحدةٌ واضحة الحدود بينة المعالم منطقية الخطوات . إذ ذاك تتكشف هذه الحياة الساكنة الموجزة التاريخ في ظاهرها قلقةً حافلة ، تزخر بالآمال الضخمة حيناً لتتحطم على صخرات اليأس حيناً آخر . تثب يحدوها الطموح إلى غاية ، ثم ترتدّ كسيرةً قعدت بها المقادير دون درك هذه الغاية . تحلق في علوٍ مرتفعةً فوق الناس جميعاً . ثم يجذبها الناس إلى الأرض بكيدهم واحتيالهم فترتدّ من تحليقها بَرِمةً شديدة الضجر ، تريد أن تسلك للمجد سبيل الكمال فإذا صورة المجد التي تريدها حافلةً بالجاه والمال وعلوّ المكان وإعجاب الناس جميعاً لا تتحقق كاملةً . بل تظلُّ ينقصها المال أو ينقصها الجاه مما يستمتع به الأغنياء الأغبياء، وذوو الجاه الجهلة الأدعياء ، فتسأم هذا المجد وتسأم الكمال الذي تريد أن تتخذه إليه سبيلاً . ترتسم أمامها صورة الوطن كما يجب أن يكون الوطن حرّاً سعيداً عزيز الجناب ، فإذا في هذا الوطن نفوسٌ ضعيفةٌ تقعد به دون درك الحرية ، فيلعن حافظ أبناء الوطن ويرميهم بشر الصفات . تهتزّ فخراً بالشرق وبالإسلام الذي نشأ في هذا الشرق ثم أظل العالم بحضارته ، وباللغة العربية التي ألبست هذه الحضارة ثوبَ جلالها ، ثم يدور حافظ في أنحاء هذا الشرق فإذا الغرب متحكمٌ فيه ظالمٌ له ، فيضطرب بين لعنة الشرق لجموده ، ولعنة الغرب لظلمه

ووحشيته وجحوده · ويظلّ حافظ كذلك سنين متعاقبة حتى يبلغ اليأس عنده الرجاء فلا يأبى أن يلقيَ عصا التطواف ليستريح موظفاً في دار الكتب ، يظلّ فيها عشرين سنة مكتفياً من شعره بالقليل ينشره على الناس أو يلقيه في مناسباتٍ خاصة ، وبترجمة بعض الكتب ، ويخرج إلى المعاش بعد أن سلخ في راحته هذه العشرين سنة فيعاوده الأمل ويعاوده الطموح فيحمل قيثارة الشاعر من جديد يريد أن ينشد عليها أشجان وطنه · لكن الراحة الكبرى كانت تنتظره ، ومقرّه الأخير قد كان هيأه له القدر ينام فيه النوم الهادئ الطويل ·

هذه الصورة القوية الحافلة من حياة نفس حافظ هي ما نريد في هذا الفصل أن نستعين بشعره لإبرازها · ويدعونا إلى الحرص على ذلك أن حياة حافظ على ما هي ظاهرة في شعره تمثل عصراً كاملاً من عصور حياة مصر العامة · إذ ذاك يبدو لنا هذا الرجل وكأنه ثورة قلقٍ دائمة ، منذ نشأ إلى أن قضى ، وكأنه عاصفة هوجاء ألقت بها المقادير في هذا الوجود لتحطم وتحيي ، ولتقبر وتبعث ، ولتكون دائماً أملاً ينهار ويأساً ينبعث في أرجائه ضياء الأمل ، ولتظل كذلك دائمةَ القلق لا تعرف الاستقرار حتى تأويَ إلى طمأنينة الموت ، وتستريحَ في ظلم الغيب

ولعلنا قبل أن نسائل شعر حافظ في حياته وحيويته يجب أن نسأل : كيف أعدّ حافظ نفسه للشعر ؟ إنه لم يدرس ، فيما يعرف الناس من حياته ، دراسةً متصلة · وهو قد التحق بالمدرسة الحربية

وما يزال في فتوة الصبا ومستهلّ الشباب . ومن بعد المدرسة الحربية ذهب إلى السودان فإذا به يبعث من هناك إلى أُصدقائه بمصر شعراً قويًّا رصيناً . ولم تكن المدرسة الحربية يومئذٍ ولا كانت معاهد الدرس الأُخرى مما يمهد للشعر سبيله . ولئن كانت الطبيعة قد حبت حافظاً بالموهبة الروحانية السامية ؛ موهبة الشعر فكيف تمهدت لهذه الموهبة أَسباب الظهور ؟ لقد نشأ حافظ فقيراً وظل يشكو الفقر طوال السنين . بل ظل يشكو الفقر كل حياته ، أُفلا يدلّ ذلك على أُن هذه الموهبة فيه كانت منذ نشأته قويةً غاية القوّة متحكمة غاية التحكم حتى لقد صرفته عن كل شيءٍ إليها ، وجعلته يهمل كل شيءٍ في سبيلها ، وجعلت من هذا الفقر الذي كان يشكو وسيلة لإذكاء نورها . والذين يعرفون ما كان يحفظ حافظ من الشعر لا يرتابون لحظةً في أنه قد بدأ يحفظه وهو ما يزال في بدء صباه وفي صدر شبابه ، وأنه كان من يومئذ شديد الولع بالجيد منه قويّ الذاكرة في استظهاره . وأحسبه وجد مشجعاً على هذا يومئذ في تلك النهضة التي كانت قائمةً لإحياء الشعر القديم والنسج على مثاله ، وفيما بلغ محمود باشا سامي البارودي أكبرُ أبطال هذه النهضة من جلال المكان وجليل القدر والخطر ، وأُحسب كذلك أن التحاقه بالمدرسة الحربية جعله أشدّ للبارودي ولما قاله من الشعر في الحماسة وفي الحرب حبًّا . وللحماسة في الشعر العربي القديم مكانةٌ تستهوي النفس الميالة

للشعر بِلْهَ النفس المطبوعة عليه . فإذا كان لهذه النفس المطبوعة على الشعر من الطموح ما كان لحافظ إبراهيم ، وكانت نهضة الشعر القديم في ذلك الظرف بالقوة التي تشهد بها مختارات البارودي وتدل عليها الطبعات المتعددة من دواوين فحول الشعراء المتقدمين ، سهل علينا أن ندرك كيف أعدّ حافظ نفسه للشعر ، ولهذا الشعر القوي الرصين المتين الديباجة الجزل اللفظ جزالةً جعلت صديقه خليل مطران يقول عنه في تقديم الجزء الأول من ديوان حافظ : « له غرامٌ باللفظ لا يقلّ عن الغرام بالمعنى وفي أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حيناً في التصوُّر لم يَفته الابتكار حيناً في التصوير » ويتكفل حافظ في مقدمة هذا الجزء الأول كذلك من ديوانه بإثبات هذا الذي ذهبنا إليه في أمره من أنه بدأ يحفظ الشعر القديم منذ نشأته إذ يذكر أنه قرأ ابن الرومي ، وأدمن النظر في بشار بن برد ؛ وأكثر من مطالعة شعر مسلم بن الوليد ، وسرح الطرف في شعر أبي نواس ، ورجع البصر في شعر أبي تمام ، وأنعم النظر في شعر البحتري ، وأكثر التأمل في شعر أبي الطيب ؛ ودرس الشريف الرضي وابن هانئ الأندلسي وابن المعتز والعباس بن الأحنف وأبا العلاء المعري ، وأنه حفظ من هؤلاء جميعاً مختاراً كثيراً . وأنه عرضهم جميعاً لميزان نقده وحكم على شعر كل واحدٍ منهم بما عنّ له من وجوه الرأي فيه . بهذه البضاعة من الأدب والشعر ، أو بالكثير منها ، وبموهبةٍ شعرية

فياضة ، تابع حافظ إبراهيم دراسته بالمدرسة الحربية ومن حوله زملاء أكثرهم لا يجيد القراءة والكتابة . أفليس من حقه أن يطمح إلى مستقبلٍ باهر وأن يطمع في كبرى المناصب ؟ ألم يكن محمود باشا سامي البارودي وزيراً للحربية ؟ وبهذه البضاعة سافر حافظ بعد المدرسة الحربية إلى السودان فإذا من به من الضباط ومن الضباط العظام والكثيرون منهم لا يقرأون ولا يكتبون أفليس من حقه أن ينظر إلى هؤلاء نظرة ازدراء واحتقار وأن يطمع في سبقهم والتقدم عليهم ؟ وهل تراه يقنع بمثل عيشهم أم هو كشاعر جدير بأن يجاري أبا نواس وغيره من الشعراء في المجانة واللهو . لكنه فقير . ولكن الانكليز الذين احتلوا مصر وامتد نفوذهم إلى السودان لا يريدون أن يرتقي الضباط المصريون إلى المراتب العاليا . فيجب أن يقنع حافظ إذن بحظه ، أو يسخط على هذا الحظ ماشاء . ولقد كان حافظ ساخطاً يومئذ كما كان في أكثر أدوار حياته بعد ذلك . فقد أرسل من شعره إلى أصدقاء له بالقاهرة يحدثهم عن السودان حديث الساخط ولكن في غير ثورة البرم من غير أن يشتد به القلق والضجر . كتب من هناك إلى صديقه محمد بك بيرم قصيدةً سلسةً رصينة أحسب تاريخها يقع ما بين سنة ١٨٨٥ وسنة ١٨٨٩ يقول فيها :

نزحتُ عن الديارِ أرومُ رزقي ... وأضربُ في المهامهِ والتُّخوم

وما غادرتُ في السودانِ قفراً ... ولم أصبغ بتربته أديمي

وها أنا بين أنيابِ المنـايا وتحت براثنِ الخطبِ الجسيم
ولولا سورةٌ للمجد عندي قنعتُ بعيشتي قنعَ الظليم

يخيل إليك كأن في هذه الأبيات ثورةً تتكوّن في نفس حافظ لتدفعه إما إلى الذروة وإما إلى غيابات السجون . ولعل ثورةً كانت تتكون في نفسه بالفعل . لكنها كانت ما تزال ضعيفةً لا تهزّ صاحبها . فهو ما يكاد يصف نفسه بين أنياب المنايا حتى يقول :

أيا ابن الأكرمين أباً وجدًّا ويا ابن عضادة الدين القويم
أتيتك والخطوبُ تزفُّ رحلي ولي حال أرقُّ من السديم
فلا تُخلق فديتَ أديمَ وجهي ولا تقطع مواصلةَ الحميم

هذا وصدر القصيدة تشوقٌ إلى مصر ، وذكر للشراب والنديم وما إليهما من مثلها ، مما لا تجيش به نفسٌ ثائرةٌ يبلغ السخط منها على الحياة وعلى حظها منها مبلغاً تريد معه تحطيمَ قيودها والتحكم فيها ، وإنما هو ضجر الرجل الذي كان يطمع من رحلته إلى بلادٍ .

كأن أديمها أحشاءُ صبٍّ قد التهبت من الوجدِ الأليم
كأن سرابها إذ لاح فيهـا خداعٌ لاح في وجهِ اللئيم
تضـلُّ بليلها لهبٌ فتحكي بوادي التيه أقوامَ الكليم
وتمشي السافياتُ بها حيارى إذا نقل الهجير عن الجحيم

في أن يصل إلى مكانٍ من المجد أو على الأقل من الطمأنينة إلى الحياة يستريح له ، فإذا مطمعه لا يتحقق ، وإذا هو لا تساعفه

المنى ولا يجد إلى آماله باباً مفتوحاً ، فيُمعن في اللهو واللذائذ مما وصف في أول قصيدته .

على أن قلقه وضجره من مقامه بالسودان مافتئ يزداد وما فتئت نفسه يهفو بها الحنين إلى مصر حنيناً مرجعه إلى اليأس من بلوغ أمله بتلك الربوع النائية أكثر مما يرجع إلى تحرّق أحشائه على الوطن ومَن فيه . فلقد كان حافظ قليلَ الأهل بمصر غايةَ القلة ، وإذا كان له بها إخوان فهو قد استبدل بهم في السودان إخواناً ، لذلك فكر في الاستعانة بمن يرجو فيه حسن الوساطة في عودته إلى القاهرة ، وقد وجد في المغفور له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده مَن توسم فيه هذا الرجاء ، وأطمعه في حسن وساطة الشيخ أن كان الإمام زعيمَ دولة الأدب ونصيرَ الأدباء جميعاً . ويسر له ذلك أنه في منصب يجعل له من القدرة على حماية من يريد حمايته ما لم يكن لغيره به قِبَل . وقد قبل الشيخ الوساطة ووعد أن يسعى لنقل حافظ من السودان إلى مصر . لكنّ ظروفاً قد تحول دون إنجاز الوعد ولا يقيم لها صاحب الحاجة وزناً . لذلك ما لبث الزمن أن طال بالوعـد حتى كتب حافظ للشيخ يستنجزه وعدَه ، ولكي يجعل لنفسه عند الشيخ شفيعاً جعل كتابه قطعةً من الأدب العربي القديم آيةً في السلاسة والحلاوة والرقة ، ومثلاً من أمثال البلاغة في خير عصور البلاغة في اللغة العربية أيام ازدهار البديع فيها فهو يبدأ كتابه بهـذه العبارة : « كتابي إلى سيدي

وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل ، ومن تيهي به فوق النثرة والإكليل ، وقد تعجلت السرور ، وتسلفت الحبور ، وقطعت ما بيني وبين النوائب .

وبشّرتُ أهلي بالذي قد سمعته   فما محنتي إلا ليالٍ قلائل
وقلتُ لهم للشيخ فينا مشيئةٌ   فليس لنا من دهرنا ما ننازل

لم تتح الظروف للشيخ أن ينجز وعده ، فظلّ حافظ بالسودان إلى أن كانت ثورة الضباط ، وما كان أشبهها بثورة الضباط أيامَ عرابي ، ثورة أدّت إلى تداخل الإنكليز في شؤون مصر واحتلالهم إياه . ولعلها لم تكن بريئةً من دافع خارجي استغلّ سذاجة هؤلاء الضباط ليمهد للأحداث السياسية التي وقعت بالسودان من بعد ذلك . وأيًّا كان الشأن فإن الحكومة المركزية في السودان رأت أن تحاكم هؤلاء الضباط وحافظ إبراهيم أحدهم ، لكن شفاعة الخديوي يومئذٍ جعلت تلك الحكومة تكتفي بإبعادهم لمصر إبعاداً يعيد إلى الذاكرة ما وقع في مصر في سنة ١٩٢٤ مما انتهى بإجلاء الجيش المصري عن السودان . وكذلك عاد حافظ إلى مصر وأمله في الرقي متهدم مُنهار ورجاؤه في الحياة متداعٍ ضئيل .

علامَ يدلّ شعره بعد عودته ؟ بأية حالةٍ نفسيةٍ دخل عاصمة بلاده ؟ وبأي روحٍ لقي فيها أصحابه الأقدمين ؟ أفكان مَرِحاً طروباً أن تحقق له أمل العودة إلى الوطن ؟ أم كان ثائراً شديد

الثورة أن أبعد عن السودان وأن دُكت في نفسه أطواد أمله ؟ لاشيء في شعره يحدثنا عن هذا أو يدلّ عليه . بل نحن أمام فترة هو فيها واجمٌ مستجمّ ، ولعله فيها خائفٌ مضطرب وقد يدور بالخاطر أن يأخذ الإنسان عليه وُجومَه وخوفه . فهذا الرجل الذي تنقل في ربوع السودان وجاس خلاله وعرف حياة القبائل والصحراء ، والذي أُجلي عن هذه الناحية من نواحي الوطن لأنه ثائرٌ خارج على النظام ، والذي تجيش بالشعر نفسه ليتغنى عن دنّ خمر وعن ساقٍ وعن طرب ، هذا الرجل لا يهيج بالشعر نفسه ما أصابه من ظلم ومن اضطهاد ! ولا تحرّك ربة شعره هذه اللانهايات المترامية من صحارى السودان يشقها النيل الأزرق من جانب والنيل الأبيض من الجانب الآخر لتبقى فيما وراء ذلك صحارى مترامية إلى اللانهاية يضلّ فيها بصر زرقاء اليمامة وينتشر فيها السراب والآل كأنه الواحات الخضر حيناً ، ورؤوس الجان المجدبة حيناً آخر ؟ ! كيف وجم حافظ إذن وكيف نكص على عقبيه لا يقول في ذلك شيئاً ؟ وكيف نرانا نقلب صحف ديوانه فلا نرى عن السودان وما فيه ، وعن القاهرة واستقبالها إياه بيتاً واحداً يكشف لنا عن حالته النفسية في ذلك الظرف ؟ وعندنا أن لهذا الوجوم أسباباً تفسره : أولها أنه كان في ثورة الضباط معرّضاً مثلهم لمحاكمة قد تنتهي إلى الحكم بالإعدام ؛ وأن ما أصاب عرابي وسامي البارودي وأصحابهما كان ما

يزال ماثلاً في الأذهان . فإذا كانت شفاعة الأمير قد جعلت السلطات العسكرية تكتفي بإبعاده عن السودان ، فما أشدّ خوفه إن هو ثارت بالشعر نفسه يصف ما دعاه وزملاءه إلى ثورتهم أن يقبض عليه وأن يحاكم ، ومن يدري وقد كان ضابطاً أي حكم كان يتعرض لصدوره ضده . وسببٌ ثانٍ أن حافظاً كان رقيق الحال فقيراً . وأن سوق الأدب كانت أشدّ مما هي اليوم كساداً ، وأن الكتاب والشعراء كانوا ما يزالون حميلةً في عيشهم على غيرهم ، يمدحونه تارة ويضحكونه أخرى ليعيشوا في بره وفي رضاه . ومن كانت هذه حاله لم تعرف الثورة سبيلها إلى نفسه ثورةً عنيفة قوية تهزّ القلوب وتزلزل العواطف . فالنفس الثائرة ترتفع أبداً فوق مستوى الناس ، وتأبى أن يكون لأحد على صاحبها في الحياة يد ، وتطمح إلى أن تجذب الجمهور وتدفعه إلى الناحية التي تريد وسببٌ ثالث أن الشعر العربي كان يومئذٍ يقلد الأقدمين و يحاول أن ينسج على منوالهم ، وشعر الثورة لم يكن متداوَلاً في الأعصر القديمة على ما وصل إلينا في دواوين تلك العصور . وحافظ كان ما يزال في شدة إعجابه بشعر الأقدمين قليلَ الإبداع في المعاني المبتكرة على جمال إبداعه في المعاني التي جرى الشعر القديم بها . وسببٌ رابع أن حافظاً كان ما يزال يطمع في العود إلى خدمة الحكومة لتكون له مرتزَقاً سهلاً يستطيع في ظلاله أن يرضيَ شهوة نفسه من الشعر يقول ما شاء في الغزل وفي الخمر وفي

المديح وفي غيرها من ألوان الشعر التي لا تهيج عليه حفيظة أُولي الأمر وأُصحاب الحل والعقد . وهذه الأُسباب وما قد يضاف إليها من مثلها هي التي تفسر لنا خلو أجزآء ديوان حافظ من شعر يصف نوازع نفسه في هذه الفترة من حياته . ويؤيد صحة هـذه الأُسباب أنه ما لبث زمناً يتردد فيه على دُور الصحف و ينشر فيه بعض الشعر التقليدي في مجلات ذلك العصر حتى عاد إلى الحكومة موظفاً ضابطاً من جديد ، وحتى خُيل إليه أن قد فتح أمامه باب الرزق يستريح إليه ويتفيأ ناعم ظلاله .

وربما صح أن يكون هذا موضعاً لنقد حافظ لو أن ظروفه وظروف مصر لم تكونا كما كانتا يومئذٍ . فالنفس الشاعرة متوثبة لا تطيق بطبعها الضيم ولا تصبر عليه ، والشاعر الذي يستعذب الهوان ويسكن إليه مقلوبُ الشاعرية فاسدُها ، لكن حافظاً وإن سكت فلم يصف في هذا الظرف ذلك الذي كان يحيط به إلا أنه لم يرضه ولم يطمئن إليه . فهو ما لبث أن عاد إلى خدمة الحكومة من جديد حتى ثارت به شاعريته الحبيسة في قفص العيش المادي ، وحتى رأيناه بين حب الحرية إلى غاية حدود الحرية ، و بين البرم بهـذا الضغط الواقع عليه وعلى أمثاله يغادر وظيفته مرة أخرى ويعود طليقاً يرخي لشاعريته العنان كي تندفع بحكم الظروف في الطريق الطبيعي الذي أعدت الأُقدار له نفسه القلقة الثائرة ، ولينضج بعـد ذلك فيكون

كلمة أمته وكلمة الإسلام وكلمة الشرق ، كلمة عالية قوية ضخمة تهزّ النفوس والقلوب ، وتحرك الأرواح والأفئدة ، ، وتكاد تضيء هذه الامبراطورية الشرقية العظيمة بنور جديد، لولا أن دهمت الأقدار هذه الامبراطورية بأرزاء وأهوال جعلتها كسيرة مصروعة ،وجعلت هذه الصيحات التي يرسلها حافظ قوية عاتية تزلزل الأطواد وتهزّ الجبال تقف منها عند تحريكها حركة عنيفة من غير أن تنضج في هذه الحركة كل ثمارها ، وكأنما اكتفت بأن تذرها تتمخض عن هذه الثمار لتنعم بها يوم تنضج فيها أسباب النعمة بثمار الحرية .

أي الأطوار اجتازت نفس حافظ فيما بين عوده من السودان والتحاقه مرة أخرى بخدمة الحكومة ثم تركه إياها من جديد واعتلائه منبر شاعر الحرية وشاعر العربية في الشرق كله ؟ ظلت ربة شعره تغذيه وتعده لطور النضج الأخير ، وظلت تعرض له قوة لغته العربية واقتدارها على أن تتسع لكل ما يجيش بنفسه من المعاني في صورة من البلاغة تذبل أمامها أروعُ صور البلاغة القديمة . لكن ربة شعره في إعدادها نفسه لطور نضوجه كانت تنافس الشعر القديم في أبوابه تحاول أن تسموَ فوقه وتحلق في مراقيَ أسمي ذرّى مما وصل الشعر القديم إليه . ألم تكن الخمريات وكان الغزل وكان المديح وكان الرثاء خير ما يعالج القدماء من فنون الشعر ؟ فليكن في خمرياته أقوى من أبي نواس ، وفي مديحه أبدع من أبي فراس ومن المتنبي ، وفي غزله أرقّ من جميل ومن

كُثيِّر ، وفي رثائه أشدُّ توجعاً من الخنساء وأروع حكمةً من أبي العلاء . إسمعه يتغنى بالخمر واقرن إليه أبا نواس وسائل نفسك ألم يكن شاعرنا يريد أن يبزّ شاعر الخمريات في العصور العربية جميعاً ، وأن يبزّه في هذا الباب الذي بزّ أبو نواس فيه كل من سواه ؟ نعم . اسمعه يقول :

خمرةٌ في بابلٍ قد صهرجت ... هكذا أخبر حاخام اليهود
أودعوها جوف دَنٍّ مظلمٍ ... ولديه بشروها بالخلود
سألوا الكهان عن شاربها ... وعن الساقي وفي أي العهود
فأجابوهم فتىً ذو مِرّة ... من بني مصرَ له فضلٌ وجود
مغرمٌ بالعود والناي معاً ... مولعٌ بالشرب والناس هجود
همهُ قصد دنانٍ وندى ... وأبوه همه جمعُ النقود

ولست بحاجة إلى ذكر قصيدته التي بلغت بين الخمريات في الشعر كله من الإبداع ما جعلها محفوظةً عند كل من له بالشعر العربي ولع والتي يقول فيها :

أطلق الشمس من غياهب هذا الد ... نّ واملأ من ذلك النور كأسي
وأئذن الصبح أن يلوح اعيني ... من سناها فذاك وقت التحسي
وادعُ ندمانَ صفوتي وائتناسي ... وتعجل واسبل ستور الدِّمقس
واسقنا ياغلامُ حتى ترانا ... لا نطيق الكلام إلا بهمس
خمرةٌ قيل إنهم عصروها ... من خدود الملاح في يوم عرس

يا نديمي بالله قل لي لماذا   هذه الخندريس تدعى برجس
هي نفسٌ زكيةٌ وأبوها   غرسه في الجنان أكرمُ غرس

والحافظ في هذا الطور من أطوار حياة نفسه قصائد في المديح وفي الرثاء وفي الغزل غاية في القوة لكنك تشعر أنه في هذا الطور من شعره يعارض الشعراء الأقدمين ، يقلدهم في معانيهم وفي تصويرهم وفي ميولهم وتشعر كذلك شعوراً قوياً بميل بدأ معه منذ نشأته وظل وإياه حتى آخر أيامه

ذلك هو ملك لغة العرب ملكاً يطوع له أن يظهرها في هذا العصر في كمال قوتها قديرةً على أن تضاهي أحدث اللغات صقلاً وحياة في جمال صقلها وقوة حياتها ، وتمكنه من أن يهدم المزاعم التي كانت توجه لها من أنها لغة قديمة عاجزة عن أن تجاريَ الحياة الحديثة . وإنك لتشعر حين تقرأ قصائد المديح في ديوانه أنه كان يطمع لنفسه ويطمع لآماله في اللغة وفي الأدب أن يجد عند السراة والأمراء والسلاطين من تأييد الأدب ورجاله ما يحقق رجاءه وما يعيد ذلك العهد القديم ، حين كان الشعراء يهزّون بشعرهم أريحية هؤلاء الذين دفعتهم المقادير إلى مكانة السلطان والحكم في الحياة العامة هزّاً يوجههم معه إلى الغاية التي يرجوها ، ولعله حاول أن يصل إلى رحاب الخديوي عباس حلمي من يومئذ لهذا الغرض . فإنا نرى له مدائح في عبد الحليم باشا عاصم (سرياوران) الخديوي حين إسناد إمارة الحج إليه سنة ١٣١٣ هجرية

(أي منذ ثمانية وثلاثين سنة)، ونرى له مدائح غير قليلة في الخديوي عباس نفسه بعد ذلك في سنة ١٩٠١، على أن خلقه لم ييسر له سبيل الاتصال ببلاط أمير مصر اتصال زلفى وتقريب ، فقد كان يشعر في أطواء نفسه أن له من إمارة الشعر ما يعدل إمارة عباس على عرش مصر . روى صديقنا الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري أن حافظاً ذهب إلى قصر القبة يوماً ، فأمر عباس فتناول الشاعر الطعام في القصر مع أحد رجاله فلما سأله الخديوي بعد ذلك إن كان قد سر بطعامه كان جوابه : « معلوم يا أفندينا . كأني أكلت في بيتنا تمام» وقد تكون في هذه الإجابة نكتة لطيفة لكنها ليست مما تسيغه حياة القصور وأربابها . ولعل هذا الخلق الشموس الذي كان لحافظ والذي لم يكن مما يقربه من أرباب القصور ومن الجالس على عرش مصر يومئذ ، فتح الباب أمام رجال البلاط لإبعاد هذا الرجل عن الأمير ، ففي أخلاق رجال البلاط غيرة مخنثة تجعل قوام حياتهم الوقيعة الوضيعة والدسيسة الدنيئة . وقد لقي حافظ من ذلك في بلاط السلطان عبد الحميد ما لقي في بلاط عباس . روى لي رحمه الله وأسكنه فسيح جنته قبل أشهر معدودات من وفاته أنه علم بأن السلطان أو رجال بلاطه سمعوا به و بشعره وفكروا في اتخاذه شاعر خليفة المسلمين في بلاد العرب ، وأن المرحوم إبراهيم بك المويلحي كان يومئذ بالأستانة . ولعل أبا الهدى فاتحه في أمر حافظ وفيما يراد به ، وخشي رجال بلاط عباس أن

تتحقق لحافظ هذه الأمنية حين خاطبهم المويلحي الكبير فيها فيزداد نجمه في سماء الشعراء رفعة وتزداد به مكانة خليفة المسلمين في مصر قوة وأيداً، لذلك اتفقوا مع المويلحي كي يفسدوا على حافظ الأمر ويحولوا بينه وبين بلاط السلطان، وكان أبو الهدى يستظرف فتى اسمه شكيب، فبعث المويلحي من الأستانة إلى حافظ بمصر أن يقول شعراً في هوى متصوف لفتى بهذا الاسم، وقال حافظ قصيدته التي جاء فيها :

أخرق الدفّ لو رأيتُ شكيبا وأفضّ الأذكار حتى يشيبا
لا تعبنَّ يا شكيبُ دبيبي إنما الشيخ من يدبّ دبيبا
فسلوا سبحتي فهل كان تسبيـ حيَ فيها إلا شكيباً شكيبا

الخ الخ .

وبعث بالقصيدة إلى المويلحي الذي عرضها على الشيخ أبي الهدى ذاكراً له أن حافظاً يعرّض به فيها . وبذلك تغير رأي ولي الله فيما يعتقد السلطان، وفسد الأمر على حافظ عند السلطان .

وأحسب لو أن حافظاً اتصل ببلاط السلطان وكان شاعره لما طال به الأمر ولبدرت منه بادرةٌ من بوادر حريته المتسلطة على كل نفسه، ولاضطرّ أن يعود أدراجه ليسلك الطريق التي سلك، وليصل إلي نضجه شاعرَ الحرية وشاعر العربية وشاعر الشرق، كما كان حتى وفاته . وإنك لترى هذا الاتجاه في شعره من يومئذ، فبينا

كنت تراه في تأثره بتاريخ الشعر العربي القديم وشعرآء العرب في العصور الماضية وحرصهم على الالتحاق بالسّراة والأمرآء والملوك، إذا به في نفس الوقت يقول شعراً ينعى به على قومه خضوعهم وينعى به على الزمن ما رمى به وطنه وما رمى به الإسلام والشرق . فبينا تراه يذكر عباساً وما وصلت مصر إلى علو الشأو ورفعة الشأن في عهده مما يقتضيه مقام المديح سوآء أكان ما يذكره من ذلك صحيحاً أو زائفاً ، تراه في نفس هذه الفترة يقول :

متى أرى النيل لا تحلو مواردُه ... لغير مرتهب لله مرتقب

فقد غدت مصرُ في حالٍ إذا ذُكرت ... جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب

كأنني عند ذكرى ما ألم بها ... قرمٌ تردّدَ بين الموت والهرب

إذا نطقتُ فقاعُ السجن متكئي ... وإن سكتُّ فإن النفس لم تطب

يا آل عثمانَ ما هذا الجفاء لنا ... ونحن في الله إخوانٌ وفي الكتب

تركتمونا لأقوامٍ تخالفنا ... في الدين والفضل والأخلاق والأدب

وتراه كذلك في هذه الفترة من حياته يقول :

سأسكتُ حتى لو رأى القومُ حالتي ... رأوا رجلاً هانت عليه مصائبهْ

رجائي في قومي ضعيفٌ كأنه ... جنانُ وزيرٍ سوّدته مناصبه

ودائي كدآء الدين عزّ دوآؤه ... وحظي كحظ الشرق نحسٌ كواكبه

فيا ليت لي وجدان قومي فأرتضي ... حياتي ولا أشقى بما أنا طالبه

ينامون تحت الضيم والأرض رحبة ... لمن بات يأبى جانب الذل جانبه

ثم هو في هذه الفترة يبدأ عنده الإحساس بأن فنون الشعر العربي التي سلك القدماء لم تبق كافيةً للتعبير عن هذه المعاني الجديدة القوية التي ينبثق ضياؤها في أرجاء نفسه، والتي يزداد شعوراً بها كما شعر بعدم مقدرة الأمراء والملوك على النهضة التي يرجوها لقومه وللإسلام وللشرق نهضةً حرة قوية فيقول موجهاً خطابه للشعر:

ضعتَ بين النهى وبين الخيال ... يا حكيمَ النفوس يا ابنَ المعالي

ضعتَ في الشرق بين قومٍ هجودٍ ... لم يفيقوا وأمةٍ مكسال

قد أذالوك بين أنسٍ وكأسٍ ... وغرامٍ بظبيةٍ أو غزال

ونسيبٍ ومدحةٍ وهجاءٍ ... ورثاءٍ وفتنةٍ وضلال

وحماسٍ أراه في غير شيءٍ ... وصغارٍ يجرّ ذيل اختيال

. . . .

آن ياشعر أن تفكّ قيوداً ... قيدتنا بها دعاةُ المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا ... ودعونا نشمّ ريحَ الشمال

عاونت الأحداث التي ذكرنا والتي نأت بحافظ عن السودان وعن خدمة الحكومة وعن بلاط عباس وعن مقام شاعر الخليفة على نموّ هذا الروح في نفس حافظ كما عاون على نموه استعداد حافظ وفطرته. فهو كما رأيت كان شديدَ البرَم بكل قيود الحرية شديدَ التأفف من هذه التقاليد التي يقتضي الأمراء الناس، ومن هذا التكلف الذي يريد السَّراة أن يطبعوا به حياتهم. وأين يجد

الإنسان الحرية ؟ يجدها عند الشعب الحريص على الحرية ما تمتع بها، الظمئ لها ما حُرم منها، فلتختلط نفس حافظ بنفس الشعب، وليمتزج روحه بروحه، وليعلن وإياه سخطه على هذه الأغلال التي وضعت في عنقه، وليكن هذا الإعلان قوياً تتفزز منه الأفلاك وتهتز من قوته الأرض والسماء، لكن هذا الشعب الذي خرج من نكبة الثورة العرابية بنكبة الاحتلال الانكليزي، هذا الشعب الغرق بصنع حكامه وأمرائه المستبدين في بحار الجهالة والمسكنة، هذا الشعب الذي استغله أدعياء الحرية ثم تركوه ينعى حظه، هذا الشعب لم يكن سريعاً إلى رد الظلم، ولا كان سريعاً إلى الثورة على البغي والعدوان. ولم يكن شعب مصر وحده الشعب الوَكل، بل كانت شعوب الشرق وكلها مثله، خاضعةً لحكم الغرب خضوعه، مستسلمةً إلى أقدارها حتى لكأنها مطمئنةٌ إليها. فهل ترى تستريح نفس حافظ إلى أية ناحية من هذه النواحي المظلمة جميعاً ؟ أم ترى نفسه القلقة منذ نشأته يزداد قلقها فتقف بين استنهاض الجامدين ومحاربة المستبدين والتماس نور الأمل خلالَ هذه الدياجي الكاسية سوادَ اليأس القاتم ؟ يكفيك أن تراجع شعره لترى نفس الجندي القديم تثور فتقتحم هذه الميادين جميعاً، ولترى شعر هذا الجندي الضخم العريض الأكتاف المنفتح الصدر الهازئة قوته بقوى ذوي الملك

والسلطان من أهل هذه الحياة يقتحم هذه الميادين قويًّا عاصفاً محطماً ما حوله مخترقاً صفوف الظلام صائحاً بالنائم والغافل ، صائحاً في وجه المستبد والظالم ، مهيباً بالقدر كي يعينه على إيقاظ هذه الأمة الهامدة حوله ، شاكياً متوجعاً كلما أحس بأسنة أشعاره تتقصف حين تصطدم بظلمات الجهل والعماية ، والهوى والظلم ؛ والشره للمال ، وبكل النقائص اجتمعت في الظالمين ومن يلوذون بالظالمين ، وأناخت بكلاكلها على هذا الشعب المصري الذي ملك حبه شغاف قلب حافظ . وما أدري فلعلي لا أظلم أحداً إذا قلت إن حافظاً كان أصدق الشعرآء حبًّا لوطنه وبرًّا به رغم ما أسآء إليه هذا الوطن وما تخلى عنه في أكثر الظروف . فما من قصيدة تقرؤها في هذه الفترة التي نضج فيها شعره ونضجت فيها نفسه لا ترى فيها صورة هذا الوطن مرتسمةً في سويدآء قلبه ممتلئةً بها كل نفسه ، حتى ما يفوته التوجع لهذا الوطن واستنهاض همة بنيه وإلقاء شواظ الغيظ على ظالميه ، سواء كان حديثه عن اللغة العربية ، أو عن الدستور العثماني ، أو عن حادث المرحوم الشيخ علي يوسف في مسألة الزوجية ، أو عن حرب الروس واليابان ، أو عن أي ما شآء من أمور لا صلة لها بالوطن وما يرزح تحته من أعبآء فهو إذ يريد أن يتحدث عن اليابان وانتصارها على الروس ، وإذ يصف غادة اليابان مشمرةً عن ساعدها ذاهبةً إلى الميادين تواسي الجرحى وتقضي حقهم وتراعي في

الوغى من نكبة ، لا يفوته أن يجعل بدء الحديث عن وطنه فيقول :

لا تلم كفي إذا السيف نبا　　صح مني العزم والدهر أبى

رب ساعٍ مبصرٍ في سعيه　　أخطأ التوفيق فيما طلبا

أنا لولا أن لي من أمتي　　خاذلاً ما بت أشكو النوبا

أمة قد فت في ساعدها　　بغضها الأهل وحب الغربا

تعشق الألقاب في غير العلا　　وتفدي بالنفوس الرتبا

وهي والأحداث تستهدفها　　تعشق اللهو وتهوى الطربا

لا تبالي لعب القوم بها　　أم بها صرف الليالي لعبا

ليتها تسمع مني قصة　　ذات شجوٍ وحديثاً عجبا

ثم ينطلق يتحدث عن الغادة اليابانية وعن انتصار اليابان على روسيا ، وعن بزوغ ضياء الأمل في سماء الشرق من جديد .

ويتحدث عن قضية الزوجية بين الشيخ علي يوسف والسيد السادات فيبدأ قصيدته عاتباً على مصر مذكراً إياها بالاتفاق الذي تم بين إنكلترا فيها ثم يقول :

أيعجبني منك يوم الوفاق　　سكوت الجماد ولعب الصبي

وكم غضب الناس من قبلنا　　لسلب الحقوق ولم نغضب

يقولون في النشء خير لنا　　وللنشء شر من الأجنبي

أفي الأزبكية مثوى البنين　　وبين المساجد مثوى الأب

أمور تمر وعيش يمر　　ونحن من اللهو في ملعب

وشعبٌ يفرُّ من الصالحات فرارَ السليم من الأجرب
وهذا يلوذ بقصرِ الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب في وِرده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصدٍ ولا مأرب
ألفنا الخمول ويا ليتنا ألفنا الخمولَ ولم نكذب

ويتكلم بعد ذلك عن قضية شيخ المؤيد ونفاق الناس له برغم صدور الحكم ضده ثم يقول

فيا أمةً ضاق عن وصفها جَنانُ المفوَّه والأخطب
تضيع الحقيقة ما بيننا ويصلى البريءُ مع المذنب
ويُهضم فينا الإمام الحكيم ويُكرَم فينا الجهولُ الغبي
على الشرق مني سلامُ الودود وإن طأطأ الشرق للمغرب
لقد كان خِصباً بجدبِ الزمان فأجدب في الزمن المخصب

ويطول بنا الحديث إذا أردنا أن ننقل من قصائد حافظ التي لا تتصل بحياة مصر اتصالاً مباشراً دائمَ ألمه لما أصاب مصر في حريتها وفي أخلاقها وكرامتها . لكنك قد رأيت هذا تستطيع أن تقدّر ما تفيض به قصائده عن مصر من قوة العاطفة ومن صدق الإخلاص ومن جلال الروعة ، مما يجعلك تحس إحساساً مادياً بأن الوطن تجسد في نفس هذا الجندي الشاعر ، حتى ليكون حقاً إذا أريد أن يكون لمصر تمثال أن يكون تمثال حافظ متلفعاً في عباءة الشاعر ممسكاً بإحدى يديه

قيثارته وبالأخرى سيف الجندي . هو هذا التمثال الذي يرمز به لمصر . وهل نرى قصائد مصرية تحكي في قوتها وفي جلالها وفي عمق عاطفتها قصائدَ حافظٍ عن حادث دنشواي ؟ لقد خلد حافظ بشعره هذا الحادث الذي يقوم علماً في تاريخ مصر السياسي وجسده تجسيداً ماتحسب مرورَ الزمن إلا ليزيد الصلة بين الشاعر والحادث ، وبين النهضة التي سرت في مصر وما كان لحافظ من فضل فيها . وكيف نريد تصويراً لهذه المأساة التي حكم فيها على أهالي دنشواي بالشنق والجلد والسجن فكان يشنق أحدهم ويبقى معلقاً بحبله حتى يجلد اثنان وأهلُ هؤلاء وأولئك ينظرون أقوى من قوله :

جُلدوا ولو منيتهم لتعلقوا بحبال من شُنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه بين الشفاه وطعمه لا يعذب
موتان هذا عاجل متنمرٌ يرنو وهذا آجلٌ يترقب

ويذكر نشواي كذلك في قصيدته (السياسة والشعر) وداعاً للورد كرومر فيقول إشارة إلى ما أذكى حادث دنشواي في النفوس من ظماءٍ للعدل والحرية :

قتيلُ الشمسِ أورثنا حياةً وأيقظ هاجعَ القوم الرقود
فليت كروماً قد دام فينا يطوّق بالسلاسل كلَّ جيد
ويتحف مصرَ آناً بعد آنٍ بمجلودٍ ومقتول شهيد

لتنزعَ هذه الأكفانُ عنا ونبعثَ في العوالم من جديد

يشهد شعر حافظ أن فطرته غالبت كلَّ صور التقليد وغلبتها ، وسلكت به السبيل التي أعدَّ القدر له وظلت به فيها حتى بلغت به إلى الأوج والذروة منها ، في هذه الفترة انطبعت حياة الشعب المصري في نفس حافظ وأوحت إليه كما أوحى له حب مصر كلَّ شعره . فالشعب المصري ظمئٌ للحرية في ظلال الدستور ، فليكن حافظٌ الصوتَ القوي الذي ينشد أغاني الحرية ويترنم باسم الدستور . والشعب المصري ظمئٌ للعلم الصحيح وللجامعة مهد هذا العلم الصحيح ، فليكن حافظ الصوتَ الذي يرتفع طلباً للجامعة ودفاعاً عنها . والشعب المصري له كل المصلحة في أن تكثر بينه المعاهد والجمعيات الخيرية ، فليكن حافظ هو الذي يتكلم باسم هذه المعاهد ويدعو الناس إلى عونها . وكلما شعر الشعب المصري بحاجته إلى شيء أو بتألمه من شيء وجد في حافظ الصوتَ القوي الذي يرتفع طالباً ما يطلب الشعب ، متألماً لما يتألم منه الشعب ، حافزاً الشعب إلى مزيدٍ مما يطلب ؛ مذكياً في نفسه مزيداً من الألم للأمر الذي منه يتألم . وليس إلا أن يقرأ الإنسان جزءي ديوانه الثاني والثالث ليرى هذا الانتقال المعنوي في نفسيته ، وليرى صدى حياة الجماعة مترددا في أنغام شعره . وإنه في هذه الفترة من فترات حياته ليمدح عباساً وليمدح السلطان عبد الحميد ، كما أنه كان يمدحهما من قبل . لكنه يمدحهما بلغة جديدة وبلهجة جديدة ، ليس

هو حافظ النظام الذي يريد أن يكون شاعرَ الأمير أو شاعر الخليفة، ولكنه حافظ الذي ينطق بصوت الشعب ويقصّ ظلاماته ويتحدث عن آماله ومطالبه . وبحسبك لتقدر ما كان يحسّ هو من ذلك أن تقرأ هذا المطلع من قصيدة له في تعليم البنات :

كم ذا يكابد عاشقٌ ويلاقي   في حب مصرَ كثيرةِ العشاق

إني لأحمل في هواك صبابةً   يامصرُ قد خرجت عن الأطواق

لهفي عليك متى أراك طليقةً   يحمي كريمَ حماكِ شعبٌ راق

وأن تترنم بقوله

إذا الله أحيي أمةً لن يردّها   إلى الموت جبارٌ ولا متكبر

بحسبك أن تقرأ هذا الشعور لتقدر شعوره بأنه يتحدث باسم أمة وأنه يحسّ بذلك إحساساً عميقاً حين يتحدث إلى خديوي مصر أو إلى خليفة المسلمين ، وماله لا يحس بذلك وهو يقول :

لعمرك ما أرقتُ لغير مصرٍ   وما لي دونها أملٌ يرام

ثم ماله وهو يحسّ ذلك لا يقول في رجال المابين الهمايوني عقب صدور الدستور العثماني :

ولى زمان المعتدين كما انطوى   جيلُ الشيوخ وإمرة الخصيان

لا السيفُ يذهب بالمسيء ولا الرؤى   تجدي المسيءَ ولا رُقى الشيطان

وُضع الكتابُ وسيقَ جمعهم إلى   يوم الحساب وموقف الإذعان

وهو في تلك الفترة التي بلغ الأوج فيها ، وأصبح صوت شعب مصر قد

أصبح كذلك صوت الشرق وصوت الإسلام . والواقع أن الصلات التي كانت تجمع الشرق والإسلام في ذلك الظرف ، والتي كانت تتمثل في دولة الخلافة قد أتاحت لهذا الذي تمثلت مصر في فؤاده أن يحيط نفسه بهذه الهالة التي تتكلم العربية ، وإن كانت على رأس أمة الخلافة دولة لا تعرف غير التركية . وإنك لتقرأ قصائده في الدستور العثماني وفي فتنة الأستانة وخلع عبد الحميد وتولية رشاد فتقرأ عبارات صادرة من أعماق النفس والفؤاد وترى صورة جديدة في الشعر العربي لم تعرف من قبل في مختلف عصور الشعر العربي إلا في أبيات قليلة متفرقة هنا وهناك في شعر المعري والمتنبي من غير أن تجتمع في قصيدة تدل على أن الشاعر قصد بهذه الأبيات إلى غاية اجتماعية أراد الاعتماد لبلوغها على الشعب وتحريك نفسه .

وهذه الوجهة الجديدة للشعر العربي مما اختط حافظ هي التي جعلت مراثيه ومدائحه مقصودة بها غاية غير الغاية التي كان يقصد إليها فيما مضى . فهو إذ بكى محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين وإسماعيل صبري وعبد الخالق ثروت وغيرهم لم يبك للبكاء ، ولكنه أراد أن يقيم من الشعر العربي تماثيل لهؤلاء الرجال يبنيهم بها بعد موتهم في نفوس الأجيال التي تخلفهم لتكون أنباؤهم حافزة غيرهم لعمل كعملهم . وإن الذين عرفوه ليدركون هذا لكثرة ما كانوا يسمعونه يردد قول القائل :

شتان بين قرًى وبين رجال ... يبني الرجالَ وغيره يبني القرًى

وبعد أن تمثل حافظ مصر والشرق والإسلام بدأت نفسه تتسع وتمتد، وبدأ يصبح بلغته العربية الصريحة شاعراً عالمياً . وقصيدته في زلزال مسينا آيةٌ تدل على هذا ، وتدل عليه في إبداع وروعة قلّ نظيرها . وأحسب لو أن حافظاً استمر في هــذا الطريق الذي توحي فطرته لوبة شعره لحلق في الشعر العالمي إلى سماء غاية في الرفعة . ولَنقل هذا الشرق وأبناءه في نظر العالم خطوةً كبرى ، لكن طوراً جديداً من أطوار حياته النفسية كسر أجنحته وهوى به من سمائه . وهذا الطور سنعرض له بعد قليل .

في تلك الفترة التي بلغ شعر حافظ فيها الأَوج والذروة يلاحظ قارئ هذا الشعر ملاحظة لها دلالتها في تصوير حياة نفس حافظ . فهذا الشعر ينزع إلى التصوير المحسوس نزعةً صريحة ظاهرةً تجعلك في كثير من الأحيان ترى خواطر حافظ فيه وكأنها لوحة مرسومة أمامك تقع عينك منها على الدقيق والجليل . اقرأ القصيدة الــتي رفعها إلى الامبراطورة أوجيني عند قدومها إلى مصر بعــد زوال ملكها ووصفه لقصر الجزيرة فيها . اقرأ في قصيدته التي مطلعها «أثنى الحجيج عليك والحرمان» وصفه للجيش العثماني، اقرأ قصيدته في حفلة رعاية الأطفال اقرأ في قصيدته عن نكبة مسينا بالزلزال هاتين الصورتين:

قضي الأمر كلّه في ثوان ... خسفت ثم أغرقت ثم بادت

بغت الأرض والجبال عليهـا ... وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلي حقداً عليهـا فتنشق انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفاً ... بشواظٍ من مارجٍ ودخان
وتسوق البحارُ ردّاً عليها ... جيشَ موجٍ نائي الجناحين داني
فهنا الموتُ أسودُ اللون جونٌ ... وهنا الموتُ أحمرُ اللون قاني

***

رب طفلٍ قد ساخ في باطن الأرض ينادي أمي، أبي، أدركاني
وفتاةٍ هيفاءَ تُشوى على الجمر تعاني من حرّه ما تعاني
وأبٍ ذاهلٍ إلى النار يمشي ... مستميتاً تمتدّ منه اليدان
باحثاً عن بناتـه وبنيه ... مسرع الخطوِ مستطيرَ الجنان
تأكل النار منه لا هو ناجٍ ... من لظاها ولا اللظى عنه وان

هذا الجانب التصويري كان أقوى الجوانب في حياة نفس حافظ وهو قد كان كذلك منذ نشأته، وهو قد كان خير عون له على أداء رسالته في إنهاض همة الشعب المظلوم بتصوير مظالمه وتجسيمها على نحو ما رأيت من صور قدمت شيئاً منها حين تحدثت عن شعره في حادث دنشواي وفي غيره من الحوادث، وهو لذلك جديرٌ بعناية خاصة ممن يريد بحث حياة حافظ وشعره بحثاً لا يتسع له المقام هنا .

ظل حافظ يقتحم بشعره الميادين ويحطم ما حوله من الأوهام ويستنهض الهمم حتى سنة ١٩١١ ؛ أي نحو خمسة عشر سنة كاملة .

وألقى من بعد هذه السنين ببصره فيما حوله فإذا القوى التي يحارب أشدّ منه أيداً ، وإذا الشعب الذي يستنهض أضعفُ من أن يثور وأن يلقيَ عن ظهره أعباء الظلم التي أناخت عليه من مختلف النواحي . هنالك وقف متلفتاً يسائل شعره إن كانت ما تزال به قوة جديدة قديرة على أكثرَ مما صنع وعلى تحريك الشعب وقهر الظالمين . وما نحسبه يئس من قوة شعره ، ولكنه يئس من الشعب الذي لم يتحرك وإياه بمقدار ما أراد . كان حادث دنشواي فثار له الشعب فعدلت انكلترا عن خطة مناوأة الخديوي عباس إلى مصانعته وبعثت بسير الدون جورست بديلاً من لورد كرومر ، فإذا الخديو يسارع إلى الرضى عن هذه المصانعة ، وإذا صنائعه يصبح أكثرهم صنائعَ ممثل انكلترا في مصر ، وإذا هذه الجذوة التي كان عباس عاملاً من عوامل توقدها تهدأ شيئاً فشيئاً ، ثم يختلف المصريون فيما بينهم خلافاً شديداً يزيد حافظاً من قومه يأساً . أفيلقي لربة شعره العنان ويتغنى بالشعر على صورة عالمية على نحو ما صنع في حادث مسين؟ ! ولكن لمن يتغنى ? لهؤلاء الظالمين الذين عصفوا ببلاده وبالشرق وبالإسلام؟ أف الشرق وأف من الغرب لا خير في هذا ولا في ذاك . والخير في رأي حافظ أن يعلن اليأس والهزيمة . واليأس إحدى الراحتين والخير في أن يستريح مرةً ثالثة موظفاً في الحكومة ، وفي أن يقبل ما عرض عليه من وظيفة في دار الكتب .

واستراح في هذه الدار عشرين سنة كان فيها شاعر الظروف التي

تسمح له بقول الشعر أو تقتضيه قوله ، ولذلك كان شاعر رثاء أكثر مما كان شاعراً في غير الرثاء من فنون ، بل هو قد ترك فنون الشعر جميعاً إلا في فترات نادرة غاية الندرة ، واطمأن إلى مباحثه في اللغة العربية ينهل من دار الكتب في أمرها ما يشاء له هواه .

على أنه مالبث أن شعر باقتراب موعد إحالته إلى المعاش حتى تجدد أمله في الشعر ، وطمع في أن يحمل من جديد قيثارته ليستنهض همة الشعب . والعجب أنه طمع في ذلك بحرارة الشاب الذي كان ينشد الجموع من ثلاثين سنة مضت فيهزها هزا ، واستعداداً لهذا اليوم الذي يقف فيه ينشد الشعب وضع قصيدة تربو أبياتها على مائة وخمسين نشرت منها الصحف الشيء القليل ، وهي تتحدث عن الحياد البريطاني الحالي وعن سياسة صدقي باشا . وهذه القصيدة هي التي يقول فيها عن صدقي باشا

يا آلة للقاسطين ودميــة … في قبضتيها النقض والإبرام

والتي يقول فيها متحدثاً عن رئيس وزارة مصر الحاضرة بعد وصف أفاعيله:

لأهمّ أحيِ ضميرَه ليذوقها … غصصاً وتنسف نفسه الآلام

ولعل القارئ يشعر في هذين البيتين بمبلغ ما كان في تلك القصيدة من قوةٍ ومن دلالة على وحدة الحياة في نفس حافظ وحدةً قصمها الموت في يوم ٢١ يوليه (تموز) سنة ١٩٣٢ فألبس مصر وألبس الشرق وألبس الشعر وألبس اللغة العربية عليها ثوب الحداد .

مصر : … محمد حسين هيكل

شخصية حافظ وشعره

كاد ينصرم الشهر الثاني منذ سكت صوت حافظ إبراهيم وثكل النيل شاعره ، وأصيب الأصدقاء ، بأعز الناس فقداً على الأصحاب والخلطاء .

وإن كل من يعرف حافظ إبراهيم .وما كان يفيض به على أصدقائه وأصحابه من حلو الأحاديث ، وممتع القصص ، ولطيف النوادر ليتساءل عن مقدار الوحشة التي نزلت بالمجالس التي كان يرودها ، والمجتمعات التي كان يغشاها ، وقد يأخذه العجب إذا ماعرف أنها إلى اليوم ولما تستشعر الفراغ الذي خلفه حافظ ، أو تستوحش بفقده ! وإنها لأكثر منك دهشةً وهي تسجل هذا بل هي لا تملك هذه الإجابة من غير أن تشعر في قرارة نفسها بشيء من الخجل والاستحياء . وقد يغلو بعض أصحاب حافظ فيتهم نفسه بعقوق الصديق الذي طالما أطربه وغناه . وسرّى عنه وواساه .

الحقيقة أن لا جحود ولا عقوق . فإن كان ولابد من استقصاء الحقيقة وتوجيه الاتهام ، فما خصمنا في هذا إلا شخصية حافظ القوية ، تلك التي ملأت نفوسنا في حياته وانطبعت بها بعد مماته .

ذلك هو السر في أن حافظاً قد مات وكأنه لم يمت ، وارتحل عنا

وكأنه حاضرنا . اعتاد الناس إذا ما تحدثوا عن الشخصيات أو جاء ذكرها أن تذهب أفكارهم إلى المظاهر ومالها من روعةٍ وبريق . لذلك قد يندهش الكثير إذا ما ذكرنا شخصية حافظ وأَخذنا نتحدث عنها ؛ فكيف يمكن لهذا الرجل المتواضع الذي غلبت عليه الفطرة والبساطة أن نحشره في زمرة الشخصيات الغنية بمظاهرها ، المدلة بمقامها وعظمتها ؟

لسنا نحن الذين يحشرونه في زمر تلك الشخصيات ، بل هي الطبيعة قد فعلت ذلك . ولم تكتف بأن دسّته في صفوف الشخصيات الممتازة بل قدمته عليها فسبقها وخلفها وراءه رغم رائع مظاهرها ، وأُبهة مجاليها .

ففي نفس الوقت الذي كانت طباع الرجل وبساطته تستران شخصيته عن العيون وتلقيان عليها حجاباً كثيفاً ، كانت في الوقت نفسه تدفعان بها إلى النفوس فتصيب منها أرفعَ محلّ وأعزّ مكان .

إن الشخصية التي نحن بصددها ليست من تلكم الشخصيات التي تظفر بلفت النظر ؛ وتحريك الخواطر ، فليس لها في تلك الناحية شغل ولا أثر . إنما شغلها مع العقول والنفوس تثير فيهما الإعجاب ، وتظفر منها بالحب والإكبار .

لشيءٌ من انحراف الطبع أم لمجرد حب الفخر — لست أدري — نرى كثيراً من الشخصيات لا تظهر للناس على طبيعتها . فلا بد لها من لباسٍ تتجمل به لتزيد من إعجاب الناس بها واحترامها . فمنها من ترى

في الكبر والغطرسة خيرَ ثوب يناسبها . ومنهـا من ترى في الادعاء والتعاظم مئزراً يكسوها وقاراً . والكثرة ترى التصنع والتكلف خيرَ بردٍ ترتديه لتسحر به أعين الناس وتأخذمكانهافي الجماعات ، وهي في كل هذا ناسية ، أن جميع هذه الثياب مهما أحكم وضعها ، وجمل نسجها تبعد بها عن القلوب . ولا تقربها إلى الأرواح والنفوس .

هذا هو السبب في أن شخصية حافظ في بساطتها وتواضعها ، كانت من أحب الشخصيات إلى الناس ، تسكن إليهـا النفوس ، وترتاح لها العقول والقلوب . فلا تكلف ولا ادعاء ، ولا كبر ، ولا مخيلة ، بل موردٌ عذب وغديرٌ صاف .

فقد كان الرجل بمجرد التعرف به يفتح لك قلبه . و يصارحك أفكاره . فتقرأ فيهما صحيفة أخلاقه وطباعه من غير حاجةٍ إلى أقل جهد أو أيسر عناء .

أنت أمام رجل يسخر من تكاليف الحياة . ويري أن الناس قد تغالوا في تقديرها إلى حدٍّ يظنه هو جنوناً . أما ما تواضعوا عليه من التكاليف والتقاليد فلم يكتف بتحرير نفسه من جانبٍ كبير منها ؛ بل اتخذه موضع سخريته وهزئه . وإنك ليأخذك العجب إذا جمعك به مجلس من تلك المجالس التي شاع عنها في الناس مواقف الجد ، واشتهر رجالها بالتوقر وجلالة المحل . يأخذك العجب إذ ترى حافظاً لا يتردد في أن يرسل نكتة حضرته تصيب من تصيب ، أيا

كان خطره ، وهو بهذا في حدود الذوق السليم بدليل أن الجميع من كانت له النكتة أو عليه سوآء في التفكه بها والعجب منها . كذلك هو لا يتردد في أن يدعو هذا الباشا أو ذاك الوزير باسمه خلواً من الألقاب مجرداً من حروف الألقاب (من دولة ونازل) وليس هذا مما يتقبله الناس — وخاصة أصحاب الألقاب — قبولاً حسناً ، ولكنه إذا جآء من حافظ صار سائغاً مقبولا . لماذا ؟

من رأى حافظاً حين يسبح بأفكاره ، ويتغنى بيت البارودي :

حبوتك ألقاب العلا فادعني باسمي فما تخفض الألقاب حراً ولا تسمي

من رآه وهو يتغنى بهذا البيت أحس أن كل كلمة بل كل حرف يخرج من صميم قلبه . وأدرك أن أعمال الرجل كلها لا تصدر إلا عن عقيدة ، وعرف السر في أن يتقبل الناس منه اطراح مألوف التقاليد . ذلك بأن شخصيته البعيدة عن كل تصنع . المبرأة من كل ما يريب متغلغلة في جميع أفعاله؛ يكسوها من التواضع ما يتقبله الناس . ألا سلاماً على تلك الشخصية التي سخرت من أطماع الحياة ، وغالبتها فغلبتها بما فيها من شر وحسد و كيد وأذى .

والآن فلنتقل من شخصية حافظ إلى شعره . وليس في ذلك ما يتعب ذهن القارئ أو يجهده لما بين شعره وشخصيته من صلة وثيقة ، ورابطة متينة ، فالبساطة الفطرية التي بيناها في خلقه ، تقابلها الصراحة البارزة في شعره وفي كثير من الأحايين ما يكون قاسياً في صراحته ، ولكن روح

الإخلاص البارزة في شعره كفيلة بأن تسيغ صراحته وتجعلها شهية محببة .

إن أبرز صفات حافظ إبراهيم سوآء في خلقه أو في شعره الصراحة، فلقد ملكت عليه جميع السبل حتي خرجت عن الدائرة المرنة التي تجول فيها الكثرة الساحقة من الشعرآء .

بين الشعرآء والحسان رابطة قوية هي رابطة حب التملق والثنآء، فبقدر ما تحرص الحسناء على أن تروق في العيون يحرص الشاعر على تملق الجماهير لكسب ثنائهم . من أجل ذلك فهو جد حريص على أن يمسك العصا من الوسط خشية أن تصطدم آراؤه بفريق دون آخر فيخسر ثناءه وعطفه .

قد يكون للشعرآء في هذا بعض العذر . فهم يعلمون أن عواطف الناس وقلوبهم هو المحل الذي يصدرون إليه بضاعتهم ، فإن هم أغضبوا تلك العواطف فقد كسدت سوقهم ، وردت إليهم كل عروس حسنآء، عجوزاً شمطآء ، ورجعت إليهم الدرر النادرة ، أصدافًا بائرة . أدرك غالبية الشعرآء ذلك فحرصوا على تملق العواطف ؛ وأسرف كثير منهم في هذا الحرص لدرجة تلاشت معها آرآؤهم ، وانجرح في سبيلها شممهم ووفاؤهم ؛ وهنا نرى سعة خلق حافظ الصريح قد غلب حافظاً الشاعر ، فخرج به من دائرة غلبها الملق والحرص ؛ ودفعه إلى ميدان تسوده الرجولة والإباء ، فلعلك لا تجد في فهرس الشعرآء شاعراً كان أصرح ولا أقسى في خطاب أمته وتوجيه قارص النقد إليها من حافظ مع أمته .

فهو حين تهزّه الوطنية اليابانية ؛ فيتغنى بها ، ويشيد بذكرها ، لا ينسى مصر ؛ ولا يتردد في أن يصيح بمواطنيه :

أنا لولا أن لي من أمتي خاذلاً مابتّ أشكو النوبا
أمة ، قد فتّ في ساعدها بغضها الأهلَ وحب الغربا
تعشق الألقاب في غير العلا وتفدّي بالنفوس الرتبا

وكأنما كان بين حافظ وبين شباب مصر الناشئ في الترف والنعيم ثأر قديم ، فهو لا يخاطبه دون أن يغمز في خطابه ، أنظر إلى قوله وقد دفع هذا الشباب إلى الحماس الوطني :

عارٌ على ابن النيل سباق الورى مهما تقلب دهره أن يسبقا
فتدفقوا حججاً وصونوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدفقا

وفي هذه القصيدة تظهر شجاعة حافظ ووطنيته . فإذا ماعرفنا أن ذلك العهد كان عهداً تربص فيه الإنكليز لزعماء الحزب الوطني ، وبعث فيه قانون المطبوعات فهو في إبان فتوته وجبروته ، وتآزرت فيه القوى للمحاكمات ، وبثت العيون والأرصاد في كل مكان ، وتحفز الأمن العام للفتك والأذى ، إذا عرفنا كل ذلك أدركنا مقدار شجاعة شاعرنا العظيم حين يبرز في هذا الجو غير هيّاب وينشد مواطنيه :

ومن البلية أن تباع وتشترى مصرٌ وما فيها وأن لا ننطقا

فإذا ماحرك شعورهم ، وأثار عواطفهم ، أهاب بهم يدعوهم إلى طريق الثورة ، ولم يكذبهم ما يكلفهم هذا الطريق من الثمن فهو يقول فيه :

الموت في غشيانه وطروقه والموت كل الموت أن لا يطرقا

وهكذا كان حافظ في فجر الحركة الوطنية رجلاً شجاعاً، ووطنياً جريئاً . لا يرهب تهديداً ولا يثنيه وعيد ، و كان على حد قوله :

وعلمهم مصادمة العوادي فمثلك لا يروّعه الصدام

وقد وجد فيه الزعيم الشاب مصطفى كامل خير معوان على إثارة الشعور ضدّ الغاصبين . فكان قوة للزعيم الوطني في جهاده .

وقد كان حافظ في شعره الوطني جمّ التوفيق عظيم المهارة ، خبيراً بأوتار قيثارته ، عارفاً لكل نغم مكانه ومناسبته .

فلغة الشباب عنده فتية الروح . يحدوها الحماس ، وتدفعها القوة :

مضى زمن التنويم يانيل وانقضى ففي مصر أيقاظٌ على مصر تسهر
وقد كان مرفين الدهاء مخدراً فأصبح في أعصابنا يتخدر
إذا الله أحيي أمة لن يردّها إلى الموت قهارٌ ولا متجبر
رجالَ الغد المأمول إن بلادكم تناشدكم بالله أن تتذكروا
فكونوا رجالاً عاملين أعزةً وصونوا حمى أوطانكم تتحرروا
وياطالبي الدستور لاتسكنوا ولا تبيتوا على يأسٍ ولا تضجروا
فما ضاع حقٌ لم ينم عنه أهله ولا ناله في العالمين مقصر

أمّا لغته للشيوخ الذين تأخرت سروجهم عن صفوف المجاهدين ، فشاعرنا يرسلها إليهم تمشي إلى قلوبهم بين صفي حكمة ووقار ، و إليك شيئاً مما قال عن شيوخ مجلس الشورى في ذاك الحين :

شيوخ كلما همت بأمر زأرتم دونه زأر الأسود
لحى بيضاء يوم الروع هانت على حمر الملابس والخدود

لغة أخرى يعرف حافظ لها أثرها في النفس حين يصور أطماع الإنجليز ومراميهم :

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تكُ مصرياً ولا تك مسلما

كذلك كان حافظ صريحاً في خطابه لمواطنيه ، شجاعاً في نصرة بلاده ، جريئاً على شباب قومه في الإبانة عن عيوبهم ، لم يرتض لنفسه تملقهم ، وبالرغم من كل هذا فقد أحبته أمته ، وأعجب به الشباب ، كل ذلك لأن الصراحة والإخلاص ينمان في كل بيت من شعره ، كما كانا يفيضان على شخصيته وخلقه ، وللإخلاص والصراحة جلال تنحني أمامه الشعوب ، وتحترمه الأمم وتتهيبه الجماهير .

أرأيت كيف دفعت الوطنية بحافظ إلى أخطر الميادين ، معرضاً نفسه لغضب المحتلين في عنفوان سطوتهم وجبروتهم ، فقد أبلى في حادثة دنشواي بلاء جنى ثمار انتصاره . فأشار إلى ذلك في خطابه للسير غورست :

فليت كروم‍راً قد دام فينا يطوّق بالسلاسل كلّ جيد
ويتحف مصر آناً بعد آن بمجلودٍ ومقتولٍ شهيد
لننزع هذه الأكفان عنا ونبعث في العوالم من جديد

وما كاد الستار يسدل على هذه المأساة حتى كان حافظ قد أرسل

إلى التاريخ بصحيفتين : إحداهما سوداء قاتمة تلك صحيفة الظالمين ؛ والأخرى بيضاء ناصعة : تلك صحيفة شاعر النيل .

نظرة في شعر حافظ تنبئنا أنها لم تكن الوطنية وحدها التي دفعته إلى ميدانٍ تحف به المكاره ، وتحدق به الأخطار ، بل هناك خلة أُخرى دفعت بالرجل إلى طريق وعر ، ومركب صعب ، تلك هي الوفاء .

لقد شهرت الحرب على الشيخ عبده . وقاسم أمين . أما الأول فقد اصطدمت آراؤه بآراء شيوخ الأزهر — وللأزهر وشيوخه في ذاك الوقت شأن وخطر — فأجمعوا أمرهم بينهم ، وأثاروها شعواء ، مسمومة سهامها ، غير عفيف سلاحها ، فاجراً شيطانها ، يستبيح كل غير مباح ، وينال بالباطل مايحرم أن ينال ، فلما حمي وطيسها ، وضاق الحق بالباطل ذرعاً ، تقدم حافظ إلى الميدان ، حاسراً غير مقنع ، يدفع عن صديقه ، ويرضي حقوقاً للمروءة والوفاء . انظر مقدار غضبه لصديقه وقصيدته التي يقول فيها :

يا أميناً على الحقيقة والإفـ	ـتاء والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الإمام في موطن الرأ	ي ونعم الإمام في المحراب
ليت مصراً كغيرها تعرف الفضـ	ـل لذي الفضل من ذوي الألباب
إنها لو درت مكانك في المجـ	ـد ومرماك في صدور الصعاب
وتفانيك في سبيل أبي حفـ	ـص ومسعاك عند دفع المصاب
لأظلتك بالقلوب من الشمـ	ـس ووارت عداك تحت التراب

وفي قصيدة أخرى يشير إلى موقف صديقه من أعدائه :

أمام الهدى إني أرى القوم أبدعوا لهم بدعاً عنها الشريعة تعزف
رأوا في قبور الميتين حياتهم فقاموا إلى تلك القبور وطوّفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم على صنمٍ للجاهلية عُكَّف
فأشرق على تلك النفوس لعلها ترق إذا أشرقت فيها وتلطف
فأنت بهم كالشمس بالبحر إنها تردّ الأجاج الملح عذباً فيرشف

أما محرر المرأة الذي ثار عليه الرأي العام واجتمعت الأقلام على التشهير به والطعن فيه ؛ وتألبت عليه الجماهير ، وتخاذل الأصدقاء عن نصرته ، فقد رأى بجنبه الصديق الوفي . والشاعر العظيم ، لا يأبه بالجماهير الصاخبة ، ولا يكترث بالنفوس الثائرة ؛ بل هو يسخر منها و يعيرها بعجزها عن الفهم ، والنزول على حكم العقل والمنطق :

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه
فلو أن شخصاً قام يدعو رجالهم لوضع نقابٍ لاستقامت رغائبه
ولو خطرت في مصرَ حوآء أمنا يلوح محياها لنا ونراقبه
وفي يدها العذرآء يسفر وجهها تصافح منا من ترى وتخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد وجيش من الأملاك ماجت مواكبه
وقالوا لنا رفع النقاب محلل لقلنا نعم حقٌّ ولكن نجانبه (1)

---

(1) سئل حافظ عما رأى في مشروع قاسم من الصواب فأجاب أنه لم يقرأ من كتابيه شيئاً

لا تظنن أن وفاءه قد رضي منه بهذا القدر من نصرة أصدقائه ·
فهو لم ينس أن يثأر لصديقه الشيخ عبده بعد مماته من أولئك الذين
كدروا عليه صفو العيش ، وأقلقوه بالاتهام الباطل والدس الوضيع ·
وإليك ما يقوله لهم في مرثيته الخالدة للشيخ عبده :

تباركت هذا الدين دين محمد	أيترك في الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قدقضى	ولانت قناةُ الدين للغمزات
مددنا إلى (الأعلام) بعدك راحنا	فردت إلى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغي سواك عيوننا	فعدن وآثرن العمى شرقات
وآذوك في ذات الإله وأنكروا	مكانك حتى سوّدوا الصفحات
لقد كنت فيهم كوكباً في غياهب	ومعرفةً في أنفسٍ نكرات

من خلال هذه السطور ندرك ما كان عليه حافظ من عقيدة سليمة،
وغيرة دينية ، وتحت تأثير هذين العاملين كتب حافظ عمريته الخالدة
فتبوأت من الشعر العربي مكاناً فذاً في نوعه ، فريداً في بابه ·

وهكذا كانت حياة حافظ جهاداً مستمراً في سبيل الدين والوطن
والأخلاق ، فما اختاره الله إليه حتى منّ عليه في الأولى بأمم تندبه
وتبكيه ، وشعر خالد للأجيال تنشده وترويه ، جزاه الله في الآخرة
بخير ما يجزي به عباده المجاهدين ·

مصر :   حفني محمود

حافظ الرجل



إبراهيم عبد القادر المازني

ليس هذا مقالاً عن حافظ الشاعر ، فإن لهذا « كتاباً » سيصدر في أوانه ويشترك في وضعه الأدباء كلهم أو جلهم ؛ ولكنما هذا مقال عن حافظ « الرجل » أو هو طائفة من الذكريات تخطر الآن بالبال .

كانت قهوتا « جراسمو » و « متاتيا » مثابة الأدباء ومنتداهم ، وكان المرء لا يعدم منهم واحداً في أية ساعةٍ من ساعات النهار أو الليل ، فهذا يدخن النرجيلة في صمت ولعله يستعين بها على النظم أو التفكير ، وذاك يلعب الشطرنج ويزجي به الفراغ ويقتل الوقت ، وثالث في حفل من الأدباء أو الشعرآء أو الأصدقاء ، يتطارحون الشعر أو يتناشدونه أو يتبادلون النكات أو يفعلون غير ذلك مما يجري في المجالس العامة بين النظرآء أو الإخوان ، وقد عرفت حافظاً أول ما عرفته في قهوة جراسمو ، ولا أذكر كيف كان ذلك ولا

من الذي قدمني إليه وعرفني به ، ولكن أذكر أني رأيته مرة هناك وكانت أمامه نرجيلة ، ولم أره قط يلعب الطاولة أو الشطرنج أو غيرهما ، فلعله كان لا يجيد ذلك أو لا يرتاح إليه أو لا يصبر عليه ، وكان في حفل واسع الحلقة والكل منصت إليه ، فقد كان بارع الحديث سريّ الفكاهة ، وكان يستولي على المجلس ولا يكاد يدع لغيره كلاماً ، وإذا بالمرحوم إمام العبد — أحد شعراء ذلك العهد وزجاليه - يقبل عليه إقبالاً فيه من اللهفة أكثرُ مما فيه من الشوق ، ثم انحنى على حافظ وأسرّ إليه كلاماً فقام هذا إليه ، وعيني تراعيهما ، ومال به عن الجمع ، ثم دس يده في جيبه وأخرج حافظة كبيرة دفعها إليه في صمت وتركه وعاد إلى مجلسه .

لم يمض إمام بالحافظة ، بل فتحها ووقف هنيهة يرنو إلى وهج الجنيهات الذهبية المرشوقة في عيونها ، ثم راح يأخذ جنيهاً فآخر ويتردد ويتلفت ، ثم يرتد إلى الحافظة فيخرج بضعة جنيهات أخرى حتى اكتفى فطواها ورجع إلى حافظ فألقى إليه حافظته ومضى عنه ، أما حافظ فتركها لحظة على ساقه كأنه لا يحسها ، ثم أعادها إلى جيبه من غير أن ينظر إليها أو يفتحها ليرى كم بقي فيها ، إذا كان قد بقي شيءٌ .

ولم يكن حافظ على هذا غنياً ، ولا متصل حبل الرزق ، فما كان له عمل إلا قرض الشعر ، ولم يكن يتكسب به ، وإنما كان يمدح من يمدح لأنهم أصدقاؤه ، ولأنه كان يرى من حقهم عليه ومن واجبه

لهم أن يثني عليهم ، ولهذا ترى المدح في شعره قليلاً ، وقلما يتجاوز البيت أو البيتين يردان في القصيدة لسبب معروف وعلة مفهومة ، ومناسبة ظاهرة ، لا تكلف فيها ولا استكراه للشعر عليها ، وكان رثاؤه وفاء أو إكباراً أو قضاء لحقٍّ يعتقده عليه ، ومن هنا كان الرثاء في شعره من خير ما نظم ، وفيما عدا ذلك كان شعره في الاجتماع والأحوال السياسية ، ومن ذلك لم يكن شعره الشعر الذي يمكن التكسب به ، وقد صار قدوة لمن نشأوا على عهده من شعراء عصره ، فكانوا يقلدونه ويحاكونه ويجرون على أسلوبه ، ولكن هيهات ، فما كان يلحقه أحد في هذا الباب . ومع أنه كان منقطع الرزق عفّ النفس يعيش من دخل كتبه ودواوينه على الأكثر فقد كان جواداً لا يضن بما معه كله . وقد حدثني هو قبيل وفاته وبعيد إحالته إلى المعاش ، أنه كان مرة في بيته فدخل عليه الخادم بظرف فضة فإذا فيه قصيدة جيدة يستوكف بها ناظمها بره ، ويستمطر جوده . قال فأعجبت بالقصيدة واستحييت أن أردّ قائلها خائباً ، وأكبرته أن أدعوه وأخجله بالعطاء ، فعددت الأبيات فوجدتها عشراً . فوضعت له عشرة جنيهات في ظرف بعثت به إليه .

قال : ومضى نحو عام فزرت المرحوم إسماعيل صبري باشا الشاعر فتذاكرنا الشعر وجرّ ذلك إلى ذكر أجواد الأمراء من العرب وصلاتهم للشعراء ، فتذكرت القصيدة وصلتي لصاحبها وأسفي على أني لم أعرف

قائلها إلى الآن ؟ فضحك إسماعيل صبري وقال أنا أعرّفك به ، قلت : هل تعرفه ؟ قال : نعم ، واسمع أبياته فإني أحفظها ، ثم أنشدنيها فعجبت ، وعرفت بعد ذلك أن إسماعيل صبري أراد أن يركبني بالدعابة فكتب الأبيات و بعث بها رسولاً إلي عاد إليه بالجنيهات العشرة ! وروى لي صديق لي ولحافظ أنه طلب منه مرة جنيهاً ، ولم يكن الصديق فقيراً ، ولا كانت به حاجة إلى الجنيه ، وإنما أراد أن يمازحه و يثبت لإخوانه أن حافظاً لا يذكر أبداً دينًا له ، ثم مضى يوم فطلب منه نصف جنيه ، وسأله كم لك الآن عندي ؟ فقال حافظ بلا تردد : « خمسون قرشاً فلا تنسها » فضحك الحاضرون ، و كانوا يذكرون الجنيه السابق !

ولعل حافظاً كان الشاعر الوحيد من شعراء عصره الذي لم يحقد على المذهب الجديد في الأدب ولم يحاول قط أن يتناوله بالزراية أو التنقص ، أو يكيد أو يدس له ، بل لقد كان يعالج أن يفهم هذا المذهب لينصفه و كان إذا شرحت له نظرية يعترف بصدقها وسدادها و يراها غير منافية للصدق الذي في سريرته والإخلاص الذي بني عليه طبعه ، فيقول : أنا إذن من المذهب الجديد .

وأذكر أني زرته مرة في دار الكتب و كنت مشغولاً بابن الرومي ، فجرى ذكر قصيدة طويلة له في وليد ، فعجب حافظ رحمه الله لقدرة ابن الرومي على نظم ثلاثمائة بيت في وليد ليس في حياته شيء لأنها لم تبدأ إلا منذ أيام ، وقال : إنه هو لا يستطيع أن يقول أكثر من ثلاثين

أو أربعين بيتاً في رجلٍ تام الحياة مكتمل الرجولة ؛ فقلت له: إن هذا هو الواجب أن يكون ، لأن الرجل الكبير الذي تمت حياته واكتملت رجولته ، يكون قد أصبح محدوداً بحدود هذه الحياة وبسيرته فيها ، فليس يسع الشاعر أن يخرج عن هذه الحدود التي رسمتها سيرة الرجل وحوادث حياته ، وإذا تجاوزها بجهدٍ فلن يكون ذلك إلى مدى بعيد ، ولكن الطفل الوليد كله أمل منبسط الرقعة مترامي الآفاق لا يحدّ الكلام فيه شيء ، فمجال الخيال رحيب لا يعترضه ولا يأخذ عليه متوجّهه شيء ، وفي وسع الشاعر أن يركض في كل ناحية بلا عناء أو نصب ، وفي مقدوره أن يتمثل حياة الطفل كما ينبغي أن يكون — أي على هوى الشاعر ، وليست ثلاثمائة بيت بالكثيرة لولا القافية فاقتنع حافظ ولم يكابر .

ولم يكن يمدح أحداً في وجهه أو في غيبته نفاقاً أو إشفاقاً ، فقد كان جريئاً مطمئناً إلى طريقته في الشعر ، راضياً عنها غير راغب في التحول إلى سواها ولا مستعد لذلك ، ولم يكن فيما يأخذه على إخوانه أو الشعراء غيره شيء من المرارة ، أو ما يشعرك بأن أضالعه تنطوي على حقد أو كره أو حسد أو غير ذلك ، فقد كانت نفسه كماء النبع الصافي الذي لم يمتزج بعدُ بتراب الأرض وأقذارها ؛ وكانت فيه على إسرافه وجوده قناعة وصبر عجيب ؛ وحياء شديد من الشكوى أو التململ ، وكانت رجولته تستنكف من ذلك وتخشى سوء تأويله .

وقد مات وهو أشد ما يكون حماسة كما كان في عنفوان شبابه ؛ فلم تخمد جدوة وطنيته ولم تبترد حرارة نفسه ؛ ولم تنطفئ شعلة روحه ولم تقبر لهيبها لا السن ولا الأمراض ولا الحادثات ، نعم قل شعره بعد أن التحق بدار الكتب ، ولكن قدرته على الإجادة حين يقوله لم تضعف ، ولقد سمعت منه ميميته التي نظمها قبل وفاته ؛ ولست أعرف أن له ما هو أجود منها وأرصن .

ولكن لا أريد الآن أن أتكلم عن شعره كما أسلفت ، وإنما أردت أن أثني على خلائقه ورجولته ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

مصر : إبراهيم عبد القادر المازني

حافظ المحدث

قضي الأمر، ولا راد لقضاء الله، وأصبح حافظ إبراهيم في ذمة التاريخ .



الدكتور زكي مبارك

وأول ما نقاسيه بعد فقده هو الوحشة الأليمة التي تساورنا بوفاة رجل مهذب كان يصافي كل من يعرفه من الناس، وكان لقاؤه تحيةً خالصة لا تعرف التصنع ولا الرياء، وكان الأدباء في صدره إخوة وأبناء يعزهم جميعاً ويوليهم من إنصافه وتشجيعه ما يندر أن يوجد له نظير عند أكثر الشعراء، وكان متواضعاً أجمل التواضع، وكان في تواضعه يقوّم أغلاط محدثيه في لطف ورفق، ثم يشير عليهم بمراجعة القاموس، لينفي عن نفسه التثبت، وهو بذلك يريد أن يكون موقفه موقف المشير لا موقف الأستاذ . ولقد أذكر أنه لقيني مرة فاستنشدني شيئاً من شعري فأنشدته قصيدة ختمت بهذين البيتين :

يامن يعز علينا أن نجازيهم   صداً بصدٍ وإغضاء بإغضاء

لو ترحمون وصلتم شيقاً كلفاً ألقى جفاكم عليه ألف بأساء

ونطقت كلمة (يعز) بكسر العين ، فقال رحمه الله : يظهر يامبارك أنه يحسن أن تنطق (يعز) في هذا الموضع بفتح العين ، لأنها بمعنى يشق وهي بالضم بمعنى يغلب ، وبالكسر معناها صار عزيزاً ، ومع هذا فأرجوك أن تراجع القاموس ، وقد راجعت القاموس يومئذ فرأيتني على صواب ووجدت فيها لغتين الكسر والفتح . ومع هذا استفدت من كلامه رحمه الله فائدتين : اللطف في تقويم المحدثين ، والشعور بقيمة الدقة في نطق الألفاظ فإني مع اعترافي بأن (يعز) بمعنى يشق تفتح عينها وتكسر أصبحت أميل إلى إيثار الفتح ليصح التمييز بالحركات بين المعاني الثلاثة ، وكذلك كان رحمه الله يميل إلى تنويع المدلولات وفقاً لتنويع حركات البناء .

***

ليس يهمني في هذا المقال رثاء حافظ ، لأنه أعز علينا من أن يودع بالبكاء ، لكن يهمني أن أذكر الخصائص الأدبية لحياة ذلك الشاعر العظيم ليكون في ذلك خدمة لمن يريدون الكتابة عنه من الباحثين .

وأول ميزة لحافظ أنه كان محدثاً ، وكلمة محدث في هذا الموطن تماثل الكلمة الفرنسية Causeur والحديث نوع من الأدب الرفيع ولا يحسنه إلا الأقلون ؛ وقد كان حافظ محدثاً بكل معنى الكلمة ، كما يقولون ، فإذا صادفك في الطريق ألهاك حديثه عن نفسك وعما تقصد

إليه ، وأذكر أني ما صادفته مرة في الطريق إلا ألهاني وشغلني بأدبه نحو ساعة أو يزيد ، وكنت في جميع المرات أجد مشقة في صرف نفسي عن حديثه لأمضي إلى حيث أشاء . أما مجالسه فكانت جنة دانية القطوف ، كان يجلس فيتحدث في ظرف ولباقة ، وينتقل من فن إلى فن ، ومن حديث إلى حديث ، وهو في ذلك يمزج الحلو بالمر ، والجد بالهزل ، ويحوّل الجالسين إلى آذان مرهفة ، وقلوب واعية ، وأحلام تكاد من طرب تطير . والخمر التي وصفوها بأغرب الأوصاف لا تفعل بالنفس ما كانت تفعله أحاديث حافظ إبراهيم . ولقد لقيته مرة في المساء فاحتجزني بالقوة ، وانطلق يتحدث وكنت من لحظة إلى لحظة أقول : أعفني يا حافظ بك ، أنا عندي الحصة الأولى ، وأنت لا تعرف ما الحصة الأولى عند المدرسين ! وهو في كل مرة يقول : اسمع هذه فقط ! ثم انصرفت وأنا أوقن أن الدنيا كلها بما فيها من حصة أولى وأخيرة لاتساوي لحظة في حضرة حافظ إبراهيم . فيا رحمتا لمن صرفتهم الشواغل أو المقادير عن أحاديث حافظ إبراهيم ، فإن هؤلاء حرموا من خير كثير ، ولم يعرفوا شيئاً قيماً عن حافظ ، لأن شعره ونثره لا يقاسان إلى حديثه ، فإن له أمثالاً ونظائر في الشعر والنثر ، ولكنه كان في حديثه منقطع النظائر والأمثال .

كانت أحاديث حافظ إبراهيم ترجع إلى أصلين : أولهما روائع الأدب العربي ، وثانيهما ما اخترعه أو سمعه من الطرائف المصرية .

أما الأصل الأول فكان أبلغ دليل على أن حافظ بذّ معاصريه جميعاً في الاطلاع على ذخائر الأدب العربي ، وأعيذ القارئ أن يظن أن أحاديث حافظ كانت كلها نكتاً وفكاهات لا ، فقد كانت أحاديث حافظ روايات ممتعة شائقة خلابة ، من الهزل البارع والجد الرصين ، وكان يحفظ كثيراً من القصائد والمقطوعات والأبيات ، واسمه (حافظ) منطبق على حياته الأدبية أتم الانطباق ، وقد كانت كلمة (حافظ) لقباً عند المتقدمين على من يحفظ جملة كبيرة جداً من الأحاديث الصحيحة ، ولقب بها كثير من الأئمة والمجتهدين ، وكذلك كان حافظ إبراهيم في الأدب ، فقد كانت محفوظاته تعد بالألوف ، وكانت لا تزال ماثلة في ذهنه على كبر السن وطول العهد ، بحيث لا يمتري إنسان في أن هذا الرجل كان من أعاجيب الزمان .

وقد حدثني رحمه الله أن في نيته أن ينشر كتاباً يختار فيه لكل شاعر بيتاً واحداً ، وأنه جمع أصول ذلك الكتاب فبلغ بضعة آلاف ، ثم أخذ يذكر الشواهد ، وأشار إلى أنه اختار لأحد الشعراء هذا البيت:

ولا بد لي من جهلة في وصاله　　　فهل من حليمٍ أُودع الحلم عنده

ثم أخذ رحمه الله يعجب بسحر هذا البيت ، فقلت له : ليست هنا مشكلة كما يظن حافظ بك . فقال : وكيف ؟ فقلت : الخطب سهل ، يترك حلمه عند البواب ! فقهقه رحمه الله قهقهة عالية وقال: صدقت ، فإن البوابين أحلم الناس ! ثم اندفع يحدث عن (سماحة) البوابين !

وكانت أحاديث حافظ تذكر بما قيل : إن الناس يختارون أحسن ما يقرأون ، ويحفظون أحسن ما يختارون، ويتحدثون بأجمل ما يحفظون، فإذا شئت الأدب فخذه من أفواه الأدباء ، كذلك كانت أحاديث حافظ تفيض بالأدب المتخير الجميل ، وكانت أقوى حجة على غنى الأدب العربي وقدرته على إمداد الاديب بما يحتاج إليه في شتى الفنون . وقد لاحظت أنه كان يحفظ أشعاراً كثيرة مجهولة طويت في بطون المخطوطات واستقر علمها من ذاكرته في حرز حريز . وكان يحفظ كذلك نتفاً كثيرة جدًّا من الكلمات النادرة التي تدل على بلاغة أو عقل أو وجدان ، فكان يقف رحمه الله عند الكلمة يختبرها اختباراً دقيقاً ثم يضيفها إلى محصوله الوافر لتكون من عتاده حين يفتتح الحديث

وقد كنا نقرأ أن بعض المحدثين القدماء كان يصاحب الأمراء أعواماً طويلة فلا يعيد حديثاً واحداً وإن طال الزمان ، فما كنا نصدق ذلك ، فلما رأينا حافظ وشهدنا كيف يتحدث كل يوم بفن جديد عرفنا أن ذلك من المواهب التي لا تمنحها العناية إلا لقليل من النابغين .

ومن الواجب أن نقرر أن نشأة حافظ ساعدت على تفوقه في الآداب العربية ، والنشأة هنا لا أريد بها غير العشرة الصالحة التي وفق إليها حين اتصل برجال الأدب الممتازين مثل محمد عبده ومحمود البارودي وسيد المرصفي ومن إليهم من الرجال الأبرار الذين كانوا يؤمنون بأن اللغة العربية من أرقى اللغات وأدبها من أسمى الآداب ، وهذا حق

فإن اللغة العربية ظفرت في ماضيها بما لم تظفر به لغةٌ من اللغات الحية ، فقد دخلت إليها العبقريات من كل جنس عن طريق الإسلام ، وجمعت بين ثقافات مختلفة في آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وكان لها من الحظ ما لم تحظ بمثله الفرنسية أو الانجليزية في العصر الحديث ، وذلك أن الفرنسية أو الانجليزية على حظهما من الرواج لم يكتب بهما من الأجانب عن فرنسا وإنجلترا إلا عدد ضئيل جداً ، أما اللغة العربية فتغلغلت في أقطار كثيرة أجنبية ثم حولت أولئك الأجانب عنها بفضل الإسلام إلى جنود مخلصين يكتبون بها ويؤلفون ويصنفون ، فكان من ذلك أن ظفرت العربية بكنوز غنية من عبقريات الأمم المختلفة ، وكان لها من جهودهم غَناءٌ أي غَناء .

وهذا الذي نقوله لا تحيز فيه ، ولكنه الحق ، وللقارئ أن يتأمل هذه الفكرة فسيراها من صميم الصواب .

أولئك الأصدقاء العارفون بقدر اللغة العربية وجهوا حافظ وجهة صالحة حين غرسوا فيه الميل إلى التعمق في الأدب القديم ، فكان له فيه مَعين من الرواية لا ينضب ولا يغيض ، وكذلك كان من أعرف الناس بما أبدع الأولون .

أما الأصل الثاني لأحاديث حافظ وهو الفكاهات المصرية فيرجع إلى فطرة حافظ ، وكانت فطرةً شعبية تمتُّ إلى روح الشعب بأمتن الأواصر والأسباب . والشعب المصري شعب طربٍ وجذل وافتنان في ضروب اللهو والمجون ، وكان حافظ يتلمس مساقط النكتة في المشارب والقهوات ، ويسره أن يكون له من أدب العامة مجموعة صالحة يتندَّر

بها عند الخواص حين يشاء .. والعامة في مصر أدباء بالسليقة، وحكمتهم في جهلهم تذكر بأعراب البادية الذين كانوا ينطقون بالقول الفصل وهم جهلاء . وقد استطاع حافظ أن يتخلص من قيود الصنعة وهو يستمع إلى العوام ، لأن هؤلاء ليسوا بفنانين ، ولكنهم يرمون بالكلمات القصيرة فيمثلون بها عواطفهم ونوازعهم أصدق تمثيل وفي أدب العامة صدق وصراحة وإشراق، لأنه يصدر عن النفس في غير تكلف، ويعبر عن مشاعر أصحابه في جلاء . وكان من هم حافظ أن يسمر عند الخواص المصطفين من أعيان المصريين ، فينقل إليهم من حكمة العامة أمثال ما كان ينقله الأصمعي من حكمة الأعراب في مجالس الخواص ببغداد .
أضيف إلى هذا أن حافظ كانت له شيعة كبيرة جداً من عشاق النكتة المصرية ، وكانت له خلوات وصبوات تحتاج إلى ذلك الهزل الطريف، وما كان رحمه الله يتورع عن مصارحة أصفيائه ببعض الألفاظ والتعابير التي تتفق له أو لغيره في أوقات العبث والمجون ، وكان هو نفسه يتفق مع بعض أصدقائه على خلق أسباب النكتة ، وله في ذلك نوادر يحسن طيها عن القراء مراعاة لبعض التقاليد ، وأذكر أنه حدثني مرة عن مشكلة أثارها في بعض المنازل وقد استدعى أحد الأطباء المعروفين وزج به في ورطة (فنية) صارت بعد ذلك مورد فكاهة لمعارف ذلك الطبيب .

وكان حافظ مع هذا يخلق النكتة خلقاً حين يعز عليه النقل : من ذلك ما حدثنا به أن أحد رؤساء الأقلام كان له حاجب ، واتفق

أن الحاجب أخبر مخدومه أن برقية جاءته بوفاة أبيه، وأنه لذلك في حاجة إلى إجازة، فمنحه رئيسه الإجازة، وبعد ذلك عاد الحاجب فطلب إجازة لأن برقية جاءته بوفاة أبيه، فمنحه رئيسه الإجازة، وبعد عامين التمس الحاجب إجازة لأن برقية جاءته بوفاة أبيه، فمنحه رئيسه الإجازة. وقد فهم الحاجب من هذا أن رئيسه ينسى ما فات وبعد مدة طلب إجازة لأن أمه ماتت، فمنحه رئيسه الإجازة، وبعد عامين طلب اجازة لأن برقية جاءته بوفاة أمه، فصرخ الرئيس في وجهه وقال: قد أفهم أن يكون لك أربعون أباً، ولكن لن يكون لك إلا أم واحدة!!، فأسقط في يد الحاجب وفهم أن رئيسه يعد عليه أسباب الإجازات.

وكان حافظ يجد متعة عظيمة في رواية النوادر والملح والفكاهات، وكان يقبل على جليسه في نشاط عجيب فيتكلم بكل نفسه، ويسدّ على مُجالسه منافذ الخلاص من المجلس إذا طال، وكان أحياناً يتعب من القصص فيقول في كل مرة: هذه آخر نكتة أقولها. وتكون هذه النكتة الأخيرة واحدة من خمسين يقصها بعد أن تبدو عليه أمارات الملال.

وليحذر القارئ أن يظن أن حافظ كان على هذا «مهرجاً» معاذ الأدب أن يكون ذلك، وإنما كان حافظ «محدثاً» على نحو ما كان الجاحظ في قديم الزمان.

وقد نفعه مذهبه عند كبار الرجال. وأذكر أنه ذهب مرة إلى المغفور له سعد باشا وكان رئيس الوزراء وكتب إليه هذين البيتين:

قل للرئيس جزاه الله صالحة   بأن شاعره بالباب ينتظر
إن شآء حدثه أو شآء أتحفه   بكل نادرةٍ تروى وتبتكر

أو كما قال ، فقد اجتذبت هذين البيتين من الذاكرة بجهاد عنيف والمؤكد هو عبارة « إن شآء حدثه » وفيها تصريح بما كان يفهم حافظ عن نفسه من حسن الحديث .

وقد تعلق به سعد باشا في أخريات أيامه تعلقاً شديداً ، وكان سعد باشا من الأدبآء الفحول ، فكان يروقه أن يستمع إلى أحاديث حافظ الحلوة الشهية . وقد اجتذبه في العام الذي توفي فيه إلى مصاحبته في مسجد وصيف . وقد سألت المرحوم حافظ بك عما اشترطه على سعد باشا في تلك الصحبة فابتسم وقال : اشترطت أن أبقى دائماً في البيجاما كيف ما كانت الظروف ، ثم سكت لحظة وقال إلا إذا اقتضت الحال أن نستقبل بعض السفرآء !! وهذه الحكاية لها حواش لا تكتب وهي تدل على مبلغ ما وصل إليه من امتلاك قلب المرحوم سعد باشا .

وللقارئ أن يثق بأن الصلات التي ربطها حافظ مع كبار الرجال في مصر من أمثال سعد زغلول وأحمد حشمت ومحمد عبده ومحمد محمود يرجع الفضل فيها أولاً الى صفآء نفسه وظرف حديثه وعذوبة لسانه ، لأنه كان في حديثه أشعر منه في قصيده . وكان لصوته رنات مقبولة جداً على قوته وجهارته ، وتلك مزية تفرد بها بين أدبآء العصر الحديث .

انتفع حافظ بحلاوة حديثه أجزل النفع ، واستطاع ان يتخلص

من قيود وظيفته تخلصاً تاماً ، فكنت لا تراه في دار الكتب المصرية إلا زائراً ، ولم يستطع الأستاذ لطفي بك السيد أن يحتجزه في تلك الدار إلا في اللحظات التي كان يحتاج فيها لمعاونته عند مراجعة ترجمته لكتاب الأخلاق . وكان رحمه الله يخرج من بيته فيظل يتنقل من نادٍ إلى ناد ، ومن منزل إلى منزل ، باحثاً عن أصفيائه الذين ألفوا ما ينفحهم به من طيبات الأحاديث

***

لقد كانت الدنيا ضيقة على حافظ ، وكان يتلمس الخلاص من همومه في لقاء إخوانه ، فليؤنس الله وحشته في قبره ، وليجزه عن أدبه ووفائه أطيب الجزاء .

وبعد فلحافظ مكانته في الشعر والنثر ، وهو فيهما من الأئمة المقدمين ، وسيحرص قوم على درس شعره ونثره ، وسيجمع له من ذلك مجلدات إن صحت نية المتاديين ، فهل من إخوانه وأصفيائه من يسارع إلى وضع كتاب عن أحاديث حافظ قبل أن تتصرم الزمن ويعفي النسيان على ما بقي منها في أذهان أولئك الأصفياء ؟

لقد فكر ناس في جمع نكت البابلي ، ثم انصرفوا ونسوا ، فليتهم لا ينسون هذه المرة حتى لا تصبح دائماً كلمة شوق في موكب أم المحسنين .

نسيت روعته في بلدٍ   كلُّ شيءٍ فيه ينسى بعد حين

مصر :   زكي مبارك

حافظ الانسان


محمد سعيد الأفغاني

همتُ بشعر حافظ وأنا طفل لاأبلغ الثالثة عشرة وقد أُهديت إليّ نسخة من ديوانه مكافأةً مدرسية ، ولم أدرِ لما حُببَ إلي شعر هذا الرجل في تلك السن ، ألأن دأبه تصوير آلام البائسين للناس يعطف القلوب عليهم ، أم لأنه يحزّ النفوس حين يعرض شكاوي المظلومين ويستنصرلهم الله وملائكته ، أم لأن همه تعزية المفجوعين في كل قارعة تنزل بهم ، أم لأنه يصرخ أبداً في وجوه الغاصبين ؛ غاضباً لوطنه أن يحتل ، ولأمته أن تهان ، وعلى هؤلاء الشراذم الذين يكونون في كل بلد شرّاً عليه من عدوه أن يعقوا بلادهم وأمتهم ، أم لأن الله ألقى في قلبي محبته من أول عهدي بشعره ، لا أدري ولعل كل أولئك اشترك في التأثير ، فلقد كان رحمه الله إنساناً قويّ الإنسانية ، لا يسع امرءاً تجاهلها مهما بلغ في قلة الحس . وكم من شعراء لا تحصيهم

عدًّا: فحول عظماء، مطبوعون مشهورون، أرباب جاه وسلطان، تقرؤهم فيعجبك كلامهم إلا أنك لا تحبهم، وإذا أحببتهم فلا يبلغون من قلبك ما يبلغ حافظ: الشاعر المسكين.

قد تحصل على الشهرة بالمال فتلقب بالشاعر وبالمطبوع وبالعبقري، وقد تحصل عليها بالجاه فتنظم في السنة قصيدة ويسميك أهل البلد شاعر بلدهم غير مدافع، وقد تمتد هذه الشهرة المبهرجة وتتسرب إلى الجماهير في بلاد الله بالعدوى، وقد يتطوع لك أنصار ينبهون من ذكرك ويعملون على خمول مناوئيك، نعم قد يكون لك كل ذلك، إلا أن شيئًا واحدًا لن يكون لك بالزور، مهما تنوعت أفانينه، وهو أن تخدع أهل البصائر حين يخلون إلى أنفسهم فتسلبهم قلوبهم التي هي وديعة الله. وإلا فما الذي يصرف النفس البيضاء النقية عن الغني المنعم، الذاهب صيته، إلى الفقير البائس الذي تحالفت قوى الوجود على حربه، إن لم يكن ذلك لبقية حق لا تزول حرمتها من النفوس.

وإذا كان شاعر، اجتمع في جلب الأنظار إليه، شعره وماله وجاهه، فحافظ نهض به شعره وحده، وسما بهذا الشعر إنسانية واضحة، شديدة الأسر، تمد إليك عنقها، فيبهرك جلالها. سواء في كل ذلك المدح والرثاء والوصف والوطنيات.

* * *

أسعد أوقات الإنسان ساعة تغشاه فيها الرحمة. فيحس ان خالجة

في نفسه تتسع ، ثم تغزر ، ثم تترع نفسه ، ثم تبغي لها متنفساً فتفيض على جوارحه . ثم ترى عينيه قد ذبلتا ولمع فيهما الدمع ، ثم ترى الرقة تكاد تتدفق من كل خلية فيه ، فإذا هو في غيبوبة علوية ، وإذا العيُّ في هذه الساعة ينطلق لسانه وتنفرج شفتاه بكل مثير للشعور ، وإذا هو يكاد - إن توفر فيه الحس الطاهر - يخرج عن ماله ولباسه إن كان فيما حركه داعٍ إلى ذلك .

الحياة مفعمة بمشاهد البؤس : في الدور ، في القصور ، في الرياض في القفار ، في الأسواق ، في المهود ، في كل ناحية على هذه الأرض ما يسترقّ أفئدة الجماد ، وما يجعل من نفوس الناس النبلاء مراجل تغلي بأشد الاندفاع ، لا يهدئها إلا أن يزال البؤس عن صاحبه ؛ لكن المسألة ليست في وجدان هذه المشاهد أو فقدانها ، بل في وجدان الحاسة التي بها تبصر النفس .

***

ليس في ذكر شاعرٍ لعارض محزن وإظهار توجعه له كبيرُ أمر ، يكاد الناس كلهم يكونون كذلك : يرى أحدهم مصيبة في جار أو قريب أو صاحب فيتحسر عليه ، ثم تمضي الأيام وإذا بالقلم قد جف ، وبالحزن قد سُلي . لكن النبل والخلق الكريم أن تعظم الرحمة حتى تستوي منها حظوظ الناس جميعاً ، فلا يكون في ذلك صديق وعدو ، ولا جوارٌ وبعد ، ولا تقف دون هذه الرحمة الحواجز بين الحكومات ، ولا البحار بين بلاد

الله، تطوف كرة الأرض كلها فتبصر آلام الخلق فيكون تأثرها بها وتأثرها بالمصيبة في النفس سواء. أصحاب هذه النفوس قليلون بالطبع، سمت بهم إنسانيتهم فتخطت العرف والتقاليد، واستوى عندها الناس قاطبة، أحمرهم وأسودهم، موحدهم ومشركهم، تدين الله بقول رسول الإنسانية ونبي الرحمة صلى الله عليه وسلم: «**فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ**». أولئك مهبط عناية الله، وأولئك المثل العليا في البشر، وأولئك مفزع الناس في مدلهمات أمورهم،

ولقد كان شاعرنا «حافظ» واحداً من هؤلاء: قلب رقيق، ودمعة ثرّة، وعاطفة ثائرة، وموهبة في الشعر معجزة، وبصيرة نافذة، وإحساس سامٍ؛ في زوايا نفسه مكامن للحزن بعيدة الغور، سيطر حس البؤس العالي على فؤاده وصدره، فأنت حين تتبصر في شعره تروعك منه مسحات علويات، يرتلها فيخيل إليك أنها وحي الرحمن لهذا العصر؛ رحمة شاملة لكل ما خلق الله حتى في اللحظات التي تأبى فيها الأثرة القومية والنزعة الدينية على الناس أن يتجلوا بالرحمة:

منذ القرن الثاني عشر للميلاد ودول أوروبا تبيّت فيما بينها تقسيم الدولة العثمانية أو الرجل المريض كما أسمينه. تعاني الدولة معهن حرباً بعد حرب، وخسارة بعد خسارة، يقتطعن بلادها وينقصنها من أطرافها. ولم يؤخر في أجلها إلا تنازع الدول وخلافهن على التوزيع. وكان للدولة العثمانية حينئذ صفتان: الواحدة أنها الدولة الشرقية الوحيدة التي

تقف للغرب، والثانية أنها قبلة أنظار المسلمين في أقطار الأرض، يرونها دولة الخلافة الإسلامية وحامية الشرع الشريف، ويرون في دول الغرب التي لا تتهيب في سبيل أطماعها الدنيئة، من إراقة الألوف المؤلفة من دماء الأبرياء، يرون فيها أعداء ألداء. ففي كل يوم حرب مع دولة الخلافة، وفي كل يوم مجازر وأشلاء قتلى وسيول دماء يعبر الغرب عليها إلى ما يشتهي. وفي كل بلد من البلاد العثمانية أسر أرسلت من أفلاذها إلى هذه الحروب. وكانت إيطاليا واحدة من هذه الدول ذوات المطامع الواسعة في البلاد العثمانية وخاصة العربية منها [1]. فماذا كان شعور عامة الناس في الشرق يوم وقع الزلزال بـ (مسين) و (رجيو) من الأرض الطليانية ودمر على أهليها؟

لم يكن ينتظر أن يكون شأنهم إلا شأن كل موتور ضعيف، تنزل بواتره الطاغية باقعة من عذاب الله: يتناقلها مستبشراً أن قصم الله من

---

(١) ظهرت فيما بعد، نوايا الطليان في بلاد العرب حين انقضوا على برقة وطرابلس الغرب فكان لهم بذلك في تاريخنا الحديث الأيادي الطولى في تمزيق العرب كل ممزق، وكان لهم الفضل على من حذا حذوهم في الكيد للعرب والدس للإسلام. يفجئوننا كل صباح بالطرق المبتكرة لاستئصالها، لا يألون في ذلك جهداً: إجلاء أهل الديار عن ديارهم، وتشتيتهم في الصحاري يفنون فيها جوعاً وعطشاً، ثم عمل دائب في البقية الباقية، يمدون إليها أيديهم في كل ما تملك من عزيز: شرفاً كان أو ديناً أو مالاً ... إلى غير ذلك، مما سيضطلع به تاريخ الإنسانية في القرن العشرين الأسود. فخلد الطليان أذى عميقاً في قلب كل عربي وكل مسلم بل كل إنسان في قلبه خالجة رحمة وعاطفة حنان.

جبروت البغي والعدوان، معتبراً، موقناً أن عدل الله يأبى إلا أن يديل للمظلوم من الظالم .

هذا الشعور حق وعدل لا اعتراض عليه، وهو أقل ماينتظر في مثل تلك الأيام السود . إلا أن فئةً واحدةماتستطيع إلاأن تسموعلى سائر هذا الناس بقلوبها وشرف حسها النبيل ؛ فترى في الظالم والمظلوم معاً أخوين جديرين بالرحمة .

ثم تعزف هذه النفوس العالية عن أن يكون نظرها نظر عبرة، فتأبى إلا أن تعم بالرحمة والإحسان – على قدر استطاعتها وفي حيز اختصاصها – كلَّ كائن على وجه الأرض .

بمثل هذا الحس النبيل يشرع حافظ في قصيدة « زلازل إيطاليا» وقد هاله الحادث ينزل بإخوانه من البشر فيحار في السبب :

نبئاني إن كنتما تعلمان ... ما دهى الكون أيها الفرقدان

غضب الله ثم تمردت الأر ... ض فأنحت على بني الإنسان

ثم يأخذ في تصوير المصاب الأليم ويختار لصورته أرهب المشاهد أثراً وأذهبها بالنفس، ولست أختار من قصيدته هذه، فكلها مختار، لا يأتي عليها الإنسان إلا ذاب حسرةً قلبه، مما يعرض عليه من الفواجع التي نجمت عن القدر الباغت :

خسفت ثم أغرقت ثم بادت ... قضي الأمر كله في ثوان

ليتها أمهلت فتقضي حقوقاً ... من وداع اللدات والجيران

لمحة يسعد الصديقان فيها باجتماعٍ ويلتقي العاشقان

ولا أحب أن تمرّ دون أن تقف عند حسرة الشاعر على اللدات والجيران الذين اختر مهم قضاء الله وكلٌّ في ناحية ، فإلاّ يكنْ مفرٌّ من القضاء فلا أقل من أن يودع بعضهم بعضاً ويسعدوا بلقاءة ، ثم ليفعل الله بعدها مايشاء . ما نظن أن هذه الأمنية الدقيقة تعني أحداً — يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ — إلا أن يكون ربّ عيال تتفطر كبده للشوكة تصابهم .

ثم يأتي الشاعر على وصف غليان الأرض وطغيان البحار ، وقذف الجبال بالحمم والشواظ ، والجو بالصواعق ، حتى انقض الموت على الخلق ألواناً تكاد أنت من براعة حافظ في فنه تحسها بعينيك . واقرأ الصورة الآتية فليس بها من حاجة إلى كلمة فوق ما فيها :

رب طفل قد ساخ في باطن الأر ض ينادي: أُمي! أبي ! أدركاني

وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ ر تعاني من حره ما تعاني

وأبٍ ذاهل إلى النار يمشي مستميتاً تمتدّ منه اليدان

باحثاً عن بناته وبنيه مسرعَ الخطو مستطيرَ الجنان

تأكل النار منه لا هو ناجٍ من لظاها ولا اللظى عنه واني

ألا تذهلك عن نفسك مستغرقاً في حسرة تكاد تذيبك أسى على هؤلاء الناس ؟

وبعد أن يفيض في الالتياع على مغاني الطليان ويأتي على ذكر

الفراغ الذي خلفته في الفنون الجميلة العالمية ، مما لا بد لشاعر مثله مذهوب اللب في الجمال أن يفطن له ، يودعها فرادى وجماعات :

فسلام عليك يوم توليـ ـت بما فيك من مغان حسان
وسلام عليك يوم تعودين كما كنت جنة الطليان

أما المثل الأعلى في النبل والإنسانية البالغة ففي الأبيات الثلاثة الآتية : إن فيها وحدها قرآن الشعر الأنساني الذي سما عن أن يكون شرقياً ، أو غربياً ، مدنياً أو بدوياً ، وأن يكون فيه ظالم ومظلوم :

وسلام من كل حيٍّ على الأر ض على كل هالك فيك فان !
وسلام على امرئ جاد بالدمـ ـع وثنى بالأصفر الرنان
ذاك حق الإنسان عند بني الإنسـ ـان ، لم أدعكم إلى إحسان

وأنا أعدل بهذه الأبيات دواوين بأسرها ، وما يتصور العقل في الشعر الإنساني العالمي ما يدانيها سمواً ورحمة ، فليس بعدها في الشرف والنبل غاية : أمة الطليان ! لها على العرب أن يجودوا حسرة عليها بالدمع ثم عليهم — مع فقرهم وعوزهم — الإعانة المادية ، ثم بعد ذلك كله ، ماذا يكون ؟ حق أدي والسلام !

***

هذا في القوارع العالمية ؛ أما ما ينزل بالبلد من مصيبة فلا تسل عن شأن هذا الإنسان فيها ، وليس فيه — إذا وعيت ما قدمنا - كبير أمر على حافظ . يكاد يكون لأمته وبلاده عند كل داهمة ،

« قضيبَ الصاعقة » لا تمر سحابة فيها مكمن الخطر إلا اجتذبها ثم حتم على البلاء سبيلاً في صميمه يسلكه ولا محيد عنه ، فيقي بنفسه الناس والأنعام والنبات من أن تحطمهم الصواعق وتنثرهم هباءً في الفضاء . كذلك كان حافظ :

يقيم الإنكليز مجزرة بشرية في « دنشواي » وينزلون بأهل القرية الأبرياء أقسى العذاب ويتوزعونهم بين المشانق والسياط والسجون بحكمٍ من قاض مصري ، فيحزّ هذا البلاء المزدوج في نفس حافظ حزًّا أليماً عميق الأثر ، كأن هؤلاء المظلومين أطفاله يذبحون على عينٍ منه :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو　　أنفوساً أصبتم أم جمادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو　　أقصاصاً أردتم أم كيادا
ليت شعري أتلك محكمة التف　　تيش عادت أم عهد نيرون عادا

وتأبى المقادير إلا أن يكون مصدر هذا الحكم الوحشي قاض وطني ، ويكون صدى هذه النكاية شديداً على حافظ ، فلا يحجم عن أخذ القاضي بقارص العتاب ، مستفظعاً إمضاء هذه القسوة من إنسان فيه روح تألم وعاطفة تختلج ، ثم مصرية نابهة ؛ وقديماً قال طرَفة :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة　　على المرء من وقع الحسام المهند

فلا يمضي حافظ قوله في «دنشواي» دون أن يواري هذا المصري في خجل مميت وتقريع أليم .

إيه يا مِدْرَهَ القضاء ويا من　　ساد في غفلة الزمان وشادا

أنت جلادنا فلا تنس أنا   قد لبسنا على يديك الحدادا

وهذه وصمة لا يغسلها عن أسرة أن يخرج فيها مائة من مثل (غاندي) .

ولفاجعات القدر نصيب كبير من عطف حافظ وحنانه . فهو لا يني فيهن تصويراً وإعظاماً يؤثران في القاصي والداني ، لا تكاد تأتي على سردها حتى تهزك خوالج الرحمة والإحسان ، ويجعلك تجود من ذات يدك ما يمسك من ذات عينك ، وما يُشيع فيك السرور من علو إلى سفل :

بين كل مدة ومدة يقع حريق في بلد وينقض جدار على ناس وينهار بنآء بأسرة . نصيب هذه الكوارث عند الناس جميعاً أسف على ماحدث وتضرع إلى الله أن يلطف بقضائه هنا ينتهي الأمر عند الناس حيث يبدأ عند الشاعر : تتبع نفسه أرباب البنآء وأطفالهم ونسآءهم وشيوخهم : ماذا جرى بهم ؟ سلموا أم هلكوا ؟ ما شأن الرضيع بعد أُمه التي احترقت ؟ ما حيلة العجوز بعد أولاده ؟ من يعول الأرامل بعد بعولتهن ؟ ما هو الواجب على الناس إزآء ذلك ؟

إن على الشاعر أن يضع تفاصيل الحادثة في قرارات النفوس ثم يذكّر أصحابها بما عليهم . هذه كانت مهمة حافظ بعد حريق « ميت غمر » في قصيدته « إلى الأغنيآء » يوجز في عرض مشاهد تمرّ أمام العين سراعاً إلا أنها — على إيجازها — تستثير كوامن الحسرة :

سائلوا الليل عنهم والنهارا   كيف باتت نساؤهم والعذارى

كيف أمسى رضيعهم فقد الأم   وكيف اصطلى مع القوم نارا

كيف طاح العجوز تحت جدار يتداعى وأسقفٍ تتجارى

ثم يسأل الله اللطف والغيث :

رب إن القضاء أنحى عليهم فاكشف الكرب واحجب الأقدارا

ومر النار أن تكف أذاها ومر الغيث أن يسيل انهمارا

ثم يسائل الأغنياء عن إخوانهم هؤلاء ، الذين سلموا ولا مأوى لهم ولا لباس عليهم ، يهيمون على وجوههم في المنعطفات حفاة عراة . ويؤلم حافظاً — إزاء هذا — تباهي المثرين وبطرهم فيذكرهم ويحضهم بلهجة قارعة :

أيها الرافلون في حلل الوشي يجرون للذيول افتخارا

إن فوق العراء قوماً جياعاً يتوارون ذلةً وانكساراً !

***

وتدور عينا حافظ فيما حوله ، فيجد أمور أمته ملتوية كلها ، دب فيها المرض من سنين طويلة وهي لما تتماثل بعد . إن عليه أن ينبهها إلى أمراضها وأن يعجل في دعوة الأُساة ، ولكن فيم يبدأ ؟ فتأخذه حيرة أينما نظر : أيبدأ بمصيبة نصف الأمة وهي الفقر الذي حل بها حين تدافع رجال عظاميون لإنهاض الحال ونعشها فأساءوا :

أيها المصلحون ضاق بنا العيش ولم تحسنوا عليه القياما

وحين رأى الانكليز يمنون على المصريين أنهم قاموا بأمرهم وبسطوا العدل والعمران : أما العدل فخذ له مثالاً عند حافظ حادث

(دنشواي) ، وأما العمران فماذا يفيد المصريين أن تعمر شوارعهم إذا خربت أبدانهم ؟ على حافظ إذاً أن يؤرخ هذا الإصلاح المعكوس في قصيدته « غلاء الأسعار » :

ايها المصلحون أصلحتم الأر ض و بتم عن النفوس نياما

أصلحوا أنفساً أضرّ بها الفق ر وأحيي بموتها الآثاما

ليس في طوقها الرحيل ولا الجـ ـد ولا أن تواصل الإقداما

تؤثر الموت في ربى النيل جوعاً وترى العار أن تعاف المقاما

ويقول في موضع آخر يخاطب هذه الجماعة :

عملتم على عز الجماد وذلنا فأغليتم مالاً وأرخصتم دما ،

أم يشكو الامتيازات التي نخرت في جسم مصر وكل بلد عربي ، أم يصرخ من انحطاط الأخلاق الذي جره التمدن الغربي والجالية الغربية ، والذي سرعان ما فشا في الأحداث وعملوا على نشره عملاً هال حافظاً فقال :

أفي الأزبكية مثوى البنين وبين المساجد مثوى الأب

يقولون في النشئ خير لنا وللنشئ شرّ من الاجنبي

أم يبدأ بمصيبة هي مما تقدم بسبيل و كثيراً ما تتسبب عنها كلها وهي الجهل ؟ كل أولئك سموم تسرع في القضاء على الإنسانية ، وقد أعمل حافظ سلاحه فيها جميعاً . ثم رأى الفقر حاجزاً بين الناس والعلم فعطف على دور الأيتام وجمعية رعاية الأطفال . وهنا روائعه وهنا ذوب

الرحمة يقسمه على الأطفال اليتامى . انظر قصيدته التي أهداها لجمعية رعاية الأطفال وقد استهلها بقصة خلاصتها أنه وجد فتاة هدّ منها السقام ، مات أبوها وبعلها وهي حامل تشفي على الهلاك ، فحملها إلى دار رعاية الأطفال ، فشاهد من عنايتهم بها ما أنساها ألمها وألهاه عن حزنه . اقرأ القصيدة لترى أي عطف وأي حنان يتدفقان في كل أبياتها الرقيقة ، فهو لا يأتي على سرد قصته التي مهد بها لتحريك النفوس حتى يعترف أن بمصر رجالاً عرفتهم الإنسانية في عداد خدامها المخلصين ، فيأبى إلا أن يثني عليهم ويكبر فعلهم :

وإذا بأيدٍ طاهرات عودت   صنع الجميل تطوعت في الحال
جاءت يسابق في المبرة بعضها   بعضاً لوجه الله لا للمال

وتأبى على حافظ إنسانية المديدة إلا أن تنبه رقيق حسه إلى حسنة في هؤلاء الناس ميزتهم بالرقة ودقة الشعور :

وعجزت عن شكر الذين تجردوا   للباقيات وصالح الأعمال
لم يخجلوها بالسؤال عن اسمها   تلك المروءة والشعور العالي

وأراد حافظ أن يؤصل هذه الرحمة ويمكن لها في النفوس فذكر في قصيدة ثانية أن رجلاً سقط من القطار إلى الجسر ، إلى النهر ، ثلاث مرات يقع بين مخالب الموت . ثم ينتشله سابح من اليم فتأخذ الجموع وجمة لهذه الصدفة الرائعة .

أنجاة من القطار ، من الجسـ   ـر ، من النهر ، جل رب الأنام

ثم تبدد الوجوم فتاة أحسن إليها هذا الرجل وعجزت عن مكافأته فجزاه الله بدلاً منها :

وإذا صيحة علت من فتاة برزت من صفوف ذاك الزحام
وقفت موقف الخطيب ونادت: « تلك عقبى رعاية الأيتام
دعوة البائس المعذب سور يدفع الشر عن حياض الكرام
إن هذا الكريم قد صان عرضي وحماني من عاديات السقام
عال طفلي وعالني وحباني بكساء وبدرة وطعام .. الخ»

وأنا — عن عمد — أكثر هنا من الاستشهاد ولا أكتفي بل أحث القارئ على النظر في هذه القصائد العالية برمتها .

ولا يفسر لنا هيام حافظ وولعه بهذه الرحمة التي تؤخذ بها كل نفس حساسة، كأنه قطع على نفسه عهداً ألا يألو البؤس والشقاء حرباً وضراماً : يرقق النفوس ويضع أيدي الناس تتقرى مكامن التعس والألم في نفوس البشر ، ويفظعها لهم ويكرههم بها حتى يجعل منهم جميعاً أعواناً على شدائد الكون، وكأن عليه استئصالها من صدور الناس ؛ نقول : لا يفسر لنا ذلك كله ويزيل عجبنا من شدة التأثر بكلامه مثل أبيات له أربعة في آخر هذه القصيدة التي نحن بصددها وهي قوله :

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً دون شربي قذاه شرب الحمام
فتقلبت في الشقاء زماناً وتنقلت في الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقباً في فؤادي ومشى الحزن ناخراً في عظامي

فلهذا وقفت أستعطف الناس على البائسين في كل عام

والذي أكبره في حافظ أبلغ الإكبار عدم تخليه عن هذه العاطفة الغالية في المواقف الحرجة ، حين جبه الرأي العام مرتين بشجاعة نادرة ، وتوطينه النفس على تحمل ما يرمى به من السوء ، وذلك ما يعز وجدانه في شاعر . فما زلنا نسمع أن كثيراً من الشعراء وخاصة في بلادنا وخاصة فيمن يدرجون على الشعر من أحداثنا ، يصانعون الرأي العام ويتملقونه ويحجمون أن يقفوا منه موقف المعلم ، حتى لأستطيع أن أعدّ في بلدٍ واحد عشرات يقولون الشعر وماتغني دواوينهم كافة غناءَ قصيدة واحدة يقولها شاعر عرف الواجب عليه كشاعر أُمة ، مخلص في نفعها متفان في سبيلها ولو لاقى إليه الأذى والضر .

جلا كثير من السوريين قبل الحرب العامة إلى مصر ، واشتغلوا في كثير من الأعمال فزاحموا المصريين ، فكان لهم منهم منافسون وخصوم . ثم استأثروا ببعض الحرف وكادت تصبح الصحافة في وقتٍ صناعة سورية ، بل لقد صارت بالفعل . هذا إلى فئة قليلة من ابناء الشام عملت في مصلحة الأجانب أعداء مصر والشرق ، فكان منهم مفسدون ، وكان منهم جواسيس . ومنيت مصر بهم وبسوء أفعالهم . لهذا كله ولغيره مما لم نبينه ساءت سمعة السوري في مصر ، ونشأت له في نفوس كثير من المصريين كراهيةٌ شديدة ، أجج في سعيرها أُناس بإخلاص وأُناس بغير إخلاص لغايات مادية ، وآخرون مسخرون لمآرب .

ثم بعُد ما بين الفريقين وقلّ الذين ينصرون السوري و يذودون عنه ، وهذا أمر معقول وعاقبة منتظرة لا محيد عنها . إذ ذاك ينهض حافظ الإنسان ، و يعز عليه حياة هذه العقارب تنفث سمومها بين الأخوين، و يعز عليه أن ينقل المصريون حربهم من الإنكليز أعدائهم ، إلى السوريين إخوانهم، فيرسلها مصلحة جامعة و ينبه المصريين إلى ما سيتورطون فيه. ولا يأبه بردٍ أو صد ، فيصحح للرأي العام خطأه و يعتذر عن هفوته ، مستعملاً أقصى ما وهب الله له من نبل عاطفة وقدم في الإنسانية راسخة؛ كيف يساء إلى أخيه في داره ويحسن إلى عدوه ؟ عقوق بالغ ، وغفلة شائنة في الفريقين، فيقوم بالفرض الذي عليه مؤديه خيراً أداء يلتفت عاتباً إلى مصر :

ماذا جنيت وماذا جنوه بنوك ... أظلمتهم يا مصر أم ظلموك

فبسمت للغرب الطموح وأهله ... ومنحتهم فوق الذي منحوك

وعبست في وجه الشآم وإنما ... قطر الشآم وإن عبست أخوك

ثم ينظم رائعته السائرة « الأمتان تتصافحان » :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ... هنا العلى وهناك المجد والحسب

أيرغبان عن الحسنى و بينهما ... في رائعات المعالي ذلك النسب

ثم يقدم بشجاعة نادرة غير آبه لهؤلاء ولا مكترث لأولئك :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب

وبهذا يقضي على ما كان . وإن بقي في مصر من يأخذ عليه هنات

في عمله هذا فما الشاعر بالذي يحسن به أن يثنيه عن الشرف شيء ، بل هو يفخر في أن ضم طائفتين فرق بينهما التغالي :

لولا رجال تغالوا في سياستهم　　منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا
إن يكتبوا لي ذنباً في مودتهم　　فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

* * *

هذا ، والذي راقني من شجاعة حافظ في مبدئه الإنساني أكثر مما قدمت ؛ قصيدته في عبد الحميد : لا يزال بعلمٍ من النـاس عبدُ الحميد وصولته ومظالمه وفظائعه وافتنانه في تصيد الذين على غير هواه ، يقنصهم الواحد إثر الآخر ، وتأتيه بأخبارهم إدارة جاسوسية لا مثيل لها في نظمها . عمت الرهبة منه سائر الناس حتى صار المرء يخاف أخاه وأباه ، وصديقه وولده . خفتت الأصوات ، وحبست الأنفاس ، وسدت في وجوه السالكين السبل ، والويل لمن تحدثه نفسه بكلمة لا يرضاها عبد الحميد طالت مدة عبد الحميد حتى ألف الناس خنوعهم وموتهم في حياتهم ، ثم عزل وقبض على ناصية الأمور فتية « الاتحاد والترقي » فأعملوا في حاشية السلطان المعزول ورجاله وأنصاره سلاح السلطان نفسه في أعدائه حتى كادوا يستأصلونهم . فهب الناس وكأنما أفاقوا من حلم مريع ، وكان الخُلُق المتين معدوماً فيهم ؛ فعم ذم عبد الحميد وزمانه وسياسته جميعَ الناس ، وأسرفوا في الطعن والقدح ، يتقربون بذلك إلى أُولي الأمر ، فيعمون عهد السلطان بكل مستبشع شنيع .

واستفاض في البلاد شماتة بهذا المخلوع حتى لم تبقَ له حسنة ، ولم تمر به لحظة إلا غمر الناس فيها بآلاف الشرور والآثام . فمن إذاً يقرع الناس ويعلمهم أن الذي هوى إنسان مثلهم : يحسن ويسيءُ ، يصيب ويخطئُ ، خليق بالرحمة بعد سقوطه ؟ ليس فيهم من يجروءُ على ذلك فيما ملكت الدولة العثمانية من بلاد ، ولا في مصر أيضاً التي كان الخديوي فيها هواه مع الدولة . فما العمل ؟ أيبقى عبد الحميد الإنسان هكذا ، يساء إليه ويجرد من كل خير وتلصق به كل طامة ؟

لا ، إن في مصر «حافظ إبراهيم» الإنسان ، ليأخذ حافظ بناصر هذا الهاوي فهو خليق بعطفه وإن مقته الناس عن استحقاق ، ولكنهم في مقتهم أساءوا شيئاً إلى المروءة والنبل ، ما ينبغي لهم كل هذا الاندفاع ، فحافظ كان يمقت أفعاله أكثر منهم ، لأنه شاعر في أعصابه مكبرة تنقل ما يحسه الناس أضعافاً مضاعفة ، ولكن موقفه منه اليوم ، بعد سقوطه ، غير موقفه منه بالأمس :

كنت أبكي بالأمس منك فمالي ... بتُّ أبكي عليك عبدَ الحميد

فرح المسلمون قبل النصارى ... فيك ، قبل الدروز ، قبل اليهود

شمتوا كلهم وليس من الهمة ... أن يشمت الورى في طريد

نعم ، ليس من الهمة أن يشمت الورى في طريد . وقف الشاعر يذكر هذا الشعب بواحدة من حسنات عبد الحميد ، صفقت قلوبهم لها طرباً بالأمس ، فليس يجمل بهم أن ينسوها بهذه السرعة : وهي مد الخط الحجازي .

لك في الدهر والكمالُ محالٌ ... صفحات ما بين بيضٍ وسود
حاولوا طمس ما صنعت وودوا ... لو يطيقون طمس خط الحديد
ذاك عبدَ الحميد ذخرك عند الـ ... ـله باق إن ضاع عند العبيد

وإذاً فعلى الناس إذ نقموا عليه أن يكونوا خيراً منه . ليكرموا مثواه فقد زال ظله ، وليرحموا شيخوخته ، وليخافوا الله من الإدبار بعد الإقبال ، إن لعبد الحميد من الجلال الذي خلعه عليه هؤلاء الناس أنفسهم بالأمس ما يعنفهم — لو أصاخوا إليه — أن يعذبوه ويهينوه

أكرموه وراقبوا الله في الشيـ ... ـخ ولا ترهقوه بالتهديد
ولي الأمر ثلث قرن ينادي ... باسمه كلُّ مسلمٍ في الوجود
كلما قامت الصلاة دعا الدا ... عي لعبد الحميد بالتأييد

ويقوم الشاعر بعزآء السلطان الأسير ويرقّ خطابه معه ، ثم يرى دمعة هذا الرجل العزيز على ملك ذاهب وأيام تدول وصولة تزول وأهل وخدم . ويقرأ فيها حافظ ندم السلطان وتوبته ، وليس أقدر منه منه على قرآءة الدموع . فتهزّ نفسه هذه الدمعة وتعمل فيها أبلغ عمل ، فيجزم الشاعر أنها وحدها كافية لتبييض كل صحفه السود ، ولم لا ؟ عبد الحميد يبكي ، ونحن ناس ، بقلوب ذات شعور ، ما نفوسنا حديد، سامح الله عبد الحميد :

غسل الدمع عنك حوبةَ ماضيـ ... ـك ووقاك شرّ يوم الوعيد
دمعك اليوم مثل أمرك بالأمـ ... ـس مطاعٌ في سيدٍ ومسود

إن العدل حق واجب ، ولكن الرحمة عند النبلاء فوق العدل .

***

وبعد ، فهذا طرف من نزعة حافظ الإنسانية ، أرجو أن أكون بلغتك مافي نفسي من أثرها ، وأيقنت معي أنها نادرة في الرجال ، ولا غرو ، فحافظ واحد من العرب وواحد من المسلمين ، الذين خلفوا لنا — لشقائنا — هذه الأخلاق العلوية فصرنا ونحن على الأرض كأننا نعيش في السماء .

وإن أعجب بها لنفسي ، فما أريد أن أحبها لأمتنا اليوم ، إذ ماذا جر لنا من النفع اليوم هذا الميراث الإنساني ؟ اللهم لا شيء .

خرج العرب من جزيرتهم . لا طمع ولا مكر ولا غنم ، حنان وبر ورحمة يوزعونها في خلق الله ، استبسلوا في إنقاذ البشرية من آلامها فألقت إليهم الحصون بمقاليدها . وشاع لهم في الناس مآثر خير وحسن معاملة وإرهاق للنفس في سبيل إسعاد الناس فدكت لهم هذه الأخلاق — على لينها = أمنع المعاقل ، وسلمتهم أعلى العروش . ثم ساسوا الناس سياسة نقرأ مثلها العليا في تاريخ عمر بن الخطاب ومعاوية وعمر بن عبد العزيز والمأمون وغيرهم ؛ فلم يكونوا ساسة بالمعنى الصحيح اليوم : يعملون على إفناء الأمم فيهم ، وإفقارهم ليغنوا ، وإذلالهم ليعزوا ، ولم يعرفوا استعماراً ولا تفريقاً ، نفعوا كل أحد وضمنوا له الخير من بعده إلا أنفسهم وذراريهم ، ثم ذهبوا ودار الزمان دورته ؛ فأدالت منهم الأيام : فإذا بهؤلاء الذين أحسنا إليهم بالأمس ، لا يألوننا اليوم إساءة وهواناً ،

وإذا بهؤلاء الذين علمناهم الحرية وأذقناهم نعمها في أنفسهم وأديانهم وأموالهم بالأمس، يعملون اليوم على سلبها منا في أنفسنا وأدياننا وأموالنا، وإذا بالذين استغنوا بنا بالأمس، يعملون على إفقارنا اليوم، وإذا بهؤلاء الذين رأبنا صدعهم بالأمس، يدأبون اليوم على شعبنا، وإذا وإذا وإذا . . .

رحم الله أجدادنا، ألم يكن أجدى علينا ماديًّا لو وطدوا لنا ملكًا على غرار ما توطد عليه الممالك اليوم : ظلم وقسوة وعتو وإهلاك، في ثياب تثقيف وتعليم وتدريب، إذاً لما استنسر في أرضنا البغاة، ولكانت لنا في الأمم اليوم كلمةٌ مسموعة .

رحم الله أجدادنا، لم يكونوا ساسةً يبنون ملكًا، بل كانوا رسل أخلاق ورحمة .

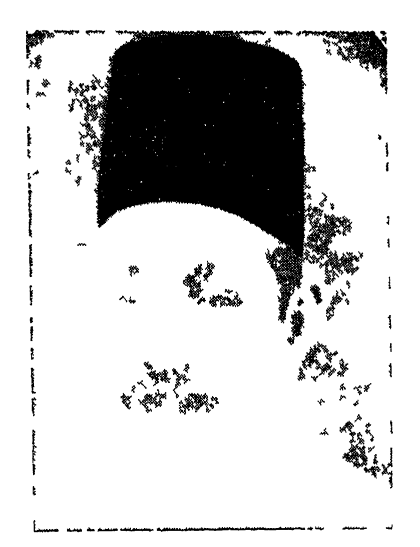
رحم الله أجدادنا، لم يخلفوا لنا تراثًا ماديًّا نستغله، بل خلفوا تاريخًا وأخلاقًا نشقى بها في زمن المادة . رحمهم الله، لقد غلوا في « إنسانيتهم » ثم كرت سنون فبقيت ذكرى، ثم بعثها الله بشراً سويًّا اسمه : حافظ إبراهيم .

تُرى أنعود كرةً أخرى في تاريخ الإنسانية المنقطع، فنبتدئ سلسلة جديدة أولها حافظ إبراهيم ؟ ما أظن أن ذلك لو كان يجدينا .

رحمك الله يا حافظ ! لقد رجع بك فقدان الجاه وقلة المال، وعملت أنت في حياتك على ذلها وإرخاصها، ولقد أغليت من قدر الإنسانية وسمو العاطفة، فمضى يعلو بك النُبل والخلق الكريم .

دمشق : محمد سعيد الأفغاني

حافظ الشاعر الاجتماعي



مصطفى صادق الرافعي

فرغتُ الآن من قرآءة شعر حافظ بعد أن لم يَعُدْ حافظ بيننا إلا شعرَه ونثرَه ، فبالله أحلفُ ما نظرتُ في صفحة مما بين يديّ إلاّ وأُحسستُ أن ذلك الشاعر العظيم يقول في بيانهِ الرائع وصناعته البديعة : أنا هُنا .

ولغةُ هذا الشعر المتَدفّقة بالحياة كأن كلماتها القوية عروقٌ في جسم حيّ متوثب — لم تخرج عن أن تكون هي العربية المُبينَة في جزالتها ونصاعتها ودقة تركيبها البياني ، ومع ذلك فليس في هذا العصر كلّه من يكابر أو يماري في أنها هي لغة حافظ وحده كأنه أُرغم التاريخ أن يحتفظ به في أجمل آثاره .

وأنا أعرف في شعره مواضع من الاضطراب والضعف والنقص سأشير إلى بعضها ، ولكني على ما أعرفه أجد هذا الشعر كالتيَّار يعُبُّ عُبابهُ لا يبالي ما تناثر منهُ وما ركد وما وقع في غير موقعه ، إذ كانت

عظمته في اجتماع مادته لا في أجزاء منها، وفي السر الذي يدفعها في كل موضع، لا في المظهر الذي تكون به في موضع دون موضع، فهو أبداً يقول لمن يتصفح عليه أو ينتقده : انظر لما بقي .

***

ترجع صداقتي لحافظ رحمه الله إلى سنة ١٩٠٠ أول عهدي بالأدب وطلبه، وقد شهدت من يومئذ بناءه الأدبي عالياً فعالياً إلى الذروة التي انتهى إليها، وأخلص لي ثقته وأصفاني مودته وكان همك من أخ كريم، وله في نفسي مكان لم ينكره مذ عرفته، ولم يضق بمحبته منذ اتسع لها، وكنت وإياه يرى أحدنا الآخر من هذه اللغة كالجانبين لصورة واحدة لا يتهيأ في الطبيعة أن يختلفا والصورة بعدُ قائمة، ولا أن يضطرب ما بينهما والصورة منهما على وزن وتقدير .

ولكن هذا لا يمنعني أن أقرر أنه كان عندي أكبر من شعره — ولعله كذلك عند كل من خالطوه بأنفسهم — فإنه يتعاظمك بنفسه القوية وبالمعنى الذي تحسه في العبقري ولا تدري ما هو . وذلك من سحر العبقر بين وأثرهم في نفس من يتصل بهم، فيتسق لهم أمران من أمر واحد، وحظان بحظ ونصيبان بنصيب، لأن مع الإعجاب بآثارهم إعجاباً آخر بالقوة التي أبدعت هذه الآثار . ففي ذواتهم المحوبة يستمر الإعجاب كالسائر على طريق لا موقف عليه، وفي آثارهم يكون الإعجاب في موقف قد انتهت الطريق به فوقف على حدٍّ إن بَعُد وإن قرب .

لا جرم كان شاعرنا عبقرياً عجيب الصنعة قوي الإلهام بليغ الأثر في عصره، يشبه تحولاً وقع في صورة من صور التاريخ، ولكنه كذلك في مذاهبَ من الشعر دون غيرها، فلم يكن معه من التمام في فنون الشعر ما يكون به الشاعرَ التام أو الأديبَ الكامل الأداة.

وكم من مرةٍ كلمته في ذلك ونبهته إلى أنه كالنمط الواحد وأنه يجب أن يترسل شعرُه بين النفس الإنسانية وأغراضها الكثيرة المختلفة، فإذا كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هي السياسة، ولا ينبغي أن يكون شعره كله كشمس الصيف، فإن للربيع شمساً أجمل منها وأحبَّ كأنها مجتمعة من أزهاره وعطره ونسيمه.

ولقد كان يفخر بأنه (الشاعر الاجتماعي) وهذا لقب ميزه به صديقنا الأستاذ محمد كرد علي أيام كان في مصر قديماً فتعلّق بهِ حافظ ورآه تعبيراً صحيحاً لما في نفسهِ وللملكة التي اختصَّ بها. قال لي يوماً في سنة ١٩٠٣ : أنا لا أُعد شاعراً إلاّ من كان ينظم في الاجتماعيات. فقلت له : ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة إنك لا تعد الشاعر إلاّ من ينظم مقالات الجرائد ...

ولا بد لي أن أبسط هذا المعنى في هذا الفصل فإنه كان يخيَّل إليَّ دائماً أن شاعرنا (حافظ) خلق للتاريخ في أصل طبيعته ثم زيدت فيه موهبة الشعر ليكون مؤرخاً حيَّ الوصف بليغ التأثير قوي التصرّف، ومن ثم جاء أكثر ما نظمه وأساسه التاريخ والسياسة وصحَّ له بهذا

الاعتبار أن يقول إنه الشاعر الاجتماعي ، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر ، فإذا كان في المادة اجتماعي وسياسي فليس في الروح إلاّ الشاعر على إطلاقه . والاجتماعيات ليست كلَّ حقائق الحياة وهي بعد ذلك معان خاصة محصورة في زمنها ومكانها . على أن الحقائق ليست هي الشعر وإنما الشعر تصويرها والإحساس بها في كل حيّ تلبسه الحقيقة من النفس ، فالشاعر الاجتماعي شاعر في حيّز محدود من وجوه الشعر ومذاهبه ، وإذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى شعره فناً إذ كان الفن إنسانياً وكان شاملاً عاماً ، والمقاييس التي يطّرد عليها الفن الأدبي لا تكون في الزمن ولا في الموضع بل في النفس الإنسانية التي لا تخص بوقت ولا مكان . فإذا لم يكن الشعر إنسانياً عاماً يولد كل جيل من الناس فيجده كأنما وضع له وارتهن بأغراضه وحقائقه فهو شعر (كالأخبار المحلية) ، وهذا وجه الشبه بينه و بين ما أشرت اليه آنفاً من نظم مقالات الجرائد .

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالأشياء التي نحن منها في الإنسانية والطبيعية والجمال وحقائق الحياة والموت ، بل التي يكون منها يومنا المرقوم بأنه يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ... فإذا مات اليوم ماتت الجريدة ثم تولد ثم تموت وقد أدرك المتنبي سرّ الشعر وأنه قائم على تحويل الشعور الإنساني إلى معرفة إنسانية فخلد شعره فلا يمكن أن يمحى من العربية ما بقيت ، وهذا على ما يقدح من وجوه الاعتراض

والنقص ، وعلى أن المتنبي كان ضعيفاً في ناحية الجمال والحب ضعفاً ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ في هذا المعنى ، ولكن حكمته الإنسانية ودقة أوصافه وإقامته الفضائل والرذائل في كمالها الفني مقام تماثيل بارعة من الجمال ، كل ذلك ترك شعره مستمراً باستمرار الحياة وباستمرار الإنسانية وباستمرار الذوق .

إن هذا الكون مبني في نفسه مما يعلم العلم تركيبه ولا يعلم سر تركيبه إلا الله وحده ، ولكنه مبني في أنفسنا من عمل الحواس ثم من التعليل والتفسير ، أما الحواس ففي كل حيّ لا تخلق بصناعة ولا عمل ، وأما التعليل والتفسير فهما من صناعة الشاعر والأديب فكلاهما يخلق لا إتمام الخلق في الحقيقة ، وهي منزلة لا أدري كيف يمكن أن تمسخ حتى تقتصر على معنى الشاعر الاجتماعي أو السياسي فترجع به نمطاً واحداً مع أن الآثار الأدبية وفي جملتها الشعر إن هي إلا قوى الفكر وإلهام النفس وبصيرة الروح مسجلة كلها في بواعثها وأسبابها من نفس عالية ممتازة ، وهذه القوى كثيرة التحول فيجب ضرورة أن تكون آثارها كثيرة التنوع . وتنوع الصور الفكرية في آثار الشاعر أو الأديب ومجيئها متوافرةً متتابعةً هو معيار أدبه وقياس نبوغه عالياً أو نازلاً ومتبعاً أو مبتكراً وفيما يضيء من نواحيه وما ينطفئ .

على أن شاعرنا الاجتماعي (كما كان يجب أن يوصف رحمه الله) وإن كان قد نفخ في روح الشعب أنفاساً إلهية وأحسن في وصف حوادثه

وآلامه وعيوبه وأبلغ البيان في كل ذلك - فإنه نزل في هذه المرتبة عن وضعه الصحيح فكان في منزلته بمكان الشرطي في الطريق يقف للجرائم والحوادث ، على حين أن مقامه الاجتماعي من الشعب مقام المعلم في مدرسته يجلس للطباع والأخلاق . ليس الشأن أن توجد في شعر الشاعر حوادث عصره أكثرها أو أقلها ، فإن فوق هذه منزلة أعلى منها وهي أن توجد حوادث النهضة بشعر الشاعر ، وأن يكون في شعره العنصر الناري من اللغة الشعبية .

على أن (حافظ) رحمه الله أدرك كل هذا في آخر عهده فكان يريد أن يميت ديوانه ويستخرج منه جزءاً صغيراً يختار فيه ألف بيت ويسقط ما عداها وإن .. وإن كان فيه شعر اجتماعي ... ومع هذا النقص الذي بعثت عليه طبيعة الزمن وطبيعة الشاعر معاً ، فإن تمام حافظ في مذهبه الاجتماعي الذي نبغ فيه جاء من وراء القوة وفوق الطاقة لا يجاريه فيه شاعر آخر ، بحيث دلّ على أن النابغة قَدَر إلهي لا ينقص من عظمته أن يكون حادثة واحدة تدوّي دويّها في الدنيا ، فهو ميسَّر منذ نشأته لما خُلق له من ذلك ، فأحكمته المدرسة الحربية ثم قيّده الجيش ثم تقاذفه السودان ثم قذف به الظلم ثم تولاه إمام عصره الشيخ محمد عبده ، وهو كذلك في غاياته الوعرة ومقاصده العمرانية ومعاناته للإصلاح - مدرسة حربية وجيش وفلاة فلم يكن حافظ إلاّ الصوت الإنساني الذي أُعِدّ بخصائصه للتعبير عن حوادث أمته

وخصائصها ، وكأنه في نقلته من السودان إلى مصر قد انتقل من جيش يحارب الأقوام الأعداء لأمته إلى جيش آخر يحارب المعاني الأعداء لأمته

***

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧١ وكان الكتاب الأول الذي هداه إلى سر الأدب العربي وأرهف ذوقه وأحكم طبيعته هو كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفي المطبوع في مصر لخمس وخمسين سنة ، ففي هذا الكتاب قرأ حافظ خلاصة مختارة محققة من فنون الأدب العربي في عصوره المختلفة ، ودرس ذوق البلاغة في أسمى ما يبلغ بها الذوق ، ووقف على أسرار تركيبها وعرف منه الطريقة التي نبغ بها البارودي وهي قراءته دواوين فحول الشعراء من العرب ومن بعدهم وحفظه الكثير منها ، فبنى شاعرنا من يومئذ قريحته على الحفظ ولم يزل يحفظ إلى آخر عمره ، إذ كانت قريحته كآلة التصوير لا تُنَبَّه لشيء إلاّ علقته ، وهذا سبب من أسباب ضعف خياله ، ولكنه ردّ عليه من القوة في اللغة ما تناهى فيه إلى الغاية . واتفق لذلك العهد أن طبعت لزوميات المعري في مصر فتناولها حافظ واستظهر أكثرها فكانت باعث ميله ونزعته إلى الشعر الاجتماعي . والفرق بين حافظ وبين المعري في الموهبة الفلسفية هو الذي نفذ بالمعري إلى أسرار كثيرة ، ووقف بحافظ عند الظاهر وما حوله يطير هناك ويقع .

فقد كان صاحبنا ضعيفاً من هذه الناحية فاستصعبت عليه أسرار

واستغلقت أُخرى من أسرار الخير والشر في الحياة ، والجمال والحسن في الخليقة ، والجلال والإبداع في الكون والإقرار والشك في كل ذلك ، وقد بلغ المعري من هذا مبلغاً لا بأس به إلاّ أنه لم يُصفِّ كما تصفّى الأشياء في عين مبصرة نخبط وخلط ووضع من أغراض نفسه المريضة على الصحيح والمريض جميعاً وتابعه حافظ في طريقة أخرى سنشير اليها بعد

وفتن شاعرنا بما قرأ في « الوسيلة » من شعر البارودي فأصبح من يومئذٍ تلميذه وسار على نهجه في قوة اللفظ وجزالة السبك ومتانة الصنعة وجودة التأليف على نغم الألفاظ وأجراس الحروف ، ولكنه لم يدرك شأو البارودي في ذلك ، لأن هذا جمع من دواوين الشعراء و كتب الأدب ما لم يتفق لغيره في عصره وأدخل في شعره أحسن ما صنعت الدنيا في ألف سنة من تاريخ البلاغة العربية ، ولذا انتقل عنه حافظ إلى طريقة مسلم بن الوليد في التصنيع ولزمها إلى آخر مدته .

وابتدأ يعالج الشعر في السودان و ينظم في جنس ما هو بسبيله من وصف الهم المستولي عليه من جميع جهاته ، إذ كان يتيماً فقيراً مشرّداً ، ويرى نفسه شاعراً تصده الحياة عن منزلة الشاعر وعن أمكنة الشعر ، كالذي غُصِبَ ميراثه من عرش وملك ونُفِي إلى غير أرضه ووضعت روحه بإزاء روح الفقر وقيل لها : عدوٌّ ما من صداقته بدٌّ .

ثم جاء إلى مصر واتصل بالإمام الشيخ محمد عبده واستقال من الجيش وفرغ للأدب ، فبدأ من ثمّ تكوينه الأدبي المندمج المحكم أما

قبل ذلك إلى سنة ١٩٠١ التي طبع فيها الجزء الأول من ديوانه فكان شعره قليلاً ظاهر التكلف وأكثره يدل على طريقة مضطربة لم تستحكم وفكر لم ينضج وموهبة في التوليد الشعري بينها وبين الاستقلال أمد قريب

ودرس في مدرسة الشيخ محمد عبده من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٥ وهذا الإمام رحمه الله كان من كل نواحيه رجلاً فذًّا وكأنه نبي تأخر عن زمنه فأعطي الشريعة ولكن في عزيمته، ووُهب الوحي ولكن في عقله، واتصل بالسر القدسي ولكن من قلبهِ . ولولا هو ولولا أنه بهذه الخصائص لكان حافظ شاعراً من الطبقة الثانية ، فإنه من الشيخ وحده كانت له هذه القوة التي جعلته يصيب الإلهام من كل عظيم يعرفه وكان له من أثرها هذا الشعر المتين في وصف العظماء والعظائم وهو أحسن شعره

ولم يجد حافظ من قومه ما يجعله لسانهم حتى تنطقه بالوحي نفسيتهم التاريخية الكبرى ، ولا تولاه ملك أو أمير يرغب في أدبه رغبة أديب ملك أو أديب أمير ليظهر منه عبقرية جديدة في التاريخ ، ولا عرف الحب الذي يجعل للشاعر من سحر الحبيب ما يجمع النفسية التاريخية والملكية معاً ويزيد عليها . وهذه الثلاثة التي لم تتفق لحافظ هي التي لا ينبغ الشاعر نبوغاً يفرده ويميزه إلاّ بواحد منها أو باثنين أو بها كلها . غير أن حافظ وجد في الإمـام ما هو أسمى من كل هؤلاء في النفس والجاذبية ، وعرف فيه من ذوق الأدب والبلاغة ما لم يعرف شاعر في ملك ولا أمير ، وقد حضر دروسه في المنطق وأسرار البلاغة ودلائل

الإعجاز وخرج منها بذوقه الدقيق وأسلوبه المتمكن ، وحضر مجالسه وخرج منها بمواضيعه الاجتماعية وأغراضه الوثابة ، وحضر نظرات عينيه وخرج منها بروحانية قوية هي التي تتضرم في شعره إلى الأبد . فحافظ إحدى حسنات الشيخ على العالم العربي وهو خطة من خططه في عمله للإصلاح الشرقي الإسلامي والنهضة المصرية الوطنية وإحياء العربية وآدابها ، وإذا ذكرت حسنات الشيخ أو عُدّت للتاريخ وجب أن يقال أصلح وفعل وفعل وفسّر القرآن وأنشأ حافظ إبراهيم .

ومضى شاعرنا موجّهاً بفكرة الإمام وروحه واستمرّ في ذلك بعد موت الشيخ كما يستمر النهر إذا احتفر مجراه لا يستطيع أن يخرج عنه ما دام يجري إلى مَقَارّه .

***

وكان حافظ في بديعه وصناعته على مذهب مسلم بن الوليد كما قلنا ، وهو مثله إبطاءً في عمل الشعر وتلوّماً على حوكه وانفراداً بكل لفظة منه وتقليباً للنظر فيما بين الكلمة والكلمة واعتبار كل بيت كالعروس لها مَعرِض وحلية وزينة ، فإذا عمل شعراً انبثت خواطره في كل وجه وذهب وراء الألفـاظ والمعاني وترك هاجسه (العقل الباطن) يعمل عمله فيما التوى عليه أو استصعب ، وهو واثق أنه سينقاد ويتسهّل بقوة إن لم تكن فيه الآن فستكون فيه . ثم ينظم مايتسمّح إن جاء في موضعه من القصيدة أو في غير موضعه فلا يتبع فيها نسقاً بعينه وإنما القصيدة عنده كلّ

سيجتمع من بعد، تتهيأ أجزاؤه متسقة ومبعثرة كما يجيء بها الإلهام وأسباب الاتفاق . فالقصيدة أولاً في أبياتها ثم تكون أبياتها فيها، أي ثم ترتب الأبيات وتنزل في منازلها ، ولا ينظم إلا متغنياً يروض الشعر بذلك لأن النفس تتفتح للموسيقى فتسمح وتنقاد . وهو يتبع في ذلك طريقة معروفة ذكرها ابن حجة الحموي في كتابه خزانة الأدب وهي من وصية أبي تمام للبحتري ، وكان المتنبي يعمل عليها . وبالجملة فإن حافظ يرتهن فكره بالقصيدة التي ينظمها ويتوفر عليها وعلى أسبابها لا كما يفرغ الشاعر للشعر ولكن كما يتوفر المؤلف العظيم على كتاب يؤلفه . وهو كذلك يبطئ في نثره كما يبطئ في الشعر ، دلني بنفسه رحمه الله على صفحة بالجزء الثاني من ترجمة البؤساء وقال إنه ترجمها في خمسة عشر يوماً [1] .

وحضرته مرة يترجم أسطراً من الجزء الأول في (قهوة الشيشة) يخطها في دفتر صغير دون حجم الكف فاجتمعت له ثلاثة أسطر في ثلاث ساعات، وهذا لا يعيبه مادام يريد قسط الفن وما دام يحاول أن يخرج الكلمات من عالمها إلى عالمه هو المتموج من الألفاظ والعبارات بمثل الكواكب في الاستواء والجاذبية والشعاع والرونق والجمال .

ويرى مع الصناعة أن يكون سبك شعره سبك البدوي المطبوع جزلاً سهلاً مشرقاً ممتلئاً متعادل الأجزاء والتقاسيم يرن رنيناً كأنما

---

(١) لما أهدى إلى هذا الجزء كنا قبل الظهر فلم يدعني حتى قرأته كله معه إلى العصر وكتبت عنه في المقطم بعد ذلك .

قذفت به سليقة أعرابي فصيح تحت ضوء كواكب البادية على برد الرمل في نسمات الليل حين تمتلئ تلك النفس البدوية بحنين الحب أو شوق الجمال أو عظمة القوة . وهذا هو الأصل الذي اتبعه وقفني عليه هو بنفسه في سنة ١٩٠٢ وقرظني به في الجزء الأول من ديواني فقال .

أنت والله كاتبٌ حضريٌّ　　إن عددناك شاعراً بدويًّا

ولو أنك أجريت شعر حافظ في أبلغ ما قاله المطبوعون من الأعراب وشعراء القرن الأول لالتأم به وزاد عليه في الصناعة وبعض المعنى . وقلَّ أن تجد في شعره كلمة ينبو بها مكانها إلاّ ألفاظاً قليلة كان يستكرهها بحسب أنه يستطرف منها ويرى في غرابتها شيئاً جديداً، وهذا من خطإ رأيه في الأسلوب لأنه مع بلاغته كان ينقصهُ أن يكون فيلسوفاً في البلاغة . وأنا أرى أنه لو تمت له الموهبة الفلسفية لما جاراه شاعر آخر ولكن الكمال عزيز في البشرية، وقد عرفت رأيه في الأسلوب في سنة ١٩٠٦ إذ نشرت له مجلة الأقلام التي كان يصدرها صاحبنا الأديب جورج طنوس كلمات كان يريد أن يضمّنها كتابه (ليالي سطيح) أظهر فيها رأيه في الشعرآء فقال في إسماعيل صبري : يقول الشعر لنفسه لا للناس . وفي شوقي : أرق الشعرآء طبعاً وأسماهم خيالاً . وفي مطران : أسرعهم بديهةً وأقدرهم ابتكاراً . وقال فيَّ ولم يكن مضى عليَّ إلاّ ست سنين في طلب الأدب : مكثار راقي الخيال بعيد الشوط في ميادين الأدب غير ناضج الأسلوب . فلما اجتمعت به فاتحته في ذلك

وسألته رأيه في الأسلوب الناضج فلم أر عنده طائلاً وكل ما قاله في ذلك أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني قرر أن البلاغة ليست في اللفظ ولا في المعنى ولكنها في الأسلوب، وعبد القاهر لم يقل هذا ولا قاله غيره فإن الأسلوب عنده «طريقة مخصوصة في نسق الألفاظ بعضها على بعض لترتيب المعاني في النفس وتنزيلها» «وأن المنزلة من حيز المعاني دون الألفاظ وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك».

وقد قررت له أن للألفاظ ما يشبه الألوان فليست كلها زرقاء ولا صفراء ولا حمراء. وربّ لفظة رقيقة تقع ضعيفة في موضع فيكون ضعفها في موضعها ذاك هو كل بلاغتها وقوتها كفترة السكوت بين أنغام الموسيقي، هي في نفسها صمت لاقيمة له ولكنها في موضعها بين الأنغام نغم آخر ذو تأثير بسكونه لا برنينه، وهذا من روح الفن في الأسلوب وأدرك شاعرنا من يومئذ ماسميته قوة الضعف ولعلّ هذا هو السبب في أن طبعه رجع يعدل به إلى التسهيل حتى إنه لتقع في شعره أبيات متهافتة فيأتي بها ولا ينكرها. ولقيني مرة فأنشدني قول الشاعر:

أنا لم أُرزق محبتها   إنما للعبد ما رُزقا

وجعل يُعَجّبني من بلاغة قوله (لم أُرزق) وأنها مع ذلك ضعيفة مُبتَذلة تجري في منطق كل عامي، قلت: ولكن (محبتها) جعلتها كمحبتها..

***

وضعف الموهبة الفلسفية في حافظ عوّضه ناحيةً أخرى من أقوى القوة في الشعر، وهي اهتداؤه إلى حقيقة الغرض الذي ينظم فيه وتركه الحواشي والزيادات وانصراف قواه إلى دقة الوصف حين يصف وتعويله على أحساسه أكثر من تعويله على فكره، فزاد ذلك في رونق شعره ومائه ونحا به منحى المطبوعين، فخرج يتدفق سلاسةً وحلاوةً ممتلئًا من صواب المعنى وبلاغة الأداء وقوة التأثير. وبهذا نبغ في الرثاء ووصف الفجائع نبوغًا انفرد به حتى لأحسب أن هناك رُوحًا يمده في هذه المواقف، وأن الحقيقة تتبرّج له في هذه العظائم خاصة ليرى منها مالا يراه غيره. وهو يتحد بالعظيم الذي يرثيه فيجيد فيمن يعرفه إجادة منقطعة النظير تتبين الفرق بينها وبين شعره فيمن لا يعرفه تلك المعرفة. وأحسبه يسأل روح العظيم الذي يصفه أو يرثيه: أين المعنى الذي فيه حقيقتك؟ وأين الحقيقة التي فيها معناك؟

والفلسفة الشعرية كلها أن يحل في الشاعر الملهم ذلك السرُّ الجميل الجاذبُ والمنجذبُ معًا، المستقر والمتحول جميعًا، الباطن والظاهر في وقت، فيكتنه الشاعر مالا يدركه غيره فيقف على الجمال والحسن والرقة، ويلهم الحكمة والبصيرة، ويتناول الأغراض بالتحليل والتركيب، ويؤتى التعبير عن كل ذلك في طريقة خاصة به هي أسلوبه وهذا لم يتفق على أتمّهِ وأحسنه في حافظ فقصَّر بهِ في توليد المعاني المبتكرة ونزل به في الغزل ووصف الجمال. بيد أنه اتفق له مثل هذا الجلال بعينه في

(الجانب المتألم من شعره) أي الرثاء والشكوى ووصف الفجيعة ، ولو ذهبت تستعرض المراثي في الشعر العربي ومثّلت بينها و بين رثاء حافظ للعظماء الذين خالطهم كالأستاذ الإمام والبارودي ومصطفى كامل وثروت ، لراعك أنك واجدٌ للشعراء ما هو أسمى من معانيه وأقوى من خياله ، ولكنك لا تجد البتة ما هو أفخم وأدق مما جاء به في هذا الباب كأنه منفرد في العربية بهذه الخاصّة .

وهذا المعري يقول :

ولولا قولك الخلاّق ربي ... لكان لنا بطلعتك افتتان

و يقول في شعر آخر :

أسهب في وصفه علاك لنا ... حتى خشينا النفوس تعبدها

وهذان البيتان تراهما صعلوكين إذا قستهما بقول حافظ في رثاء الشيخ عبده :

فلا تنصبوا للناس تمثال (عبده) ... وإن كان ذكرى حكمة وثباتِ

فإني لأخشى أن يضلوا فيُومئوا ... إلى نور هذا الوجه بالسَّجَداتِ

مع أن معنى حافظ مأخوذ منهما ولكن انظر كيف جاء به .

و يقول المعري في رثاء أبيه :

ولو حفروا في درّة ما رضيتُها ... لجسمك إبقاءً عليك من الدفنِ

و يقول في رثاء غيره :

واحبُوا الأكفان من ورق المصـ ... حف كبراً عن أنفس الأبراد

وهذان أيضاً كالصعاليك عند قول حافظ في البارودي :

لو أنصفوا أودعوه جوف لؤلؤة　　من كنز حكمته لا جوف أخدودِ

وكفنوه بدرج من صحيفته　　أو واضح من قميص الصبح مقدودِ

مع أن حافظ ألمّ بقول المعري . ومن بديع ما اتفق له في قصيدة (الأمتان تتصافحان) قوله يصف السوريين :

رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا　　إلى المجرّة ركباً صاعداً ركبوا

أو قيل في الشمس للراجين منتجعٌ　　مدّوا لها سبباً في الجوّ وانتدبوا

فاقرأ هذين واقرأ بعدهما قول المتنبي في سيف الدولة .

وَصولٌ إلى المُستَصعبات بخيله　　فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا

فإنك تجد بيت المتنبي صعلوكاً على بيت حافظ مع أنه المبتدع السابق

وأعجب ما عجبت له هذا البيت من شعر صاحبنا في مقطوعة يخاطب بها الأمريكان نشرها في المقطم من ثلاث سنوات أو نحوها . قال :

وتخذتم موج الأثير بريداً　　حين خلتم أن البروق كسالى

واتفق يومئذٍ أن كنت جالساً في زيارة الصديق الأستاذ فؤاد صرّوف محرر المقتطف فجاءَ حافظ فلم يكد يصافحني حتى قال : كيف ترى هذا البيت وتخذتم موج الأثير بريداً الخ فأثنيت عليه الذي يهوى وهنأته بهذا المعنى وأظهرت له ما شاءَ من الإعجاب ، ولكنني أضمرت عجبي من حسن ما اتفق له ، فإن الجمال الشعري في البيت إنما هو في استعارة الكسل للبروق وهذا بعينه من قول ابن نباتة السعدي في سيف الدولة :

وما تمهل يوماً في ندى وردى　　إلاّ قضيتُ للمح البرق بالكسل

غير أن حافظ نقل المعنى إلى حقه ومكّن له أحسن تمكين في صدر كلامه وأتمّ جماله في قوله (حين خلتم) فاقتطع المعنى وانفرد به وعاد معنى السعدي كالصعلوك على باب بيته . وكانت هذه المقابلة في المقتطف آخر عهدي بحافظ فلم أره من بعدها رحمه الله .

وما مرّ بك إنما كان من صناعة الشاعر في غير الجزء الأول من ديوانه بعد أن استفحل وتخرّج في مدرسة الإمام ، أما في الجزء الأول فلهُ هو صعاليك .. كقوله في الخمر :

خمرة قيل إنهم عصروها　　من خدود الملاح في يوم عُرس

فهذا البيت صعلوك عند قول ابن الجهم :

مُشَعْشَعَةٌ من كف ظبي كأنما　　تناولها من خده فأدارها

وقول حافظ (عصروها من خدود الملاح) كلام من لم ينضج في البيان ولا الذوق . لا يكاد يُتوهَم معه إلاّ أن في خدود الملاح (خراجات) عصرت ... وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناولها من خده) فهي كلمة أكثر نعومة من ذلك الخد وأجمل نضرة .

وقول حافظ في مدح الخديوي :

يا من تنافسُ في أوصافه كلمي　　تنافُس العرَب الأمجاد في النسب

فهو صعلوك على بيت أبي تمام .

تغايرَ الشعر فيه إذ سهرتُ لهُ　　حتى ظننتُ قوافيه ستقتتلُ

ولا نطيل الاستقصاء فإنما نريد التمثيل حسب .

وكان الشاعر أول نشأته يأخذ في طريقة المعري الذي عمي عن الطبيعة فجعل يخلقها من فكره ومحفوظه بمبالغات كاذبة يغرق فيها يحسب أنه بذلك يعظم الحقائق فتخرج له الأخيلة الكبيرة وما يدري أنه بهذا الغلو لا يجيء إلا بالأباطيل الكبيرة .. ولكن حافظ في مزاجه وتركيبه ونشأته كان رجلاً مبنياً على الوضوح والقصد فلم يفلح في طريقة المعري، ووضوحه كذلك باعده من الفلسفة وإبهامها ، ومن الطبيعة وألغازها ، ومن الغزل ووساوسه ، وهو الذي أداه إلى الشغف بالحقيقة واستخلاصها في كل أغراضه التي أجاد فيها .ومن ثم خلا شعره أو كأنه خلا .. من أوصاف الطبيعة في جمالها بلغة الفكر المتأمل ، ومن أوصاف الجمال في سحره بلغة القلب العاشق .

وأنت فلا تحسبن الشاعر يجيد في الغزل والنسيب من أنه شاعر يحسن الصنعة ويجيد الأسلوب فيكون غرض من الشعر سبيلاً إلى غرض وفن عوناً على فن ، وتكون رقة الألفاظ وهلهلة النسج وقلبي وكبدي ويا ليلة ويا قمراً ويا غزالاً ... وأشباه ذلك غزلاً ونسيباً . كلا ثم كلا . والثالثة . كلا أيضاً ..

إن الغزل وأوصاف الجمال موهبة في الشاعر أو الكاتب تسخر لها قوى هي أشبه في معجزاتها بما سخر لسليمان من قوى الجن والريح غير أنها قوى آلام ولذات ووساوس . تلك عظمة في بعض النفوس الشاعرة

كعظمة الملوك والأبطال، غير أنها لا تكمل إلاّ خائبة أو مغلوبة فإذا انتصرت سقطت . فلا بد لهـا من تاريخ وحوادث ومزاج عصبي يهيئاً لهـا بروحانية شديدة الحسّ شديدة الفَورة ثائرة أبداً لا تهدأ إلاّ على توليد معنى بديع في جمال من تحبه أو كجماله ثم إذا هدأت بذلك آثارها أنها هدأت فتعود إلى التوليد؛ فلا تزال تبتدع وتصف كأنها آلة تعبير تدور بقلب وعصب . هناك قوتان : إحداهما توءتي الحب كما يصلح غراماً وعشقاً ، والأخرى فوق هذه توءتي الحب كما يصلح فكراً وتعبيراً . والأولى تجعل صاحبها عاشقاً يحب و يدرك ليس غير ، والثـانية تجعله محباً عمله أن ينقل من لغة ما في نفسه إلى ما حوله ، ومن لغة ما حوله إلى ما في نفسه ، فهو مترجم النفس إلى الطبيعة ، ومترجم الطبيعة إلى النفس . والذي أعرفه أن حافظ لم يرزق لا هذه ولا تلك فلا طبيعة فيه للغزل وفلسفة الجمال . ثم إن التاريخ حصره في (الشاعر الاجتماعي) الذي اختار أن يميز به ، فهو في أكثر شعره كان ليس فيه شخص بل فيه شعب مأسور غفل عن الجمال وعن الطبيعة وعن النشوة بها ، إذ يعيش في معاناة الحرية لا في التأمل الجميل وفي أسباب القوة لا في أسباب الرقة ، ويريد أن يعمل ليوجِد حقيقته ، قبل أن يعمل ليُبدع خياله .

ومع ذلك فقد جاء في ديوان حافظ غزل قليل كان كله متابعة وتقليداً في فن يحسن التقليد إلاّ فيه خاصة . عمل صدراً لقصيدة مدح بها الخديوي مطلعها :

كم تحت أذيال الظلام متيمٌ   دامي الفوءاد وليله لا يعلمُ

وقلد ابن أبي ربيعة في حكاية حب لفقها تلفيقاً ظاهراً ثم زعم أن الحبيبة قالت له في آخرها :

فاذهب بسحرك قد عرفتك واقتصد .. فيما تزين للحسان وتوهم

وكلمة صاحبة ابن أبي ربيعة :

أهذا سحرك النسوا ن ؟ قد عرّفتني الخبرا

أهذا سحرك النسوان ؟ هذه كلمة لا تخرج إلاّ من فم حبيبته آية في الظرف، وفيها تجاهلها وعرفانها وابتسامها وإشراق وجنتيها، وأكاد والله أرى فيها تلك الجميلة وهي تدق بيدها على صدرها دقة الاستفهام المتدلل المتظاهر بالدهشة ليتنهد فيه الكلام والمتكلم معاً ، أما قول حبيبة حافظ الخشبية أو الحجرية اذهب . قد . عرفتك واقتصد . فهذا خليق أن يكون من فم قاض وهو ينصح المتهم بعد الأمر بالإفراج عنه . أو مأمور قسم عند ضبط الحادثة .

أكبر ظني أن روح حافظ نفسه هي التي أوحت إليّ الآن هذه (النكتة) فإنه رحمه الله كان آية في هذا الباب، وله من النوادر محفوظة ومخترعة ما لا يلحق فيه . ولو كان كاتباً على قدر ما كان شاعراً وزاول النقد واستظهر للكتابة فيه بتلك الملكة المبدعة في التندّر والتهكم مع ما أوتي من القوة في اللغة والبيان — لكانت النعمة قد تمت به على الأدب العربي ولقلنا في شعره وكتابته وأدبه ما قال هو في الأستاذ الإمام : فأطلعت نوراً من ثلاث جهات .

وما دمنا قد ذكرنا النقد فمن الوفاء للتاريخ الأدبي أن نذكر مذهب

شاعرنا فيه. فلم يكن عنده منه إلاّ ذوق الكلام وإدراك النّفْرة والنّبْوة في الحرف، والغِلَظ والجَسَاءة في اللفظ، والضعف والتهافت في التركيب، ثم ما يجيش في الخاطر أو يتلجلج في الفكر من ذوق المعنى وإدراك كنهه والنفاذ إلى آثار النفس الحية فيه. فكأن النقد هو الحسّ بالكلام كما تلمس الحار والبارد وما بينهما. ووصف لي مرة إسماعيل صبري باشا وأراد أن يبالغ في دقة تمييزه وحسن بصره بالشعر وإدراكه دقائق المعاني فقال: «ذوّاق يا مصطفى» ولم يزد.

ومذهب الحسّ بالكلام هذا وإن صلح أن يكون من بعض معاني النقد فلا يتهيأ أن يكون هو النقد بمعناه الفلسفي أو الأدبي، وهو في جملة أمره كقولك حسن حسن ورديء رديء أما كيف كان حسناً أو رديئاً وبماذا ولماذا فذلك مالا سبيل إليه من مذهب (ذوّاق)... ولا وسيلة له إلاّ العلم المستفيض والاطلاع الواسع والحسّ المرهف والقدرة المتمكنة، مضافة كلها إلى الأدب البارع وفلسفته الدقيقة. ولا نعرف لحافظ كتابة في النقد البتة، وقد كان حاول شيئاً من هذا في مقدمة كتابه (ليالي سطيح) فتناول بعض خصومه بكلمات رأى هو أن يمحوها بعد أن طبعت الكراسة الأولى، فأسقطها وأعاد كتابة المقدمة وطبعها مرة ثانية، وكانت عندي النسخة التي محاها، وهذا مالا أظن أحداً يعرفه الآن.

رحم الله شاعراً كان أصفى من الغمام وكان شعره كأنه البرق والرعد...

مصر: مصطفى صادق الرافعي

الرثاء في شعر حافظ



الدكتور طه حسين

رحم الله حافظاً . ما أرى أن الذين سيعرضون لرثائه من الكتاب والشعراء سيوفونه حقه أو يبلغون من ذلك ما كان يبلغه هو حين كان يعرض لرثاء الأعلام الذين كان يفقدهم هذا البلد من حين إلى حين .

فقد كانت نفس حافظ رحمه الله تمتاز بشيئين أتاحا لها إجادة الرثاء وإتقانه والبراعة فيه . كانت قوية الحس كأشد ما تكون النفوس الممتازة قوة حس وصفاء طبع واعتدال مزاج . وكانت إلى ذلك وفية رضية ، لا تستبقي من صلاتها بالناس إلا الخير ، ولا تحتفظ إلا بالمعروف ، ولا ترى للإحسان والبر جزاء يعدل الإشادة به والثناء عليه ، ونصبه للناس مثلاً يحتذى ونموذجاً يتأثر . وكانت إلى هذا وذاك ترى ديناً عليها لا أقول لنفسها ولا أقول للناس وإنما أقول للفن والحق والتاريخ . لا ترى خيراً إلا سجلته ، ولا

تحسّ معروفاً إلاّ أذاعته ، كأنما كان الذين يحسنون إلى أنفسهم أو إلى خاصتهم أو إلى جماعة من الناس قليلة أو كثيرة يحسنون إلى حافظ نفسه . وكأنما كان حافظ يؤمن بأن من الحق عليه أن يشكر للمحسن إحسانه ، ويسجل لصاحب المعروف معروفه مهما يكن مصدر هذا الإحسان والمعروف ، ومهما يكن موضوعهما . فهذا أحد الأمرين اللذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ . حسّ قوي دقيق ، وخلق رضي كريم . فأما الأمر الآخر فصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله العليا .

رحم الله حافظاً لم يكن فرداً يعيش لنفسه بنفسه، وإنما كانت مصر كلها بل الشرق كله بل الإنسانية كلها في كثير من الأحيان تعيش في هذا الرجل . تحس بجسه وتألم بقلبه وتفكر بعقله وتنطق بلسانه . لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله . فالذين يقرأون شعره الآن والذين كانوا يقرأون شعره في حياته ، والذين كانوا يستمعون له إذا أنشد الشعر في المجالس الخاصة والمجامع العامة يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح : صورة الشعب وما يجد من ألم وأمل ، وصورة حافظ وما يحسّ من يأس أو رجاء . كذلك كان حافظ ، وكذلك كانت نفسه ، وكذلك كانت الصلة بينه وبين الناس . فليس غريباً أن تقع الكوارث من نفسه أشد وقع ، وأن تثير فيها عواطف لذاعة

من الألم والحسرة ؛ ومن الحزن واللوعة . وليس غريباً أن ينطلق لسانه بالشعر في تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد في غير مشقة ولا عناء ، ويصل إلى هذه المنزلة التي لا يصل إليها الشعراء إلا أن يكونوا مطبوعين أو أن تكون الظروف قد واتتهم وأتاحت لهم من أسباب القدرة والبراعة ما يقربهم من المطبوعين . وهي أن يبلغوا بالذين يقرأونهم ويستمعون لهم مثل ما في أنفسهم من الحزن واللوعة ومن الحسرة والأسى ، فإذا بكوا بكى معهم الناس صادقين . وإذا جزعوا جزع معهم الناس مخلصين .

هذه منزلة لا أعرف كثيراً من شعراء العربية في العصر الحديث قد بلغوا منها ما بلغ حافظ ، فبين شعرائنا في هذه الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء ويجيدون وصف الفقيد الراحل وتعديد خلاله ومآثره ؛ ويتقنون وصف الحزن عليه والأسى لفراقه ، ويبلغون البراعة في ضرب الأمثال السائرة وإرسال الحكم البالغة ، ويجمعون من هذا كله ما يحسن وقعه في القلوب ، وما يلذ الأسماع والعقول معاً ، ولكنهم لا يثيرون على ذلك كله في النفوس وعواطف الحزن الكامنة ، ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة كما كان يفعل حافظ ، لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن عن غير حزن صادق ، ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة ، هم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن يساهموا فيه ، وعلى أن مكانتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون لهم في

الرثاء كلمة مسموعة ، أما حافظ فكان يرثي لأنه يحزن ، و كان يحزن لأنه يحب ، و كان يحب لأن الله قد وهبه نفساً رضية مؤثرة لم تبرأ من شيء قط كما برئت من الأثرة و كما برئت من الضغينة والحقد .

كان حافظ ينتهي من حب أصدقائه إلى حيث لا يقدر أن بينه و بينهم فرقاً ، إلى حيث يراهم جزءاً من نفسه ؛ و كان حافظ كما قدمت يحب الشعب ويحس بحسه و يشعر بشعوره ، فكان إذا رثى علماً من أعلام مصر كأنما يرثي نفسه أولاً و كأنما يرثي أمته ثانياً . وقد أتيح لحافظ أن يكون صديقاً وفياً لهؤلاء الأعلام الذين سعدت مصر بحياتهم و شقيت بوفاتهم منذ أول هذا القرن . وقد تقول إن هذه الصداقة أتيحت لغير حافظ من الشعراء ، ولكني حدثتك عن وفاء حافظ وإيثاره وزهده في متاع الدنيا واشتغاله عن المنافع العاجلة بالمثل العليا . فلا بدع أن يمتاز رثاء حافظ بصدق اللهجة وأن يبلغ من نفوس النـــاس مالا يبلغه رثاء غيره من الشعراء المعاصرين .

أراد قدامة في أواخر القرن الثالث للهجرة أن يضع للشعر أصولاً ونظماً لا يجوز للشعراء أن يعدوها ويخرجوا عنهـــا . فلما بلغ الرثاء زعم وزعم معه النقاد الذين جاءوا من بعده أن الرثاء والمدح فن واحد في حقيقة الأمر ، وأن الفرق بينهما أن أحدهما يتناول الميت والآخر يتناول الحي ، وأن مظهر هذا الفرق أن من ذكر الميت لجأ إلى الفعل المـــاضي فحكي عنه وقال كان كريماً أو كنت كريماً ، ومن ذكر الحي لجأ إلى

الفعل المضارع أو إلى ما في حكمه من أنواع الجمل فقال هو كريم أو أنت كريم أو ما يشبه هذا ، ولم يهتد قدامة وأصحابه في الرثاء إلى أكثر من هذا المقدار، أوقل إنهم لم يهتدوا إلى شيء ، فإن العواطف التي تبعث على الرثاء غير العواطف التي تبعث على المدح ، قوام ذلك الحزن واليأس ، وقوام هذه البهجة والرجاء . وقد يكون الإعجاب مشتركاً بين الرثاء والمديح ولكن قل ما يكون الإعجاب وحده مصدراً لمدح أو رثاء حتى تصحبه رغبة أو رهبة ؛ أو أمل أو حسرة، أو لوعة أو قنوط، وأكبر الظن أن كثيراً من الشعراء المعاصرين الذين يذهبون مذهب البارودي وحافظ في الشعر ويحيون فيه سنة القدماء لا يزالون يرون المدح والرثاء كما كان يراهما قدامه وابن رشيق وغيرهما من النقاد المتقدمين ، تعديداً للمآثر والمفاخر ولوناً من ألوان المدح للأموات . وكان حافظ رحمه الله في أول عهده بالشعر يذهب هذا المذهب ويغلو فيه لأنه كان يقلد القدماء تقليداً، ويحاكيهم محاكاة تذهب بشخصيته أو تكاد تذهب بها . فأنت إذا قرأت رثاءه لبعض الأباظيين في الجزء الأول من ديوانه أعجبت باللفظ أكثر مما تعجب بالمعنى . ولم تجد في هذا الرثاء حزناً صادقاً ولا لوعة محرقة وإنما أحسست كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها، فأخذ معاني القدماء وذهب مذهبهم في الغلو السقيم أحياناً ، وكأنه لم يدفع إلى هذا الرثاء بطبيعته الرقيقة المحزونة . وإنما دفع إليه بمجاملة أصدقائه من الأباظيين ، فانظر

إلى هذه الدالية مثلاً فسترى أن حافظ رحمه الله قد كان فيها عيالاً على دالية أبي العلاء التي مطلعها :

غير مُجدٍ في ملتي واعتقادي نوحُ باكٍ ولا ترنم شادي

أخذ معنى من معانيها فجعل يطوله ويمد فيه و يقلبه على وجوه عدة ، ولكنه لم يجوده ولم يأت فيه بطائل ولم يبلغ منه بعض ما بلغ أبو العلاء قال حافظ :

أيهذا الثرى إلامَ التمادي بعد هذا أأنت غرثان صادي
أنت تروى من مدمعٍ كل يوم وتغذى من هذه الأجساد
قد جعلت الأنام زادك في الدهـ ـر وقد آذن الورى بالنفاد
فالتمس بعده المجرة ورِداً وتزود من النجوم بزاد

فانظر إلى هذين البيتين الآخرين فسترى فيهما مبالغة أشبه بمبالغة الناشئين في الشعر ، لا تستقيم مع العقل ولا تكاد تدل على شيء ، و كيف بشاعر يزعم أن التراب قد أكل الناس حتى كاد يأتي عليهم ، وشرب الدموع حتي كاد يستغرقها ، و ينصح له أن يلتمس شرابه في المجرة وطعامه في النجوم ، وحافظ يمضي في التفصيل والتطويل دون أن يبلغ قول أبي العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـ ـد هوانُ الآباء والأجداد

ولكنك تلمح هذا النوع من القصور في أكثر القسم الأول

من شعر حافظ لا في الرثاء وحده ، بل في فنونه الشعرية كلها ، فحافظ لم ينشأ شاعراً وإنما اكتسب الشعر اكتساباً ، وأنفق حياته كلها في تجويد شعره وتحسينه . على أنه لم تكد تتقدم به الحياة حتى ظهرت فيه هذه الخصال التي أشرت إليها ، والتي قضت له بالتفوق في الرثاء ، فانظر إليه حين رثى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كيف غلبت طبيعته صناعته ، وكيف تحدث قلبه وإيمانه إلى قلوب المسلمين وإيمانهم ، وكيف انتقل حزنه ووفاؤه إلى نفوس الناس فعلمهم كيف يجدون لذع الحزن وكيف يستعذبون لذة الوفاء ، وهو على ذلك كله لم يخل بأصول الفن كما عرفها المتأدبون القدماء من تعديد المآثر والمفاخر ، وهو متين رصين اللفظ بديع الأسلوب لا يعرف الضعف ولا الوهن إلى شعره سبيلا

سلامٌ على الإسلام بعد محمد ... سلامٌ على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجى ... على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنت أخشى عادي الموت قبله ... فأصبحت أخشى أن تطول حياتي
فوالهفي والقبر بيني وبينه ... على نظرةٍ من تلكم النظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً ... كأني حيال القبر في عرفات
لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا ... تجاليده في موحشٍ بفلاة
ولو ضرحوا بالمسجدين لأنزلوا ... بخير بقاع الأرض خير رفات

في لفظ هذه الأبيات من الروعة والرصانة ما عرفناه في شعر حافظ كله أو أكثره ، ومعاني هذه الأبيات مألوفة شائعة ليس فيها غرابة ولا

ابتكار ، ولكن في الأبيات مع ذلك شيئاً لا أدري ما هو ؟ يملأ النفوس لوعة والقلوب أسى، بل أنا أدري ما هو ، هو قبس من هذه النار التي كانت تضطرم في نفس حافظ حزناً صادقاً على صديقه ووليه وأستاذه، نفذ هذا القبس الصادق في هذا الشعر العادي فجعله حزناً كله، ثم انظر إلى هذا الجزع العظيم كيف تصور كأنه طوفان مهلك يغمر كل شيء ويأتي على كل نفس، حتى فزع الشاعر منه وقد ملكه الذهول واستأثر به اليأس فقال :

تباركت هذا الدين دين محمد أيترك في الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات

ثم انظر إلى هذين البيتين كيف يصوران اليأس اللاذع والقنوط المميت :

مددنا إلى «الأعلام» بعدك راحنا فردت إلى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغي سواك عيوننا فعدن وآثرن العمى شرقات

ولو أني ذهبت أحلل القصيدة كلها وأختار منها لما تركت منها بيتاً واحداً ، فكلها جيد إما لجدة المعنى وإما لرصانة اللفظ وإما لصدق اللهجة وإما لهذه الخلال كلها مجتمعات ، وانظر إلى هذه الأبيات التي وصف فيها حافظ حزن الشرق على الأستاذ الإمام وهي الآن أصدق ما يقال في حزن الشرق على حافظ نفسه !

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضاقت عيون الكون بالعبرات

ففي الهند محزون وفي الصين جازع ... وفي مصر باكٍ دائم الحسرات
وفي الشام مفجوع وفي الفرس نادب ... وفي تونس ما شئت من زفرات

ولست أقف عندما في هذه القصيدة من وصف للأستاذ الإمام من نواحيه المختلفة لا لأني عجل بل لأني أكره أن أظلم غيري من الأصدقاء الذين يكتبون عن حافظ ، ولكني أحب أن تقرأ معي هذه الأبيات التي ختم بها حافظ رثاءه للأستاذ الإمام لتتمثل ما فيها من الحزن الصادق والاعتراف بالجميل ، وكان حافظ أشد الناس اعترافاً بالجميل وأحرصهم على شكر من أحسن إليه أو شملته منه يدٌ مهما تكن يسيرة ضئيلة .

قال حافظ :

فيا منزلاً في عين شمس أظلني ... وأرغم حسادي وغم عداتي
دعائمه التقوى وآساسه الهدى ... وفيه الأيادي موضع اللبنات
عليك سلام الله مالك موحشاً ... عبوس المغاني مقفر العرصات
لقد كنت مقصود الجوانب آهلاً ... تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة ... ومطلع أنوار وكنز عظات

هذه قصيدة خالدة من غير شك ، وهي لا تستمد خلودها ممن قيلت فيه وحده ولا ممن قالها وحده ؛ وإنما تستمد هذا الخلود من الرجلين جميعاً . فقد كانت حياة الأستاذ الإمام شيئاً رائعاً ، واستطاع حافظ أن يعطي منها صورة رائعة . وما أكثر ما قال الشعراء في الأستاذ الإمام بعد

موته! ولكنك تستطيع أن تقرأ هذا الشعر الكثير فستجد منه الحسن الجميل، وستجد منه المتوسط، وستجد منه الرديء، دون أن تظفر بمثل هذه القصيدة روعةً وجمالاً وصدق لهجة واستحقاقاً للخلود.

ورثى حافظ أستاذه البارودي فيمن رثاه من الشعراء فوفق إلى جودة اللفظ ورصانته، ووفق إلى إحياء الأسلوب القديم في رثاء هو بالمدح أشبه، ولكنه على ذلك لم يبلغ أن يمس القلوب بهذا الحزن اللاذع. ومع أنه لم يكن يريد الصدق في أول هذه القصيدة حين يقول:

ردّوا عليّ بياني بعد محمود   إني عييت وأعيي الشعر مجهودي

ما للبلاغة غضبى لا تطاوعني   وما لحبل القوافي غير ممدود

فليس من شك أنه قد صدق وقال الحق فعيي وأعيى الشعر مجهوده وامتنعت عليه البلاغة وقصر عليه حبل القوافي على ما حاول من تقليد مسلم بن الوليد في داليته المشهورة:

لا تدع بي الشوق إني غير معمود.

ومصدر ذلك فيما يظهر أن حافظاً تهيب إمام الشعراء ميتاً كما كان يتهيبه حيًّا، واعتقد أنه مهما يقل في البارودي فلن يبلغ من رثائه ما يريد ففلّ ذلك من حدّه، وفتّ في عضده، وقصر به عن غايته. ومصدر ذلك أيضاً فيما يظهر أن موت البارودي لم يكن رزءاً شعبياً أو لم يره الناس كذلك في وقته، وإنما كان رزءاً للأدباء. وأبرع ما يكون حافظ في الرثاء حين يصور حزن الشعب وألمه. لذلك أجاد كل الإجادة في

رثاء الأستاذ الإمام وفي رثاء مصطفى كامل، لأن الأول كان فقده رزءاً في عظيم من عظماء الدين ومن عظماء النهضة الفكرية، ولأن الثاني كان فقده رزءاً في عظيم من عظماء السياسة. فكان حافظ في رثائهما ناطقاً بلسان الجماهير.

وبراعة حافظ في تصوير آلام الشعب كسبت شعره السياسي ورثاءه لأصحاب السياسة لوناً من الخطابة يمنحه قوة غريبة تسيطر حقاً على نفوس الجماعات فتفعل فيها الأعاجيب.

أنظر إلى قوله في رثاء مصطفى كامل:

إني أرى وفؤادي ليس يكذبني	روحاً يحف به الإكبار والعظم
أرى جلالاً أرى نوراً أرى ملكاً	أرى محياً يحيينا ويبتسم
الله أكبر هذا الوجه أعرفه	هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته	من القلوب إذا لم تسعد الكلم
وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه	فنحن في موقف يحلو به القسم
لبيك نحن الألى حركت أنفسهم	لما سكنت ولما غالك العدم
جئنا نؤدي حساباً عن مواقفنا	ونستعد ونستعدي ونحتكم

ألا ترى إلى هذه الأبيات كيف استحضر الشاعر فيها شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة، وكيف مهد لهذا الاستحضار بهذا البيت الأول الذي خرج فيه عن طوره العادي وأخرج الناس معه عن أطوارهم وهيأهم لموقف غير مألوف، ثم أخذ يدفعهم إلى هذا الموقف دفعاً ويملأ قلوبهم

هيبة وإجلالاً بهذا البيت الذي ألفه من جمل متقطعة قصيرة ، وختمه بصورة خلابة رائعة

أرى جلالاً أرى نوراً أرى ملكاً   أرى محيــاً يحيينــا ويبتسم

ثم انظر إليه كيف استأثر به الذهول وغلبه على نفسه وملك عليه كل أمره فصاح :

الله أكبر هــذا الوجه أعرفه   هذا فتى النيل هذا المفرد العلم

ثم انظر إليه بعد ذلك وقد كد الجمهور وأنساه نفسه وملك عليه شعوره وحسه وأقنعه بأنه أمام الزعيم كيف يتحدث إلى هذا الجمهور بهذا الحديث الذي تملؤه المهابة والروعة والحب معاً فيقول :

غضوا العيون وحيوه تحيته   من القلوب إذا لم تسعد الكلم

ثم يتجه بعد ذلك إلى الزعيم نفسه فيصيح صيحة كلها إيمان وطاعة ويقين وإعجاب .

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم   لما سكنت ولما غالك العدم

هذه أبيات لو قرأها أرسطاطاليس صاحب الخطــابة ومنشئ علم البيان لما تردد في أن يتخذها مثلاً لما يسميه في الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشيء تحت العين .

ورثى حافظ قاسماً فلم يكن في رثائه إياه شعبياً ولا شاعر جمهور بالمعنى الذي نراه في رثائه للأستاذ الإمام ولمصطفى كامل ، وإنما كان إنساناً حساساً قوي الحس ، محزوناً صادق الحزن ، ومصرياً مشفقاً على مصر من

هذه الأحداث التي تلمُّ بها سراعاً فتنتزع أعلامها انتزاعاً انظر إلى قوله:

مالي أرى الأجداث حالية ... وأرى ربوعَ النيل في عطل

فإذا الكنانة أطلعت رجلاً ... طاح القضاء بذلك الرجل

أوَ كلما أرسلت مرثية ... من أدمعي في إثر مرتحل

هاجت بي الأخرى دفين أسى ... فوصلت بين مدامع المقل

إن خانني فيما فجعت به ... شعري فهذا الدمع يشفع لي

وانظر إلى هذه الأبيات وإلى ما أدرك الشاعر فيها من المعنى الخِصب الكثير في اللفظ العذب القليل :

قد كنت أشقانا بنا وكذا ... يشقى الأبيّ بصحبة الوكل

لهفي عليك قضيت مرتحلاً ... لم تشك لم تستوص لم تقل

غلّ القضاء يد القضاء فذا ... يبكي عليك وذاك في جذل

وقد عرض حافظ في هذه القصيدة لرأي قاسم في السفور والحجاب فتحفظ ولم يقطع ولم يعلن مناصرة صاحبه . وكان في ذلك مصوراً (سواء أراد أو لم يرد) لموقف كثير من المستنيرين في ذلك العصر كانوا يرون رأي قاسم ولكنهم يشفقون من الجهر به ويرجئون الأمر إلى الأيام تقضي فيه بالحق . فانظر إلى حافظ كيف يقول :

إن رَأيتَ رأياً في الحجاب ولم ... تعصم فتلك مراتب الرسل

الحكم للأيام مرجعه ... فيما رأيت فنم ولا تسل

وكذا طهاة الرأي نتركه ... للدهر ينضجه على مهل

فإذا أصبت فأنت خير فتى وضع الدوآء مواضع العلل
أو لا فحسبك ما شرفت به وتركت في دنياك من عمل

ثم أثار موت قاسم في نفس حافظ ذكرى أصدقائه الذين ذهبوا من أعلام مصر وقادة الرأي فيها ، ومن الذين كان يسعد حافظ بمودتهم له وعطفهم عليه ، وكانوا يسعدون بلقائه وحديثه الحلو وأدبه العذب . فقال هذه الأبيات التي تفيض حزناً وأسى وتملأ نفوسنا حزناً وأسى كلما قرأناها . وأينا ما يجد نفسه في هذه المنزلة التي وجد حافظ فيها نفسه يوم مات قاسم ؟ فذكر حافظ به موت الذين سبقوه . ولقد مات أصدقآء لحافظ بعد قاسم فذكر بهم قاسماً . ومات حافظ الآن فحزنا لموته ونحن نذكر به موت أصدقائنا الذين سبقوه . وكذلك يريد الله أن يجعل قلوب الأحيآء قبوراً لأصدقائهم الذين يسبقونهم إلى الموت . ومن خير ما في هذه الأبيات يأس حافظ مما انتهت إليه الحياة بعد أصدقائه هؤلاء ، ومما انتهت إليه مصر من فساد الحال واعوجاج الأمر بعد أن رحل عنها أولئك المصلحون والغريب أن ما قاله حافظ بعد موت قاسم نستطيع أن نردده الآن بعد موت الذين ماتوا من زعمآء مصر وقادتها . فليس مصر بالبلد الذي يمكن أن يتمثل فيه بقول الشاعر القديم :

إذا مات منـا سيدٌ قام سيدٌ قؤول لما قال الكرام فَعول

وإنما يمضي الزعيم أو المصلح فيخلو مكانه ويظل خالياً و ينساه الناس ولا يذكره منهم إلا الأقلون قال حافظ :

واهاً على دارٍ مررت بها ... قفراً وكانت ملتقى السبل
أرخصت فيها كل غاليةٍ ... وذكرت فيها وقفة الطلل
ساءلتها عن قاسم فأبت ... ردّ الجواب فرُحت في خبل
متعثراً ينتابني وهن ... مترنحاً كالشارب الثمل
متذكراً يوم الإمام به ... يوم انتويت بذلك البطل
يوم احتسبت وكنت ذا أمل ... تحت التراب بقيةَ الأمل
جاور أحبتك الألى ذهبوا ... بالعزم والإقدام والعمل
واذكر لهم حاجَ البلاد الى ... تلك النهى في الحادث الجلل
قل للإمام إذا التقيت به ... في الجنتين بأكرم النزل
إن الحقيقة أصبحت هدفاً ... للراكبين مراكبَ الزلل
لله آثار لكم خلدت ... صاح الزوال بها فلم تزل
لله أيام لكم درجت ... طالت عوارفها ولم تطل
نعم الظلال لوَ انها بقيت ... أو أن ظلاً غير منتقل

أَترانا نحمل حافظاً رحمه الله شيئاً غير هذا لو أردناه على أن يصور لأصحابه الأكرمين حال مصر بعد أن تركوها ؟ أَلسنا نحمله مثل هذا إلى الأستاذ الإمام وإلى قاسم وإلى مصطفى كامل وإلى سعد وثروت؟ بلى لقد قلت لك إني لا أرى أن الذين سيرثون حافظاً من الكتاب والشعرآء سيبلغون من رثآئه ما كان يبلغ هو من رثآء الذين رثاهم من زعمآء مصر وأئمتها .

على أن لحافظ رثاءً تقليدياً ، أو قل رثاء اضطر إليه اضطراراً للمجاملة ، أو لأن مكانته كانت تضطره إليه . ومن هذا الرثاء التقليدي ما قاله الشاعر قبل أن ينضج فنه كهذا الرثاء الذي قاله في بعض الأباظيين والذي أشرت إليه منذ حين ، وكقصيدته التي يعزي بها الانكليز عن فقد ملكتهم فيكتوريا ، ومن هذا الرثاء التقليدي ما قاله الشاعر وقد نضج فنه وتمت له أداة الشعر فأجاد الشعر ووفق إلى معانٍ حسان : منها المبتكر ومنها المستعار ، ولكنه على كل حال لم يستطع أن يمس القلوب وإن استطاع أن يثير الإعجاب ، وربما كان رثاؤه لرياض باشا أصدق مثال لهذا النوع من الشعر الذي بكى فيه الشاعر بلسانه وعقله ، ولم يبك فيه بقلبه ولا وجدانه .

ولحافظ في رثائه بل في شعره كله صورٌ يقلد فيها القدماء ، ولكنه لم يحققها ولم يمحصها ، ولم يكن حافظ يحفل بمثل هذا التحقيق والتمحيص لأنه كان يؤمن بروعة اللفظ وأثرها في نفس السامع والقارىء ، وكان يعتقد ولعله كان مصيباً أن كثيراً من قرائه وسامعيه كانوا مثله لا يعنيهم التحقيق ولا التمحيص ، ولا يكلفون الشعر ما يكلفون النثر من الدقة وتجنب المحال ، فحافظ يجري الدموع أنهاراً ويخيل إلى نفسه وإلى الناس أن هذه الدموع الجارية تستطيع أن تحمل الفقيد إلى قبره ، وحافظ يؤجج الأنفاس ناراً ويخيل إلى نفسه وإلى الناس أن هذه النار تستطيع أن تحرق المشيعين لولا ما يقاومها من الدموع .

وحافظ كما رأيت يكلف تراب الأرض أن يشرب من المجرّة ويأكل من النجوم . وحافظ يطلب إلى قبر مصطفى كامل أن يكبر ويهلل وأن يلقى ضيفه جاثياً . وقد سألته رحمه الله ذات يوم : كيف نتصور القبر جاثياً ؟ فقال : دعني من نقدك وتحليلك ، ولكن حدثني أليس يحسن وقع هذا البيت في أذنك ؟ أليس يثير في نفسك الحزن ؟ أليس يصور ما المصطفى من جلال ؟ قلت : بلى ! ولكن ، قال : دعني من لكن واكتف مثلي بهذا .

رحم الله حافظاً لم يكن رثاؤه صورة لما يثور في نفسه ونفس الناس من حزن فحسب ، وإنما رثاؤه يصلح مصدراً من مصادر التاريخ السياسي والاجتماعي في هذا العصر ، فقد كان حافظ يبالغ ويغلو ويطيع الخيال ويضطر إلى المحال ، ولكنه رغم هذا لم يكن يفسد الحقائق ولا يعبث بها ، وإنما كان مؤرخاً صادقاً للحوادث في رثائه وشعره السياسي كما كان مصوراً متقناً للنفوس . رحم الله حافظاً إن فصلاً قصيراً كهذا الفصل لا يسع رثاءه ، ولا ينهض بنقده وتحليله كما ينبغي أن يكون النقد والتحليل . وإني لأرجو أن نبلغ من ذلك مانريد في الكتاب الذي سيهيأ الآن لدرس شاعر النيل .

مصر :　　　　　　　　　　　　　　　　طه حسين

حافظ واللغة العربية



الشيخ عبد القادر المغربي

ليس احتفال مجمعنا العلمي بتأبين حافظ وإكبارنا الفجيعة فيه لأنه كان صديقاً لنا: إذ ما كل صديق نحتفل بتأبينه، ولا لكونه شاعراً من شعراء أربعة أو خمسة تعقد البلاد العربية عليهم الخناصر، ولا لكونه كان نديماً ظريفاً أو إخبارياً محدثاً، بل ولا لكونه من أعضاء مجمعنا العلمي إذ لم يأخذ المجمع على نفسه أن يحتفل بكل واحد من أعضائه.

الفجيعة في (حافظ) أيها السادة هي فجيعة اللغة العربية فيه، ولم ينشأ المجمع العلمي إلا لخدمة هذه اللغة والحرص على إرضائها، فإذا بكت اللغة بكى المجمع وإذا صاحت اللغة: واثكلاه واوحيداه!! صاح المجمع صياحها: واثكلاه واوحيداه !!

وهذه لغة الضاد في موت (حافظ) أقامت مأتماً عاماً شمل بلاد العرب كلها: من (طنجة) إلى (السليمانية) تبكي في مأتمها هذا حافظاً وتندبه:

لبنان يبكيه وتبكي الضاد من حلب إلى الفيحا الى صنعاء

وإن اجتماعنا هذا أيها السادة صورة مصغرة للمأتم الكبير الذي أقامته اللغة لتأبين حافظ ، وأقوالنا في هذه الحفلة صدى ندبها وعويلها .

لقد رزئت أم اللغات وحيدها فإن لم تكنه فالأبَ البرَّ والجدا
مشت تتلوى خلف نعشك كلما دعا باسمها الداعي أجدَّ لها وجدا
فلما بلغتَ القبر خرت لوجهها تضج وتشكو من تباريحها الجهدا

(حافظ) أيها السادة شاعر كل الشاعر وهو فوق كل ذلك لغوي وإخباري أما كونه شاعراً فأمر لا يجهله أحد . ومن يجهل أن حافظاً كان إذا قال شعراً لا يلبث أن تتناقله الأفواه . وتتلمظ بحلاوته الشفاه .

شعر (حافظ) يمتزج بالعاطفة فيولد فيها رقة الشعور ، ويمتزج بالنفس فيولد فيها ذوق اللغة ويمتزج باللسان فيغرس فيه ملكة الفصاحة

مدارسة كتب الادب واستظهار الفصيح من نوادر اللغة لا يمنح النفس واللسان ملكة الفصاحة بقدر ما يمنحها شعر كشعر (حافظ) نقي اللفظ ، منسجم الأسلوب . مشرق الديباجة ، يعبر عن خوالج النفس الوطنية الثائرة . فيحفزها نحو مطامحها العظمى . وينير أمامها الطريق إلى مثلها الأعلى

شعر (حافظ) كالمصباح يمشي نوره بين أيدي أبناء الأمة فيهديهم الطريق ، لا بعيداً عنهم يمشي وحده ويتركهم في ظلمات لا يبصرون .

شعر مثل شعر (حافظ) هو الذي يحيي لغتنا . ويحقق قوميتنا ويثبت أقدامنا في أوطاننا .

كان (حافظ) رحمه الله يقول الشعر لخدمة أمته لا لخدمة شهرته وإن فتى عربياً أو فتاة عربية تحفظ قصيدة «غادة اليابان» أو قصيدة :

خرج الغواني يحتجبـ ن وبت أرقب جمعهنه

فتستفيد منهما ملكة في اللغة الفصحى ، وحمية في حب الوطن أكثر من مائة قصيدة غامضة المعنى . أعجمية الأسلوب

ولولا أني أتكلم عن (حافظ) من ناحيته اللغوية لسردت لكم شواهد تؤيد ما ذكرت

على أن أحداً منكم قلما يجهل ذلك من أمره ، ومعظمكم يستظهر الكثير الطيب من شعره

* * *

نحن معشر العرب أصبحنا منذ سنين نهاجم في عقائدنا وتقاليدنا وسائر أوضاع اجتماعنا ، ولم تخل لغتنا المحبوبة من هذه المهاجمة العنيفة أيضاً . لم تخل من تنين هائل يواثبها ويحاول القضاء عليها . ذلك التنين هو فكرة مشؤومة ترمي إلى إحياء اللغة العامية وإماتة اللغة الفصحى .

ها هي اللغة العربية في حدود سنة ١٩٠٠ أي منذ ثلاثين سنة تقف على ضعاف النيل شاحبة اللون مرتجفة الأعضاء ، والهة ذاهلة ، تندب نفسها وتشكو مصابها

ياويح أهلي أبلى تحت أعينهم على الفراش ولا يدرون ما دائي

داؤها أيها السادة هو ما خامر نفوس أبنائها من زهدهم فيها ، وانصرافهم

عنها إلى غيرها من اللغات الأجنبية وإلى نصرة الفكرة المشؤومة، فكرة إحياء اللغة العامية .

تلك الفكرة الممثلة في أحد دهاة الانكليز المستر و يلمور

هبط «المستر و يلمور» مصر في ذلك الحين وقام بدعاية واسعة النطاق للغة العامية المصرية . وخطب في الموضوع وكتب ، وحاور وناظر، وألف كتاباً نشره على المصريين يدعوهم إلى فكرته ، و يقنعهم بصحة نظريته .

ومما يؤسف له أن يجد «و يلمور» أنصاراً له من الشعو بيين شايعوه على رأيه ، وأقاموا ضجة في القطر المصري اهتزت لها البلاد العربية قاطبة ، وكادت تكون لو يلمور ولأشياعه الغلبة لولم تصدمهم نهضة حماة اللغة الفصحى، وفي طليعتهم فقيدنا بالأمس حافظ إبراهيم، فيرفع صوته في وسط تلك الضجة منشداً قصيدته الخالدة على لسان اللغة الفصحى تخاطب أبناءها وتسألهم نصرها وإغاثتها وتقول :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادي بوأدي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يوماً علمتمو بما تحته من عثرة وشتات

ثم تلوم الصحف على خوضها في هذا الموضوع فتقول :

أرى كل يوم في الجرائد مزلقاً من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتاب في مصر ضجة فأعلم أن الصائحين نعاتي

ثم تحضهم على الأخذ بالحزم في دفع الضر عنها فتقول :

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وإن عز الدوآء أُساتي

فلا تكلوني للزمان فإنني أخاف عليكم أن تحين وفاتي

ثم ذكرتهم بجدودهم أبطال الجزيرة الذين كانوا يحمونها ويغارون عليها:

سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً يعز عليها أن تلين قناتي

حفظن ودادي في البلى وحفظته لهن بقلبٍ دائم الحسرات

وعاتبتهم على ميلهم إلى اللغة العامية الممزوجة بالكلمات الإفرنجية :

أيهجرني قومي عفا الله عنهمو إلى لغةٍ لم تتصل برُواة

سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعي في مسيل فرات

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات

وعادت اللغة الفصحى إلى وصف مزاياها والتساؤل لماذا عقها بنوها وهي لم تقصر في خدمة دينهم وحضارتهم فقالت :

وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسمآء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدر كامنٌ فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

ثم عيرت أبنآءها بالغربيين الذين عزوا لما عزت لغاتهم فقالت :

أرى لرجال الغرب عزًّا ومَنعة وكم عز أقوام بعز لغات

أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً فيا ليتكم تأتون بالكلمات

ثم ختمت شكواها بتقديم إنذار مخيف إلى الكتاب الحسني الظن بلغات الإفرنج وآدابهم فقالت :

إلى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعث الميت في البلى ... وتنبت في تلك الرموس رفاتي
وإما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمري لم يقس بممات

* * *

كانت هذه القصيدة من شعر حافظ من أمضى الأسلحة التي شهرت في وجه المستر « ويلمور » . فاضمحلت دعوته . وطويت رايته . ونكص على عقبيه إلى بلاده ، وكأن أمير الشعراء أحمد شوقي يشير إلى هذا الموقف المحمود الذي وقفه حافظ في وجه دعوة « ويلمور » فقال في رثائه :

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها ... وإمام من نجلت من البلغاء
ما زلت تهتف بالفصيح وفضله ... حتى حميت أمانة القدماء

وكما حنق « حافظ » على « ويلمور » حنق أيضاً على المستر «بلنت» الانكليزي الذي اشتهر في الدفاع عن القضية المصرية . فإنه كان يرفع من شأن القصص العربية السخيفة العبارة . ويقول عن قصة « بني هلال » إنها نوع من القصص المسمى في الآداب الافرنجية « إيبيك » وإنها ايلياذة عربية صغيرة . فما كان هذا القول منه ليسر حافظاً بل كان يحسبه خدعة ودعوة إلى ترويج اللغة العامية .

***

ثم إن فوز حافظ في هذه المعارك نشطه إلى متابعه العمل في

نصرة اللغة ، فاستمر يحيي فصيحها وينثر الدر من كلمها إلى آخر نسمة من حياته ، بل كان في مجالسه ، وبين طلاب الأدب المطيفين به كأنه (أستاذ سيار) يصحح أغلاطهم ، ويرشدهم إلى الفصيح من القول . والصحيح من الأساليب .

قال الدكتور زكي مبارك ما ملخصه :

استنشدني حافظ يوماً شيئاً من شعري فأنشدته قولي :

يامن يعز علينا أن نجازيهم صداً بصدٍّ وإغضاءً بإغضاء

ونطقت (يعز) بكسر العين فقال حافظ : يظهر يامبارك أنه يحسن أن تقول (يعز) بفتح العين لأنها بمعنى يشق لا بمعنى صار عزيزاً حتى تكسرها ، ومع هذا أرجوك أن تراجع القاموس قال : فراجعته فوجدته يقول بجواز الوجهين الكسر كما قلت أنا والفتح كما قال حافظ . قال الدكتور ومع هذا فقد استفدت من حافظ فائدتين :

١ — اللطف في تصحيح أغلاط جلسائه .

٢ — الشعور بقيمة الدقة في نطق الألفاظ إذ كان من رأي حافظ أن يخصص « يعز » المفتوح العين لمعنى يشق والمكسور العين لمعنى صار عزيزاً .

ولا يخفى عليكم أيها السادة أن المجامع العلمية اللغوية إذا كانت إنما أنشئت لغرض حماية لغة الوطن فإن « حافظ إبراهيم » عضو من أعضاء مجامعنا اللغوية بفطرته . وبنابل من غيرته على لغته .

قال الدكتور حسين هيكل : إن لحافظ ميلاً شديداً إلى أن يظهر

اللغة العربية في كمال قوتها ، وأنها تضاهي أحدث اللغات صقلاً وحياة ، وهو يهزأ بالمزاعم التي كانت توجه إليها من أنها لغة قديمة عاجزة عن أن تجاريَ الحياة الحديثة . اه

وقال الشيخ عبد العزيز البشري في المرآة :

« ولا ننسى لحافظ يداً جليلة على اللغة العربية فلقد طالما استخرج من مجفوِّ اللغة صيغاً طريفة بليغة أدت كثيراً من المعاني التي تتحرك في أنفس الناس ويعيي أداؤها على الأقلام اه .

* * *

أما مقدرة حافظ اللغوية العملية فتتجلى لنا في الألفاظ الفصيحة التي كان يودعها قصائده ومصنفاته ، وقد شهد له بهذه المقدرة الشيخ إبراهيم اليازجي فقد كان يستجيد ذوق حافظ في اللغة واختيار فصيح كلماته .

وقال الشيخ عبد العزيز البشري : « إن حافظاً لا يرى جلال الشعر وبهاءه في التعلق بدقائق المعاني لأن هذه المعاني تقع للدهماء والعامة . وإنما جلال الشعر وبهاؤه في إشراق الديباجة ونصاعة القول »

وقال خليل بك مطران :

لحافظ غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى . وهو يؤثر البيت الذي جاد لفظه على البيت الذي جاد معناه . فإذا فاته الابتكار في تصور المعنى لم يفته الابتكار في تصويره بأجزل الألفاظ وأبلغ الأساليب

إذن يمكننا القول بأن حافظاً كان لغوياً من الوجهة العملية التطبيقية

كما كان لغوياً من الوجهة العاطفية القومية .

* * *

وكثيرون من نقاد الادب المعاصرين حمدوا الله على أن كان أسلوب (حافظ) في شعره غير أسلوبه في نثره فقد كان رحمه الله يتأنق في شعره مع مراعاة السهولة والسلاسة .

أما في نثره فأمره على العكس . كان يتأنق فيه وينصب نفسه في انتقاء كلماته لكنه لم يوفق إلى جعله سهلاً سلساً . فلم يعد نثره مقبولاً إلاّ لدى الخاصة وجهابذة الأدب .

على أن بعضهم مهد له طريق العذر كالدكتور (لطفي جمعه) فإنه قال : « إن حافظاً على كلٍّ قد أحسن إلى قرآء العربية وكتابها . وذلك لأنه أنعش أسلوب الكتابة . وحفز الهمم للبحث عن الألفاظ الجزلة وأثر في كتابة الصحف أثراً نافعاً » اه

ثم إن عناية حافظ باستعمال غريب اللغة كان على أشدّه في ترجمة البؤساء فلم يرض ذلك أنصار الأدب الحديث وإنما أرضى أنصار الأدب القديم كالشيخ محمدعبده ، فإنه رحمه الله كان يعجب بكتابة حافظ ، وما تضمنته من الألفاظ الجزلة وكان يقول : « إن كان بؤس حافظ هو الذي أدى إلى استخراج كتاب البؤساء فندعو الله ان يزيده بؤساً حتى يزيدنا من هذا الأدب الجميل »

ولا غرو أن يرحب مجمعنا العلمي بنثر حافظ كما رحب به الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لأننا معشر أعضاء المجمع أول ما يهمنا من الآثار الأدبية أن تكون لغتها صحيحة، وأن نستوعب من روائع كلمات اللغة ما كاد يميته الجهل ويطمس عليه شيطان الشعوبية

واللغات أيها السادة كما تنمو بإضافة كلمات أجنبية إليها تنمو بإحياء القديم الفصيح من كلماتها . وقد تفطن (حافظ) إلى هذا فأودع مصنفاته الكثير الطيب من تلك الكلمات . فكتابه « الاقتصاد السياسي» ألفه أو ترجمه مع صديقه خليل بك مطران ليثقف الطلاب على هذا العلم ويقرر لهم قواعده ، لكنه أودعه من « الألفاظ الكتابية » ما جعله كتاب أدب ولغة أكثر مما هو كتاب علم واقتصاد .

وكذلك شأنه في كتابه (سطيح) الذي نقد فيه أحوال المصريين وأفرغ حوادثه في قالب قصة نسب روايتها إلى من سماه (سطيحاً) . فالكتاب إذن رواية قصصية وكان ينبغي أن تستجمع شرائط القصة . وليس من شرائطها أن تكون بهذه الأساليب الفخمة وأن تحتوي على هذا القدر من الألفاظ الجزلة .

وهذا كتاب (البؤساء) الذي نقل فيه إلى العربية بؤساء (فيكتور هيكو) وفيكتور هيكو جعل أبطال بؤسائه من طبقات مختلفة، وجعل كل بطل منهم يتكلم باللهجة التي اعتادتها طبقته، فالسوقي العامي مثلاً لا يتكلم بلغة العالم الأديب ولا العكس . وطريقته هذه مطابقة للمبدأ الذي قرره

أديبنا (الجاحظ) في كتابه الحيوان من أن الواجب في نقـل عبارات السوقة وألفاظ العامة أن تروى كما هي أي مغلوطة ملحونة وإلا ذهب رونقها وضعف تأثيرها ·

وشاعرنا (حافظ) رحمه الله كان كلفه بفصيح اللغة يحمله على أن يترجم كلام السوقة من أبطال (البوءساء) بعبارة بليغة فصيحة لا ينطق به عادة إلا الفصحاء الأقدمون ·

فالبناء الذي يبني رصيفاً في الشارع إذا أراد أن يتكلم هل ينطق بكلمات : (تيامن ثم تياسر) و (ركب المحجة) و (ما أخلقك يا فلان بكذا) · هكذا حافظ ترجم لنا كلام البناء الافرنسي

ووصف لنا فرساً بأنه (سحير ، عصلب ، أهنع ، أدك ، مفتوح اللباب) و (فلان لبث معلقاً بخيط من الأجل تحت شقي مقص الفناء)

وكذلك استعمل (كلمة (أفجر) بمعنى أدركه الفجر و (انتعل أديم الأرض) بمعنى سار بلا حذاء · و (بسل) بمعنى حرام و (قنابل قنابل) بمعنى جماعات جماعات · إلى غير ذلك مما حمله غرامه به على استعماله في غير مواطنه مواطن هذه الكلمات ، كتب الأدب والمقامات ، لا القصص والروايات

فحافظ بهذا الإعتبار خلق لغوياً كاتباً بل كاتباً مقاماتياً قديماً ، لا كاتباً روائياً حديثاً ·

أما هو في الشعر فعلى العكس إذ كان لا يستعمل غريب اللغة بكثرة تدل على شرهه وحرصه · فمن ثم لم يكن لغوياً في شعره ، كما

كان لغوياً في نثره. ولكن هذا الشره إلى غريب اللغة في النثر إن كان ساء أقواماً فإنه لم يكن ليسوء مجمعنا العلمي الذي يحب أن تحيي اللغة العربية بإحياء الفصيح من كلماتها، والقديم الرائع من تعابيرها.

لذلك كانت فجيعة المجامع اللغوية بحافظ من جهة لغته ونثره، تعادل بل تفوق فجيعتها به من جهة نظمه وشعره.

***

وصفنا لكم أيها السادة (حافظاً) العضو في مجامع اللغة والأدب. أما حافظ العضو في مجالس الأنس والطرب فإليكم طرفاً مما يتسع له المقام:

يظهر أن أهل (حافظ) تنبأوا يوم ولادته بأنه سيكون كثير الحفظ لأخبار العرب وأشعارهم ومستملح نوادرهم فسموه (حافظاً). روى أصدقاؤه أنه كان يعمل على وضع مصنف في المرقص من شعر العرب يختار فيه لكل شاعر بيتاً من أروع أبياته، وقد جمع مواد ذلك الكتاب حتى بلغ نصفه، فاختار لبعض الشعراء مثلاً قوله:

ولا بد لي من جهلة في وصاله فهل من كريم أودع الحلم عنده

واختار لغيره غيره وهكذا، وإن اتساع حافظ في حفظه بليغ أشعار العرب على هذه الصورة أثر فيه ذوقاً في اللغة العربية فكان أنقى الشعراء المعاصرين عبارة، وأصحهم تركيباً، وأكثرهم تدقيقاً في اختيار الفصيح الرائع من الألفاظ -. وليس هذا فقط بل إن حفظه لأخبار العرب جعله نديماً ظريفاً لا تمل مجالسته ولا ترتوي النفس من منهل حديثه العذب.

وقد استحسن الدكتور (زكي مبارك) أن نطلق على حافظ ومن كان على شاكلته من حفاظ أخبار العرب كلمة (محدث)قال ويسمى بالافرنسية (Causeur) وأنا لا أوافق الدكتور على ماقال ، لأن لقب (المحدث) غلب في لغة الإسلام على راويي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإن في آدابنا العربية كلمةً أخرى أحق بالقبول وأجدر تلك هي كلمة (إخباري) نسبة إلى التبحر في الأخبار والاتساع في الرواية . وقد كان (الجاحظ) أكبر إخباري قام في الإسلام . وبعده (المسعودي) و (المحسّن التنوخي) وغيرهم كثيرون

وسمى (الجاحظ) هذا العلم (أي الاتساع في حفظ الأخبار وروايتها) « علم الخبر » وأثر عنه أنه قال (علم الخبر هو علم الملوك)

وعلى هذا يمكننا أن نقول إن حافظاً كان أكبر المعاصرين في (علم الملوك) عندنا كما كان (أناطول فرنس) أكبر أستاذ في هذا العلم عند الإفرنسيين . وكان (حافظ) رحمه الله يعرف من نفسه التفوق في هذا العلم . استأذن يوماً على « سعد زغلول » وكتب إليه هذين البيتين :

قل للرئيس جزاه الله صالحة ... بأن شاعره بالباب ينتظر
إن شاء حدثه أو شاء أتحفه ... بكل نادرة تروى وتبتكر

وقد اتفقت كلمة من ترجم لحافظ كما اتفقت كلمة فضلاء دمشق الذين حضروا مجالسه في زيارته الأخيرة لبلدهم — أنه أبرع إخباري وأظرف نديم عرفوه في حياتهم . ولولا وقار (مأتم التأبين) لروينا لحضراتكم

شيئاً من مُلحه الأدبية مما يدل على شدة ذكائه وقوة حفظه

* * *

على أنني مهما أغفلت ذكر شيءٍ من أخبار حفظه لا أحب أن يفوتني ذكر خبر مستغرب اتفق له في نسيانه :

ذلك أن حافظاً يحفظ أخبار الأولين والآخرين ويروي ما يحفظ بكل دقة وتثبت . ولكنه مع هذا ذهل مرة عن خبر (قصر الجزيرة) الذي كان للخديوي إسماعيل ، ثم اتخذ فندقاً لكبار السياح ، ثم صار قصراً لآل لطف الله — فروى لنا حافظ أن هذا القصر أصبح (بستان حيوان) وذلك قوله من قصيدة وصف فيها ذلك القصر :

كنت بالأمس جنة الحور يا قصـ ـر فأصبحت جنة الحيوان

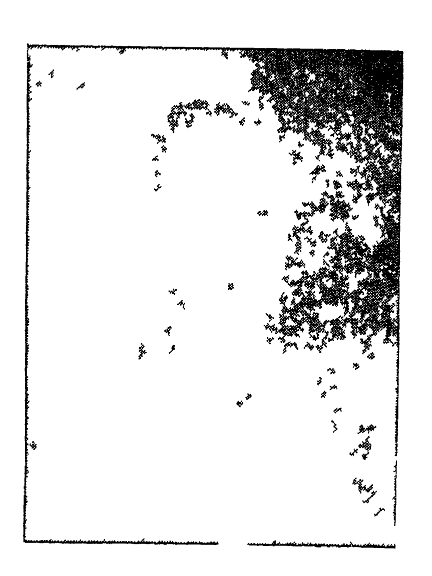
مع أن الذي تحول إلى (جنة حيوان) إنما هو قصر الجيزة لا قصر الجزيرة

ولعمري إن نسيان (حافظ) لخبر هذين القصرين اللذين هما على مرمى سهم من نظراته ، وطالما لمحهما في غدواته وروحاته أمر مستغرب جداً . نرويه في غرائب أخباره بعد مماته ، كما كان رحمه الله يروي غرائب أخبار من كان قبله في حياته . وهذا النسيان من حافظ يشبه ما روي عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أنه استأذن يوماً على بعض إخوانه ، فسأله الحاجب عن اسمه فأطرق يتذكر

رحم الله (الشيخ عبده) ورحم (حافظاً) وهل ترون الزمان أيها الإخوان يخلف علينا مثلهما في العلماء والشعراء ؟ إن فعل نكن حقاً من السعداء

دمشق «المغربي»

شرقية حافظ



محمد جميل سلطان

جمعت الآلام قلوب الشرقيين على كراهية الجشع الغربي ، فجعلت منهم جسماً يتألم جميعه لألم بعضه ، ولا تكاد ترى قوماً من أمم الشرق يشكو عسف الغرب وظلمه حتى تسمع أنيناً يتصاعد من الآفاق الشرقية الباقية ، وكأن ذلك صوت الأم المتألمة لشكاة ابن من أبنائها .

وإذا أخذت تلتمس مواضع العطف في قلوب الشرقيين على بني الإنسان ، راعك من الشرقي شدة حنينه لأخيه الشرقي وتحدثه بشأنه أكثر من سواه ؛ ذلك لأن ما ابتلي به الشرق من الآلام المنبعثة عن مصدر واحد لمّ شعث الشرقيين في العاطفة ، وإن لم يجمع شملهم في صف واحد حتى الآن .

الآلام أقوى جامعة بين الناس ، وقديماً وثقت عرى الأفراد والشعوب ، ووحدت مثلها العليا فاتجهت إلى هدف واحد ؛ وعبثاً تحاول

الأفراح أن تجمع القلوب على مثل ما جمعت الآلام ، لأن الدموع سلك الأفئدة الوثيق ، والفرح حريتها الطائشة المرحة ، وشتان بين موثق ومطلق .

وإذا أضفت إلى هذا أن الشرق لم ينعم براحة يخلد إليها ، ولم يفترّ ثغره عن هناء منذ ذرّ قرن هذه المدنية العجماء ، علمت مبلغ ما ترابط الآلام من قلوب الشرقيين اليوم .

ولعل هذا الشعور لم يكن منذ نصف قرن تقريباً على ما نشاهده نحن من التوسع والنفاذ ، لأن معنى الوطنية الحق وتغلغل العاطفة الشرقية في القلوب آخذان بالتوسع يوماً فيوماً ، فالآفاق تتجدد والمبادئ تنتشر بين كل مصبِح ومُمسي .

ومن ذا الذي يعمل في خدمة هذه المبادئ والعواطف غير الأدب والأدباء ؟

بل من ذا الذي يذكي الجمرات الخامدة ، وينفخ في الجثث الجامدة ، غير أرواح الشعراء ؟

إن في قيثارة الشاعر لألحاناً باعثة على الحياة ، وإن شيئاً من تلك ليغني الأمم أزماناً .

الشعراء أصوات صارخة في النهضات القومية وأنوار تهدي سواء السبيل ونحن في الشرق مَدينون لبعض الشعراء الذين كادوا يفحمون القلوب ويملأون الآذان .

ولعل حافظاً ألمعُ شعراء مصر في الجهرة الشرقية وفي خدمة تلك المبادئ السامية ، فقد شعر للوطن وغنى للشرق ، فأيقظ الأول وكان من حملة عرشه ، وتألم للثاني وكان من المعذبين لهجوده .

ولكن أنّى لصوته أن يكون في الشرق داوياً شأنه في مصر ؟ وإذن فليقنع من صوته بالألم ، ومن جهرته بالخيبة .

وإذا كان لصرخاته العالية أثر كبير في مصر وطنه الصغير ، فإن شيئاً من ذلك لم يكن في الشرق وطنه الكبير .

***

كان حافظ في مصر لساناً ناطقاً بأماني الشعب وآلامه ، مؤرخاً صادقاً للوثبة المصرية الوطنية حيناً من الدهر غير قليل .

وإذا كان الشاعر مرآة قومه ، فما كان أحذق حافظاً بتصوير الناحية الوطنية من الشعب المصري تصويراً يخلد ما بقي النيل وشعبه .

نظر في وطنه المهضوم فأفزعته أن تمتد يد الغاشمين إليه ، وأن يكون فريسة الأطماع الغربية ، فبكى واستبكى ، وثار وأثار ، ولكن الشمس لا تغير من الظلم شيئاً ولا تزيل من ألوانه لوناً ، فظل شاكياً متألماً يقول :

لقد كانت الأمثال تضرب بيننا	بجور سَدوم وهو من أظلم البشر
فلما بدت في الكون آيات ظلمهم	إذا بسدومٍ في حكومته عمر

وربما حمله ألمه من وقع الظلم في بعض الأحيان على تمني الموت ، أو

التهكم اللاذع من بعض الحكم والأمثال فكان يقول :

هنا يؤثر الإنسان ظلمة رمسه على ظلمة الظلم الذي قد تجسما
وقالوا «أساس الملك عدل» فمالنا نرى ملكهم منذ انتشى ماتهدما ؟

ويقول :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلماً منظما

وأثاره أن تكم الأفواه ، وأن يؤخذ في الضغط على الحرية بأسباب الشدة والقسوة ، والحرية أثمن ما يتغنى به الشعراء والأقوام ، فصاح في وجه الظالمين أن يرفعوا هذه الكمائم عن الأفواه لتنطق ، وعساها من بعد أن تتنسم هواء الحرية الطلق ، وأن تشم ريح الشمال .

ولما جرى القدر بحادثة دنشواي المشؤومة وأخذ المغتصبون في التقتيل والتعذيب ، كان فؤاده يضطرب ألما ويذوب رحمة بأولئك البائسين من أبناء وطنه . وقد خلد هذه المأساة لشعبه تخليداً يستوحي منه الأبناء والأحفاد فكرة الثأر للوطن المنكوب ، وكان مما قال في ذلك :

إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجيادا

. . . .

جاء جهالنا بأمر وجئتم ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا

وعادت به هذه المأساة إلى تقليب الصفحات السود من تاريخ البشر ، فلم ير أفظع من محاكم التفتيش ظلماً ، ولا أقسى من عهد نيرون

عسفاً ، وخيل إليه أن العهود المظلمة قد عادت على أيدي المستعمرين المنتقمين لغيظهم وحنقهم بالأحكام الجائرة وكان في ذلك قوله :

ليت شعري أتلك محكمة التفـ تيش عادت أم عهد نيرون عادا

. . . .

إيه يا مِدرهَ القضاء ويا من ساد في غفلة الزمان وشادا

أنت جلادنا فلا تنسَ أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

وفي الحق فإن مصر قد لبست الحداد في حادثة دنشواي على أيدي جماعة سادوا في غفلة الزمان . فيكف ينجو الوطن من وطأة الدهر وعسف الظالمين ؟

ذلك ما كان يبحث عنه زعماء مصر ، أما الشاعر ـ وكان كما قال شق زمانه علياً بمكر القوم وطمعهم — فكان أقرب إلى اليأس منه إلى التفاؤل ومن أين له أن يؤمن بالنجاة من كف العاتين بعدما شاهد التقتيل والتعذيب يقامان للشبهات والظنون وقد راح يحمل النفس على إحدى الراحتين ويقول :

وأكبر ظني أن يوم جلائهم ويوم نشور الخلق مقترنان

ولكن يأسه هذا لم يكن كامة على فمه تمنعه من القول — كما كانت وظيفته بعدئذ — بل كان يأساً فيه شيء من الأمل لأنه لم يبرح صادحاً مهيباً بأبناء الوطن للمحافظة على حقوق الوطن وكان يقول :

أنابتة العصر إن الغريب مُجدٌ بمصر فلا تلعبي

ويقول لسعد زغلول باشا ·

أَنا لا أُلوم المستشا ... ر إِذا تعلل أُو تصدى

فسبيله أن يستبد ... وشأْننا أَن نستعدا

وأُلقي البلبل مدة في القفص فسكت ، ولما أُطلق من وظيفته وتأْهب ليصدح كانت حفرة الجدث أقربَ إليه فثوى ·

***

لم يكن حافظ في وطنيته يقف عند مصر وحدودها الطبيعية ، بل كان وطنياً شرقياً خالصاً ، يلمس عداوة الغرب وحقده على الشرق فيميل إلى نفسه ويحملها على كراهية الغرب وحضارته ·

وإذا ثارت نفسه على الطغمة الغاشمين زأر زئير الأسد في غابه وغضب غضبة محتدمة · وكيف لا يغضب وقد عق الغرب المروءة وهدّ مفاخر الأولين وعاث الغربيون الطامعون في الأرض فساداً وألبسوا أهلهم خزياً في هذا القرن العشرين ·؟

اقرأ منظومته التمثيلية في ضرب الأسطول الطلياني مدينة بيروت تجد فيها روحاً شرقياً قد امتلأ كراهية للغرب وأطماعه ، فهو يصور لك جريحاً في الساعة الأخيرة من عمره يتألم لجراحه ويخشى الموت لا حباً بالحياة وهرباً من القبر، ولكن طمعاً في القيام بحق الوطن ويقول:

لم أقضِ حقّ بلادي ... وها أنا قد قضيت

ونظهر لك شرقية حافظ في هذه المنظومة حين يقول عن لسان ذلك الجريح ·

ياليتني لم أعاجل بالموت قبل الأوان
حتى أرى الشرق يسمو رغم اعتداء الزمان
ويسترد جلالاً له ورفعة شان
وليعلم الغرب أنا كأمة اليابان
لا نرتضي العيش يجري في ذلةٍ وهوان

ويصيح بأوربا منبهاً إياها إلى أن أطماعها لم تخفَ على الشرقيين ، وأن الحضارة لا تستطيع أن تستر ورآءها النوايا السيئة .

ويختم المأساة بانطفاء شعلة الحياة من الجريح الذي يردد هـذا البيت ويلفظه مع أنفاسه .

لا تندبيني فإني أقضي وتحيي بلادي

هذه المنظومة ممتلئة بقلي لأطماع الغرب ، وفيها شيء آخر هو عطف حافظ على القطر الشامي .

وإذا كان لنا أن نعين درجة عطف حافظ على وطننا هـذا فنحن لا نخطئ في الحكم إذا قلنا إنه أكبر عطف خصه حافظ بقطر من الأقطار ، اللهم إلا ما كان من مصر فقد شغلت فؤآده أكثر من بقية الأمصار .

لقد كان حافظ يرى في السوري المغترب جرأة وإقداماً قلما يوجدان عند سواه ، ويرى في اقتحامه الأهوال وشدة الركائب ونشاطه المستمر شيئاً يغبط عليه ، ويرى في حب السوريين مصر وعطفهم على قضيتها

إخاءً صميمياً ، فأحبهم وتغنى بمحامد القطر الشامي وأبنائه ، وقال في ذلك شعراً كثيراً استفاض على أفواه الناس في القطرين .

وطالما كان يذكر التاريخ الجامع بين الأمتين، والآلام التي أحاقت بهما في سالف الدهر وغابره ويقول :

إنما الشام والكنانة صنوا ن برغم الخطوب عاشا لزاما
أمنا أمكم وقد أرضعتنا من هواها ونحن نأبى الفطاما

ويشتد في الحرص على اتحاد الأمتين اتحاداً وثيقاً لأنهما ثمرة التاريخ ، وقد جمعهما الماضي اللامع بالآمال والنزعات واللغة والدين والمجد والسلطان وكان يحاذر أن يلقي الدساسون بينهما تفرقة لاتحمد عقباها فيقول:

نحن في حاجة إلى كل ماينـ مي قوانا ويربط الأرحاما

وإذا خص حافظ القطر الشامي بعطفه وحبه فقد خص الأتراك بشيء مثلهما إن لم يكن أكثر منهما ، وفي ديوانه شعر من ذلك كثير .

ويظهر أن الشاعر كان مأخوذاً بعظمة الخلافة العثمانية يتغنى بمحامدها وأبهتها ، وكان كشوقي رحمه الله يتقرب من عرشها بشعره ويرسل إلى الخليفة التحية إثر التحية ، وكثيراً ما كان قلبه يهفو إلى بلد السلطان وإلى حماة الملك من رجال الجيش وغيرهم ، فيخص كلاً من ذلك بشيء من شعره غير يسير .

ويظهر أنه كان يذهب إلى الإيمان بسمو شمائل السلطان عبد الحميد وبعظيم قوته وبطشه، فيفرغ عليه من الأقوال والصفات شيئاً عظيماً .

ولما أدال الزمن منه واعتلى أريكة الخلافة محمد رشاد الخامس كان شاعرنا ما يزال خصب المحبة للخلافة فاستبشر بإحياء عهد « الرشيد » زمن «الرشاد» ودعاه تقربه من عرش الخلافة أن ينادي أم الأرض قائلاً :

طأطئي للجلال يا أم الأر ض سجوداً هذا مقام السجود

وإنك لتستشف عطف حافظ على الأمة التركية وطربه حين سعدت بدستورها من قوله عن عبد الحميد شبح الظلم المخيف وحامل لواء الاستبداد :

وأصبح في منفاه والجيش دونه يغالب ذكرى ملكه وتغالبه
يناديه صوت الحق ذق ما أذقتهم فكل امرئ رهن بما هو كاسبه
همو منحوك اليوم ما أنت مشتهٍ فردّ لهم بالأمس ما أنت سالبه
ودع عنك ما أملت إن كنت حازماً فلم يبقَ للآمال فضل تجاذبه
مضى عهد الاستبداد واندكّ صرحه وولت أفاعيه وماتت عقاربه

وهكذا فإن حافظاً عطف على الأتراك كما عطف على الشاميين من قبل ، فكان في كلا العطفين شرقياً محباً

* * *

وهناك قطر شرقي ثالث أعجب به حافظ كل الإعجاب وأحبه خالص المحبة ورأى في نهضته المثل الشرقي الأكبر في النهوض والاعتزاز بالنفس والأخذ بأسباب الوطنية ، فدعا كل شرقي إلى انتهاج منهاجه وتقيّله في أعماله

وكان يرى أن سياسة الغرب الطامعة ناجحة في الشرق، ولم تقصر يدها إلا في اليابان، تلك الأمة الناشطة التي يجب أن تأخذ الشعوب الشرقية بأخذها وأن تستن بسنتها فقال :

جرت أمة اليابان شوطاً إلى العلا ومصر على آثارها ستسير

وقال :

وها أمة الصفر قد مهدت لنا النهج فاستبقوا الموردا

وضرب حافظ المثل بالوطنية اليابانية فجعلها الغاية العليا . وإن أنس لا أنس أول قصيدة حفظتها له في مستهل العمر عن غادة يابانية آثرت الموت على الحياة واستعذبت المورد الذي استعذبه قومها وإن كان فيه الهلاك، ورأت أنها إذا لم تستطع الكفاح، ففي إمكانها مداواة الجراح، وقد سمعت صوت الوطن يرن في الأجواء ويملأ الضمائر، فأقدمت عساها أن تقضي ما وجب عليها وقالت :

هكذا (الميكاد) قد علمنا أن نرى الأوطان أمًّا وأبا

وإذا كان في عطف حافظ على الخلافة والأتراك ما قد ينسب إلى التزلف والتقرب، فقد كان عطفه على اليابان وإعجابه بإقدامها وانتهاجها سبل العلا، وتمهيدها الطريق لنا نحن الشرقيين — كان ذلك من أقوى الأدلة على شرقيته الخالصة من الرياء والزلفى .

* * *

وعطف حافظ على غير الشام وتركيا واليابان، عطف على طرابلس

الغرب وتونس والجزائر ومراكش وفارس والأفغان والهند وجاوة ،
وكان في عطفه على هذه الأقطار يبلغ الألم لما حلّ بها معذب الفؤاد لأجلها
انظر فيما قاله في حرب طرابلس الغرب وامتداد النفوذ الطلياني إلى
هذه البقعة من الوطن الشرقي ، وكيف صور طمع الغربيين وما أتوه من
فظائع تقشعر لها الأبدان وتضطرب لها الأفئدة هلعاً وحسرة ، انظر في
ذلك وضع يدك على قلبك فهل تحسّ إلا وجيباً ؟ وهل تسمع من
صدرك إلا نحيباً حين يقول :

عجز الطليان عن أبطالنا　　فأعلوا من ذرارينا الحساما
كبلوهم ، قتلوهم ، مثّلوا　　بذوات الخدر طاحوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والزّمنى ولم　　يرحموا طفلاً ولم يبقوا غلاما
أحرقوا الدور استحلوا كلما　　حرمت لاهاي في العهد احتراما

وبعد أن يصف لك هذه الفظائع القاسية يعود فيحدثك عن نوايا
الغرب وأطماعه ويقول :

كشفوا عن نية الغرب لنا　　وجلوا عن أفق الشرق الظلاما
فقرأناها سطوراً من دم　　أقسمت تلتهم الشرق التهاما

وإذن فلم يكن شاعرنا يرى في اعتداء الطليان على طرابلس اعتداء قوم
على آخر فحسب ، وإنما كان يرى فيه سجال الغرب مع الشرق ، وتحفز
القوي المسلح على الضعيف الأعزل ، وطمع الظالم العاتي بمال اليتيم
المهضوم ، وقد ظهرت فكرته هذه في مفتتح القصيدة حين قال :

طمعٌ ألقى عن الغرب اللثاما   فاستفق ياشرق واحذر أن تناما

واحملي أيتها الشمس إلى   كل من يسكن في الشرق السلاما

وبهذا ترى شعوره الشرقي واضحاً جلياً كما تراه في ختام القصيدة إذ يقول:

فاطمئني أمم الشرق ولا   تقنطي اليوم فإن الجد قاما

إن في أضلاعنا أفئدة   تعشق المجد وتأبى أن تضاما

ولعل أجمع قصيدة تظهر اهتمام حافظ بالشرق وأهله ، هي التي قالها في أول السنة الهجرية ، والتي يفتتحها بهذا البيت:

أطل على الأكوان والخلق تنظر   هلال رآه المسلمون فكبروا

وفي هذه القصيدة دليل ناصع على شرقيته وإسلاميته فقد حيى بها أمم الشرق و أرسل التحية إلى عبد الحميد وشعبه فقال :

سلام على عبد الحميد وجيشه   وأمته ما قام في الشرق منبر

وحيى فارس ، ولكن حبه للفرس وآمالهم في الحياة و الحرية والإصلاح أبى عليه أن يحيي الشاه الغاشم فقال :

سلام عليكم أمة الفرس إنكم   جديرون أن تحيوا كراماً وتفخروا

ولا أقرئ الشاه السلام فإنه   يريق دماء المصلحين و يهدر

وابتسم لعهد سلطان مراكش الجديد مولاي عبد الحفيظ إذ نجت به مراكش من عهد ليس فيه للنور سبيل ، ولم يأسف على عرش سلفه عبد العزيز حين ثلّ فقال :

ولا عجب إن ثل عرش مملك   قوائمه عودٌ ودفٌّ ومزهر

وجنح إلى الأفغان ينظر أثر الهلال الجديد، فإذا بشهوره تزهر بالسعد واليمن فيقول :

أقام بها والعود ريان أخضر　　وفارقها والعود فينان مثمر

واستبشر بهذا القمر الطالع حين رآى في الهند وجاوة بارقاً يلمع مع إشراق الهلال فقال:

وفيه نمت في الهند للعلم نهضة　　أرى تحتها سراً خفياً سيظهر

فتجري إلى العلياء والجد شوطها　　ويخصب فيها كل جدب وينضر

وفيه بدت في أفق جاوة لمعة　　أضاءت لأهليها السبيل فبكروا

وقد آلمه أن يكون طالع القمر الجديد غير مجدٍ في الجزائر وتونس، وأن تظل الأغلال والقيود بأعناق رجال الوطن وأيديهم فقال :

فيا ليته أولى الجزائر منة　　تفك لها تلك القيود وتكسر

وفي تونس الخضراء ياليته بني　　له أثراً في لوحة الدهر يذكر

وأما مصر فقد خصها من القصيدة بجزء وافر يرضي وطنيته المتأججة ، وأما الشام والعراق وجزيرة العرب ، فليس لها من القصيدة نصيب ، أغفلها كما أغفل ذكر الصين والتركستان والبلوج وسيام وغيرها من أمم الشرق !

ولعل حافظاً كان يرى في الأقطار العربية رأياً سياسياً ،ولعله كان يذهب إلى أنها أمة عبد الحميد وشعبه، فإذا حيي الرأس فلا داعي للتسليم على الأعضاء ! حتى ولو كانت الأعضاء غير طبيعية في ذلك الجسم!!

ومضى العام الذي قال فيه الشاعر هذه القصيدة ، وأعقبه عام احتفل فيه برأس السنة الهجرية فنعى على هلال السنة الماضية سوء مطلعه في مصر وأسف لمدحه إياه ، ولكنه لم يغفل عما أتى به من الخيرات في بلاد الشرق ، ففي تركيا عهد جديد للدستور وحماته أعاد إليها رونقها وأديل لعبد الحميد من شعبه فهوى ، ولما أراد أن يعود أخفق وأمسى يخشى الجند وكانوا بأمره من قبل يأتمرون .

وفي فارس نهضة جديدة حتى أصبح « الشاه » يخشى « البيدق » وأما مصر فكان الهلال عليها نحساً وفي ذلك يقول :

لو كنت أعلم ما يخبئه لنا　　　لسألت ربي ضارعاً أن يمحقا

أولى الأعاجم منة مذكورة　　　وأعاد للأتراك ذاك الرونقا

وتغيرت فيه الخطوب بفارس　　　حتى رأيت الشاه يخشى البيدقا

وفي هذا أثر واضح لاهتمامه بشؤون الشرق شأنه في الاهتمام بشؤون وطنه ، ودليل ناصع على شرقيته بأوسع آفاقها

وإذا كان شاعرنا مصريا صريحاً ، فقد كان شرقياً خالصاً ، وإذا حن لوطنه مصر فقال :

متى أنا بالغ يا مصر أرضاً　　　أشم بتربها ريح الملاب

فقد فدى الشرق بروحه وقال :

فديناك ياشرق لا تجزعن　　　إذا اليوم ولى فراقب غدا

وإذا تألم للوطن وما انتابه وقال :

فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب

وإذا تحسر على أبناء مصر في يد المستعمر وقال :

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تكُ مصرياً ولا تكُ مسلما

فقد تألم على الشرق وتأوه لمجده القديم وحظه الأسود ولم ينس نسبته إليه وفي ذلك يقول :

فإن تكن نسبتي للشرق مانعتي حظًّا فواهاً لمجد الترك والعرب

ويقول

ودائي كداء الدين عزّ دواؤه وحظي كحظ الشرق نحس كواكبه

وكم كان يشجيه أن ينعم الأجنبي في الشرق متمتعاً محمياً بالامتيازات الأجنبية ، تلك الامتيازات التي كانت منحة من السلاطين العظام ، وأماناً للخائفين من الأجانب يوم كانوا لا يجسرون على متجر أو عمل في الشرق إلاَّ بإذن الخلفاء

وأي شرقي لا يتألم حين يرى منحة ملوكه الأقوياء للأجانب الدخلاء تصبح حقوقاً يستغلونها فيسدون بها على ابن البلاد موارد الرزق والحياة ، ويرهقونه باسمها وهو لا يملك لنفسه حقاً ؟

كان حافظ يرى كل ذلك فلا يملك نفسه أن يقول عن ملوك بني عثمان (الكرماء) وعمن يلتجئون إليهم من الأجانب طالبي المنح والامتيازات :

فكم طلبوا منهم أماناً فأُمنوا وأمسى لهم في الشرق مسرى ومسرب

فكان أمان القوم والشرق مشرق   فأضحى امتياز القوم والغرب مغرب

وأحفظ الشاعر أن يرى على كل عرش من عروش الغرب أشعب يهفو إلى الشرق فؤاده، وأن يظن الغربيون الطامعون التعصب بالشرق وحده وأن الغرب من ذلك بريء، فراح يرد الحجر من حيث جاء و يعظ الشرق و يقول :

يقولون في هذي الربوع تعصب   وأي مكان ليس فيه تعصب

فياشرق إن الغرب إن لان أوقسا   ففيه من الصهباء طبع مذوب

فخف بأسها في الرأس والرأس يصطلي   وخف ضعفها في الكأس والكأس تطرب

ويا غرب إن الدهر يطفو بأهله   ويطويه تيار القضاء فيرسب

أراك مقرّ الطامعين كأنما   على كل عرش من عروشك أشعب

وحينما قامت الحرب بين الروس واليابان ، والتقى الأبيض والأصفر، ولها بالدم الميكادو وقيصر، لم يكن من شاعرنا وهو الذي يأبى سفك الدم وتقتيل الناس في سبيل مطامع الملوك إلا أن ثارت عزته الشرقية فافتخر بالنصر الشرقي ولكنه كان مع ذلك يقول :

تسوءنا الحرب وإن أصبحت   تدعو رجال الشرق أن يفخروا

أتى على الشرقي حين إذا   ما ذكر الأحياء لا يذكر

ومر بالشرق زمان وما   يمرّ بالبال ولا يخطر

حتى أعاد الصفر أيامه   فانتصف الأسود والأسمر

فرحمة الله على أمة   يروي لها التاريخ ما يؤثر

ودعاه حبه للشرق أن يهيب به من غفلته لينفض عنه العجز وليأخذ بأسباب الحياة مجدًا فكان مما قال :

بعث المشرق من مرقده بعد حين جل من يحيي العظاما
أيها المشرقي شمر لا تنم وانفض العجز فإن الجد قاما

ولم تكن دعوته الشرقية لتفتر حتى يعاود قيثارته . وربما آلمه أن يكثر من ضرب الأمثال بأمة اليابان وأن لا يرى من يسمع أو يعي فكان يصيح قائلاً :

فهبوا من مراقدكم فإن الوقت من ذهب
فهذي أمة اليابا ن جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفاً وهمنا بابنة العنب

ولعل شرقية حافظ وإغراقه في حبها قد دعواه إلى كراهية مدنية الغرب بل ربما كانت نتائج العلم من استخدامه في إذلال الشعوب الشرقية وتقتيل الناس سبباً في سخط جديد عند حافظ على مدنية أوربا الخرقاء .

ولما أتى على وصف آثار العلم في الدمار والتخريب ، وتعديد مآثر الغرب في هذا العلم انتهى إلى استنكار عهد العلم وقال :

إن كان عهد العلم هذا شأنه فينا فعهد الجاهلية أرفق

* * *

و بعد فقد كان حافظ رحمه الله شاعر الفكرة الشرقية بأوسع معانيها ، في قيثارته ألحان المجد التالد ، وأحزان الشرق الكليم ، وكم حاول أن

تكون نغماته الشجية مبعث نهضة جبارة في الشرق كافة، ولكن القدر لا يسعف المرء بكل ما يريد .

وإذا لم يستطع حافظ تحقيق أمله في الشرق فقد استطاع أن ينبه الأفكار في معظم أقطاره، واستطاع أن يثير القلوب لتحقيق ذلك الأمل المعسول .

وكما حمل الشاعر للنفوس المعذبة عزآء وسلوى، فقد زودها بقوة عظيمة من الأمل تهون أمامها العقاب الجسام، وكان بذلك عاملاً فعالاً في تطور الأفكار بكثير من أمصار الشرق، حتى أصبحت الفكرة الشرقية مترامية الآفاق أكثر من ذي قبل .

وإنا لنرجو أن يتاح لهذا الشرق شعرآء عبقريون كحافظ، ينفخون في النار الخابية فيثب الشرق وثبة يفزع لها الغرب ويحق الله بها الحق لأهله .

دمشق :　　　　　　　　　　　　محمد جميل سلطان



بؤس حافظ

يتحدث كل متحدث عن حافظ عن بؤسه ، ويقرن كل متكلم حافظاً بالبؤس ، حتى أصبحت كلمة البؤس وحافظاً مترادفين ، وإلفين متلازمين ، ولفظين لمعنى واحد ، يمكن أن يستغني عن أحدهما بالآخر في موضع الذكر ، وهما لا ينفصلان .

ولعل من أسباب ذلك أن حافظاً لم يكن له مورد رزق ثابت ، فكان حيناً تمتلئ كفه بالمال ، وفي أحيان تصفر منه وتعطل من حلاه . وأنه كان أديباً وشاعراً فناناً . وصفة الشاعرية وحرفة الأدب يلازمهما على الدوام منذ الأزل إلى الآن ، وفي كل بلد وصقع صفة البؤس والإملاق . وأنه ترجم البؤساء لهيجو وكتب في مقدمتها أن صاحبها كتبها وهو بائس ومترجمها ترجمها وهو بائس فجاء الأصل والترجمة كالعروس وخيالها في المرآة .. وأنه أكثر من شكوى الزمان وبؤسه ، وآلامه ونحسه . وهي أسباب لو تمهدت لقارون لقيل عنه إنه بائس .

ولكن هل كان حافظ بائساً بمعنى الفقر من المال والإملاق والجوع ؟ إنه لوهم وخلط أن يحسب ذلك في مواضع اليقين . وإنه لسخافة من فكر يجول فيه ذلك الخاطر ، وإنه إلى ذلك احتقار للشعر باعتباره فناً إنسانياً مهذباً سامياً ، علا عن أطماع المادة ، وبعد عن

أطماع الحياة ومتاع الدنيا وعروضها وأن يوضع أمر بؤسه وجده ونحسه وسعده في ذلك الميزان الحقير . فتقدر المعاني العلوية بما تقدر به لقمات العيش التي تملأ المعدة لتنحل إلى أقذر ما في الوجود !

إن الفنان لا يعيش لبطنه ، ولا يحسب حساب معدته ، ولا يقيس حظه في الحياة بجوعه وشبعه وظمئه وريّه ، ولكنه يعيش لفنه ، ويحسب حساب عقله وقلبه وخياله ويقيس حظه بما أفاض وأنتج ، وبما تحقق من آماله وصور أمثلته العليا .

ولئن كانت في العالم طائفة من أهله تحتقر « المال » وتزدريه وتغمض جفونها عن طلابه وتأبى أن تركع له وتدين له بالعبودية ، وتضعه من عبوديتها في مقام الربوبية فلن تكون غير طائفة الفنانين ..

والدليل على ذلك أنك لا تجد فنانا ، جمع الثروة وأقام نفسه على حراستها ، فكلهم مكتفون يعيشون فقراء ويموتون كذلك

وإلا لو كانت حياة الفنان تقاس عظمتها وازدهارها بالشبع والريّ وامتلاء اليد بالمال لما كان هناك إنتاج فني ، ولما وجدنا بين أيدينا هذا التراث العظيم الهائل من الفن . فلقد كان كل الفنانين فقراء ، فلو كان بؤسهم في جوعهم لما كتبوا ونظموا أو صوروا أو تغنوا . ولكان جوعهم ألهاهم عن الفن وشغلهم السعي وراء لقمة العيش عن الإنتاج الجائع .

وعلى ذلك فإن بؤس حافظ لم يكن بؤس جوع وعري وظمأ وحاجة إلى المال ، ولكنه بؤس النفس الحزينة التي تقصفت فيها

الآمال وعطشت فيها الأماني . بؤس القلب الذي تيتمت فيه العواطف وتكسرت فيه النصال على النصال . بؤس الروح التي خطبت مثلاً أعلى لها وأغلت له المهر فلم تنل من تحقيقه أرباً . بؤس الشاعر الإنساني يتفطر ويبكي لمصاب الإنسانية المتجدد على تجدد الأيام والليالي . بؤس المصري يجد وطنه يتأكل مجده وتنحل أخلاقه وتغزو جيوش الجهل الضالة فيه جيوش العلم فتقهرها وترديها، وتتحرش بعظمته عوامل الموت والفناء وهو لا يملك لكل هذا دفعاً ولا منعاً، ويجد شعره كالقتيل في معركة حامية تهشمه وهو على الأرض ملقى تحت سنابك الخيل الفارة، وسنابك الأخرى المنتصرة .

هذا بؤس حافظ . بؤس نفساني روحاني، وليس بؤس المادة والحاجة والطمع . لقد كان يقع لحافظ المائة والألف من الجنيهات فلا يُعرف أبات وهي في جيبه، أم باتت في خزائن غيره .

لقد كسب حافظ من تواليفه وكتبه مالاً غزيراً وفيراً . فهل أغناه هذا المال عن التحدث عن بؤسه ؟ وهل أسكته عن بكاء ذلك البؤس ؟ فكيف إذن نوفق بين وجود المال ووجود البؤس من الفقر

إن (القمري) قد يكون بين الرياض وما اعتل من النسيم وصح من جمال الطبيعة، ومع ذلك لا ينفك يشكو الوجع، ويرثي المجهول من آلامه، ويحن حنين الأسوان الجريح ... وكذلك الشاعر . وكذلك كان حافظ .

مصر : محمد شوكت التوني

شاعر النيل

محمد حافظ ابراهيم

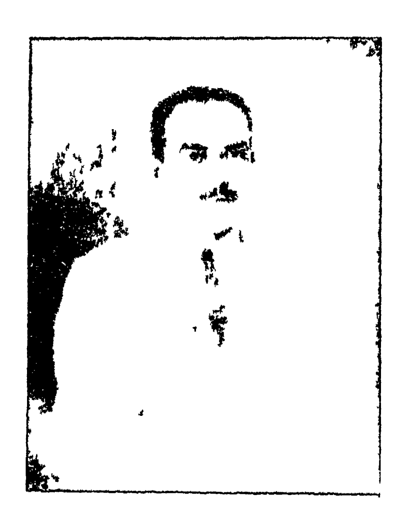
٢

قصائد الشعراء فيه



حافظ إبراهيم وخليل مطران و بعض أعضآء المجمع العلمي العربي في دمشق

محمد حافظ ابراهيم



الدكتور أحمد زكي أبو شادي

الشعرُ بعدكَ لنْ يعيشَ يتيما
والنظمُ دونك لن يهونَ نظيما
وزعت روحك في الحياة وأطلعت
عمراً ، وصيرتِ المماتَ عديما
طبعت بها الآيات للأدب الذي
مازلت فيهِ على العبادِ زعيما
أدبٌ تسيرُ الشمسُ بين ركابه
في الخافقينِ وتحفظ التعليما

يحيى على كرّ الزمان ولم يكن
ليموتَ لو غابَ الشعاعُ رميما
من طينِ (مصر) نما ومن أنفاسها
والأرضُ لا تنمي الشعور ذميما
نحتُ الحياة وتارةً تمثيلها
عاشا مثالاً من نداهُ وسيما
ما كان رمزاً للقسامةِ مظهراً
كالكنزِ خبأ حالياً وقسيما
لا يستخفّ بما يصوغ كيانهُ
فيجيء معجزهُ الجريءُ قويما
إن كان تنقصه الرشاقةُ تارةً
فمن الرشاقةِ ما يكونُ سقيما
يلقيهِ في الحفلِ العظيم رسالةً
فيهزّ صحباً إذ يهزّ خصيما

كالأنبيــاء يفيضُ عن إيمانهِ ... باللفظِ شهداً والبيانِ شميما

فيجهوريِّ الصوتِ يدوي عالياً ... حتى إذا أشجاكَ عادَ حليما

خضعتْ له المهجُ العزيزةُ وانثنى ... بالراحِ يشفي عانيـاً وكليما

فترى الحياةَ تدبُّ في ألفاظهِ ... والصوتَ ينهضُ بالحروفِ رخيما

وتراه في المعنى وفي المبنى سما ... فوقَ النبوغِ إذا التفوُّقُ ريما

وينالُ بالإلقاءِ عمراً آخراً ... من روحهِ ويزيدهُ تفخيما

ولكم يموتُ الشعر من متعثرٍ ... فتراهُ في أبهى الجمالِ هشيما

جزعت نفائسه لفقدك حينما ... موتٌ كموتك يشبهُ التكريما

تمضي إلى دنيا الخلودِ وقبلها ... ملكُ الخيالِ مرحتَ فيه نسيما

روحٌ شباةُ السيفِ حدَّةُ خاطرٍ ... فيه ، ووحيُ الفن فيه أُقيما

لاقى الحروبَ ودامَ في حرب المنى ... ومضى ولم يعرف بها التسليما

غلبت بسالته الزَّمان وأشرقتْ ... منه البشاشة سالمًا وسليما[1]

يتميز القدرُ العتيُّ بنظمه ... ويقصُّ أسرار القضاءِ رحيما

جمعَ الشبابِ مع المشيب فأطلعا ... حكماً وآياتٍ تزينُ حكيما

زهتِ الفصاحةُ والرصانةُ والحجى ... فيها نجوماً تستحثُّ نجوما

يبني البيوتَ العامراتِ مآثراً ... وهي الصوامعُ للجمال سليما

ويصوغُ للوطن العزيزِ ذخائراً ... (النيلُ) باركَ كنزها فأديما

حلوُ الدعابةِ والحديثِ فما انتهى ... متذوقٌ منه نهىً ونديما

---

(١) السليم : الجريح

ينسى مرارات الحياة بقربه والحظّ ختلاً والزمان لئيما
صافي الفؤاد فليس ينبض مرةً إلا صفيًّا للنفوس حميما
علمٌ بقامته ونخوة قلبه كم صانَ للأدبِ الصميم صميما
يحيي القريض و كم يغيث رجاله والفنُّ أجمل ما يكون عميما
يحنو على البؤساء حين استعذبوا منه الشفاء بشعره ترنيما
نشرَ المحبةَ والسلامَ ولم يذقْ إلا أليماً للورى وأليما
كم من أيادٍ للمروءة حجبت حتى العليمُ بهنَّ ليس عليما
حفظَ الوفاء كحفظه لغة العلى وأشعَّ سحراً للعقولِ جسيما
هيهات أنسى من نداه محبةً قد كان يسبغها عليّ كريما
لولا المحبةُ فاضت الدنيا أسىً وغدا شقاء الهالكينَ جحيما

***

يبكيك وجدانُ العروبة منقذاً والجهل قد نشرَ الظلامَ بهيما
يبكيك من عبدوا الوفاء و كانما ذاك الوفيُّ المرتجيك قديما
أمّا أنا فأردُّ دمعي طائراً فوق الأثيرِ لكي أراكَ نعيما
وأعاف من شعر الرثاء مناحةً وأراه ذكراً شاملاً ومقيما
ربحَ الذين رثوك شأوَ مفاخرٍ وعدا الذي أغفلته التعظيما
لكن وددتك من يصوغ لي الرثا عن أن أصوغَ لك الرثاء كليما
شعرٌ تقاسُ به الحياةُ ومجدُها ويخلدُ الظلّ السريعَ رسوما
ولكم تمناه الأديبُ كنوزَه عن أن تدومَ له الحياةُ خديما

ونعدُّ من نعم الحياةِ وبرّها نفسٌ كنفسك لا نسيءُ خصيما
طبعت على الزهدالنقيّ وقدّرت في الجـاهِ غبناً واليسارِ غريما
ما الحيُّ إلاّ نفحة علويةٌ مـا الميتُ إلاّ من يعيش أثيما
فلكَ البقاءُ السرمديُّ فإنما خُلِقَ البقاءُ لمن يموتُ عظيما

مصر : أحمد زكي أبو داشي



ريحانة شوقي

قد كنتَ أُوثر أن تقولَ رثائي
يا منصفَ الموتى من الأحياءِ
لكن سبقتَ وكلُّ طولِ سلامةٍ
قدرٌ وكلُّ منيةٍ بقضاءِ
الحقُّ نادى فاستجبتَ ولم تزل
بالحق تحفلُ عند كلِّ نداءِ
وأتيتَ صحراءَ الإمامِ تذوبُ من
طولِ الحنينِ لساكنِ الصحراءِ

أحمد شوقي

فلقيتَ في الدارِ الإمامَ محمداً ... في زمرةِ الأبرارِ والحنفاءِ
أثرُ النعيمِ على كريمِ جبينهِ ... ومراشدُ التفسيرِ والإفتاءِ
فشكوتما الشوقَ القديمَ وذقتما ... طيبَ التداني بعدَ طولِ تناءِ
إن كانت الأُولى منازلَ فرقةٍ ... فالسمحةُ الأُخرى ديارُ لقاءِ
وودتُ لو أني فداكَ من الردى ... والكاذبون المرجفون فدائي
الناطقون عن الضغينة والهوى ... والموغرو الموتى على الأحياءِ
من كل هدّامٍ ويبني مجده ... بكرائمِ الأنقاضِ والأشلاءِ

ما حطموك وإنما بك حطموا ... من ذا يحطم رفرفَ الجوزآء
انظر فأنت كأمسِ شأنكَ باذخٌ ... في الشرقِ واسمكَ أرفعُ الأسمآء
بالأمسِ قد حليتني بقصيدةٍ ... غرآء تحفظُ كاليـد البيضآء
غيظ الحسود لها وقمتُ بشكرِها ... وكما علمتَ مودتي ووفـائي
في محفـلٍ بشرت آمالي بهِ ... لمـا رفعتَ إلى السمآء لوائي

* * *

يا مانحَ السودانِ شرخَ شبابه ... ووليَّه في السلم والهيجـآء
لما نزلتَ على خمائله ثوى ... نبعُ البيانِ ورآء نبع المآء
قلدتـه السيفَ الحسامَ وزدته ... قلماً كصدر الصعْدة السمرآء
قلمٌ جرى الحقبَ الطوالَ فما جرى ... يوماً بفاحشـةٍ ولا بهجـآء
يكسو بمدحته الكرامَ جلالةً ... ويشيع الموتى بحسنِ ثنآء

***

إسكندريةُ يا عروسَ المآء ... وخميـلةَ الحكمآء والشعرآء
جآءتك كالطير الكريم غرائباً ... فجمعتهـا كالربوة الغنـآء
قد جملوكِ فصرتِ زنبقةَ الثرى ... للوافدين ودرةَ الدأمآء
غرسوا رُباك على خمائل بابلٍ ... وبنَوْا قصوركِ في سنا الحمرآء
واستحدثوا طرقاً منورةَ الهدى ... كسبيل عيسى في فجاج المآء
فخذي كأمسٍ من الثقافةِ زينةً ... وتجملي بشبـابك النجبـآء
وتقلدي لغةَ الكتاب فإنهـا ... حجرُ البنآء وعُدَّةُ الإنشآء

بَنتِ الحضارةَ مرتين ومهدت ... للملك في بغــداد والفيحاء
وسمت بقرطبةٍ ومصرَ فحلتـا ... بين الممالك ذروةَ العلياء
ماذا حشدتِ من الدموع لحافظٍ ... وذخرتِ من حزنٍ له وبكاء
ووجدتِ من وقع البلاء بفقده ... إن البلاء مصارعُ العظماء
اللهُ يشهد قد وفيتِ سخيةً ... بالدمع غيرَ بخيلةِ الخطباء
وأخذتِ قسطاً من مناحة ماجدٍ ... جمّ المآثر طيبِ الأنباء
هتف الرُّواةُ الحاضرون بشعره ... وحدا به البادون في البيداء
لبنانُ يبكيه وتبكي الضاد من ... حلبٍ إلى الفيحا إلى صنعاء
عربُ الوفاء وفوا بذمة شاعرٍ ... باني الصفوف مؤلفِ الأجزاء

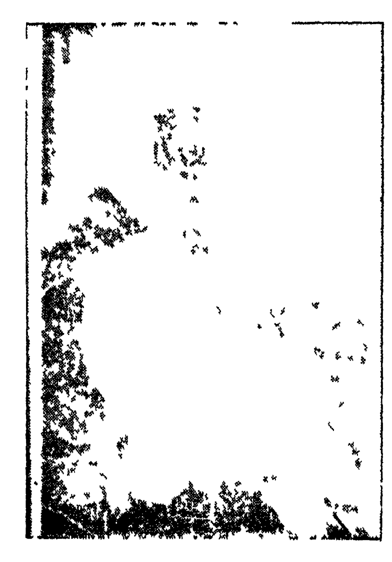
***

ياحافظ الفصحى وحارس مجدها ... وإمام من نجلتْ من البلغاء
ما زلتَ تهتف بالقديم وفضله ... حتى حميتَ أمانةَ القدماء
جددتَ أسلوب (الوليد) ولفظه ... وأتيتَ للدنيا بسحر الطائي
وجريت في طلب الجديد إلى المدى ... حتى اقترنتَ بصاحب البؤساء
ماذا وراء الموت من سلوى ومن ... دَعةٍ ومن كرمٍ ومن إغضاء
اشرح حقائقَ ما رأيت ولم تزل ... أهلاً لشرحِ حقائقِ الأشياء
رتبُ الشجاعة في الرجال جلائلٌ ... وأجلهن شجاعــة الآراء
كم ضقتَ ذرعاً بالحياة وكيدها ... وهتفتَ بالشــكوى من الضراء
فهلمّ فارق يأسَ نفسك ساعةً ... واطلع على الوادي شعاعَ رجاء

وأشر إلى الدنيا بوجهٍ ضاحكٍ خلقت أسرّته من السرّاء
ياطالما ملأ النديَّ بشاشةً وهدى إليك حوائجَ الفقراء
اليوم هادنت الحوادث فاطّرح عبءَ السنين وألق عبءَ الداء
خلفتَ في الدنيا بياناً خالداً وتركتَ أجيالاً من الأبناء
وغداً سيذكرك الزمان ولم يزل للدهر إنصافٌ وحسنُ جزاء

مصر : أحمد شوقي

رسول العبقرية



أحمد محرم

أعندكَ أنا لم ندع بعدك الوجدا
وأنا ظننا الصبرَ يُجدي فما أجدى

وهل يملك العاني المروَّعُ سلوةً
إذا لم يجد من لوعةٍ أو أسىً بدّا

طوى البين من عهد الإخلاّء ما طوى
وأبدى من الوجد المكتم ما أبدى

سل الأربعين السود هل بات فاضل
يرى العيش إلا حالك اللون مسودا

لئن كنتَ في دنيا المسيئين زاهداً لقد زدتنا فيها وفي ناسها زهدا

فقدناك أدهى من نحبُّ فجيعةً وأوجعَ من نرجو البقاء له فقدا

لكل أَديبٍ من مصابك شجوُهُ يطوف به ذكراً وينتابه سهدا

أكنتَ رسولَ العبقرية جاءنا بإنجيلها ثم انثنى يطلبُ اللحدا ؟

أقمتَ من الآدابِ ملكاً مخلداً جمعت له الأخلاقَ تجعلها جندا

ومن عدمَ الأخلاقَ لم يُغنِ علمه وإن غلب الأقرانَ أو جاوز الحدا

فقل للملوك الجاهلين مكانها أما تعرفون التاج والسيفَ والبردا

ذكرتك مرجوَّ المروءةِ نازعاً ... إلى الصنع تُسديه وتعتدّه مجدا
فتىً عربيٌّ مِـلءُ بُرديه همةٌ ... تريك الحسام العضب والأسد الوردا
إذا هجته مستعدياً هجتَ ماجداً ... يفضّ مغاليقَ الأمور وما استعدى
كريم السجايا لم يخن لصديقه ... ذماماً ولم ينقض لصاحبه عهدا

* * *

أ (حافظ) إن تبعد فشاعر أمةٍ ... رمتها خطوبُ الدهر مغبرّةً نكدا
وإن يذهب الصوت الذي كان عالياً ... فمجدُ بلادٍ ما استطعنا له ردّا
حفظنا لك الآثار جمّاً رفيفها ... تجفّ الليالي وهي مخضرةٌ تندى
يظل عليها الطيرُ في كل صادحٍ ... يذكر نجداً كلَّ صبٍّ سلا نجدا
فمن عائذٍ بالبرق يسترجع الهوى ... ومن لائذٍ بالريح يستدفع الصدّا
تلقت شعوبُ (الضاد) نعيك خشعاً ... وراحت يهدّ الحزن أعلامها هدّا
لئن بات (وادي النيلِ) بعدك جازعاً ... لقد روعت أنباؤك (الصين) والهندا
وإن يُسِ (لبنانُ) استبدّ به الأسى ... فقد أصبحت (بغداد) والهة جدّا
وما ملكت صبراً (ديارُ أمية) ... ولا حملت (أرض الحجاز) فتى جلدا
ثكالى نظمنَ الدمع فيك مفصلاً ... كعهدك قبل اليوم إذ تنظم العقدا

***

لقد رزئت (أمُّ اللغات) صديقها ... فإن لم تكنه فالأبَ البرَّ والجدا
مشت تتلوى خلف نعشك كلما ... دعا باسمك الداعي أجدّ لها وجدا
فلما بلغتَ القبر خرّت لوجهها ... تضجّ وتشكو من تباريحها الجهدا

حللتَ ديارَ الصامتين فكبروا وجآءوك يزجي الوفد من حولك الوفدا
رأوا شاعراً ماعزّ (كسرى) كعزه ولا مجدُ (ذي القرنين) إذ يرفع السدا
وما الشعر إلا منزل الخلد لامرئ يريد حياة الذكر أو يؤثر الخلدا
أقم غيرَ مصروفِ الهوى عن ديارهم ودع عنك شعباً هازلاً ينكر الجدا
توجعت تشكو منه شيمةَ ظالمٍ يزيدك هجراً كلما زدته ودا
رويداً فقد فارقت دنياك فائزاً وعفواً فليس الحرُّ من يحمل الحقدا

***

أما والمطايا الواخداتِ لقد ونت دموع أطالت خلف أسرابها الوخدا
تساق حراراً من جوى الحزن مثلما تساق وتحدى في المآقي كما تحدى
تروح وتغدو بالرفاق حثيثةً فما للهوى عنها مراحٌ ولا مغدى
قواطعُ للقربى طوالعُ بالأسى جوامع ما يتركن شيباً ولا مردا
وما المرء ذو الأنداد إن غاله الردى كمن لا ترى في العالمين له ندّا
زن الناس إن كنت اللبيب ولا تكن كمن يتوخى الغي يحسبه رشدا
وصف ما يعاني (النيل) من شعرائه ألم ترهم قلوا وإن كثروا عدّا
وإن جانب الإنصاف في الحكم ذو هوىً فكن أنت حرّاً لا تكن للهوى عبدا
وإن نقد الناسُ الرجالَ بمشهدٍ فلا تنطقِ العوراء تحسبها نقدا
أما تستبين الرشدَ أقلامُ فتيةٍ شوارعُ في الأعراض يجعلنها وِردا
تداعت تدير الذمَّ والحمدَ جهدَها فما صدقت ذمّاً ولا أحسنت حمدا

***

(نزيلَ البلى) عطلت في الترب حكمه ... فأصبح لا يسطيع حلاًّ ولا عَقدا

يرى فيك إن ناواك روعة غوله ... إذا ما عدا أو أنت من غوله أعدى

إذا أكل الدهرُ الرجال أكلته ... وإن وَأَدَ الآثار أعجزته وأدا

عليك سلامٌ من أخٍ لك صادقٍ ... يزيدك قرباً كلما زدته بعدا

نصيبك مني في الرثاء فريدُه ... وكنتَ امرءاً في عبقريته فردا

مصر : ... أحمد محرم

مصرع الهزار



جميل صدقي الزهاوي

جفّ روض المنى وشحّ الربيعُ
وسقت مصرعَ الهزار الدموع
صوّح الزهرُ في الربيع وأمضى
صامتاً يومـه الحمامُ السجوع
ولقد راعني رزايا توالت
والرزايا إذا توالت تروع
وهمى الدمعُ للأسى دافقاً من
كل عينٍ كأنها ينبوع

لم يبنْ لي إلا فسادٌ وكونٌ ونتـاجٌ وفرٌ وموتٌ ذريع
ورأيتُ الأيام تأكل من أعـمارنا في الحياة وهي تجوع
ربّ جيلٍ يردى فتوطأ بالأقـدامِ منـه جماجمٌ وضلوع
وكأن الأرض التي هي وارت كلّ هذي الأموات قبرٌ وسيع
وكأن السمآء قبةُ ديرٍ وكأن النجوم فيهـا شموع
وكأني ورآء سـود المنايا حَمَلٌ يتبع الذئاب وديع

***

لا تعوّل على الأزاهر تزكو فهي من بعد ما تضوع تضيع
ما لأفنانِ الدّوح يرجى سلامٌ من رياحٍ تخرُّ منها الجذوع
ليس تُروى أرضٌ بها ظمأ يلذع إلا إذا سقاها النجيع
كلما شاهدتُ المقابر حولي أخذتني مهابةٌ وخشوع
ليس للقادمين فيها بقاء ليس للذاهبين منا رجوع
وكأن الحياة بين الخلايا في جميع الأجساد برقٌ لموع
إنها يَنبوعٌ إذا جفَّ في الشيخ فقد روّى اليافعَ الينبوع
من شقاء الإنسان أن المنايا قاسياتٌ ما إن إليها شفيع

***

يبتغي الموتُ كلَّ يوم صريعاً وعلى الذئب لا يعزّ القطيع
وتريد السماء منا شهيداً أو جريحاً يسيل منه النجيع
نحن في حرب تدرك الفوز فيها أرجلٌ تحتها يئنّ الصريع
إنما الناسُ في الحياة غلابٌ خادعٌ في اللقاء أو مخدوع
إن شرّ السلاح في عصرنا النار فما إن تقيك منها الدروع
ولعل الأيام تأمر بالسلم ولكن هناك من لا يطيع
ما انتظاري لفجر ليلٍ بهيمٍ لم يكن مرّ منه إلا هزيع
بقيت من دنيا الألى فرغوا منها قبورٌ يطول فيها الهجوع
أمكانٌ وليس فيه أمانٌ وزمانٌ وليس فيه ربيع
عل في جانبٍ من الكون أرضاً ليس فيها كراهةٌ وولوع

ما أفادَ الصقرَ المحلقَ في الجوّ ... مُدِلاًّ أن الفضاءَ وسيع

ولقد هوّن الحِمام على النا ... س وقد عضهم شباهُ الشيوع

أيها القلب قد أثار عجابي ... بعد ذاك النزاعِ هذا النزوع

***

يانهارَ الآداب لست على العهـ ... ـد ولا في ضحاك ذاك المتُوع

حملت أمواج الأثير إلينا ... نبأً منه الناسُ في الشرق ريعوا

قد هوى للجبين شاعرُ مصرٍ ... من علوٍّ فمصر ثكلى جزوع

بتّ ليلي لما نعوا حافظًا لي ... وكأني من حيةٍ ملسوع

أنا مُهدٍ إليك حافظ ما قلـ ... ـتُ فهل أنت في ثراك سميع

وإذا لم يرُقك منه بياني ... فاستمع ما تقول مني الدموع

...

أيها الثاوي في حفيرٍ وطيءٍ ... إن مجداً بنيته لرفيع

قد غرستَ القريضَ في أرضِ مصر ... فسمت منه في العراق فروع

وخدمتَ الآداب فيها بصدقٍ ... مثلما يخدمُ الرياضَ الربيع

لا يجاريك في الخلود قريضي ... كلُّ ما فيك قلته سيضيع

لا أساويك في الخطى عند سيري ... إنني ظالعٌ وأنت ضليع

ليس بدعًا إن أبَّنتك القوافي ... فالذي نابها لعمري فجيع

***

قلدت أهلَ الغرب في الشعر ناسٌ ... وإذا الشعرِ أنفه مجدوع

مادروا أن الشعر في كل أرضٍ هو من نفسٍ أهلها منزوع
رب شعرٍ له الملائكُ تعنو وهي لله سُجدٌ ورُكوع

***

إن هذا الذي ألمّ بمصرٍ حدثٌ فاجعٌ وضربٌ وجيع
لم يكن فقدُ شاعر النيل إلا كارثًا من جراه رِيعَ الجميع
ذاد عنها ذيادَ حرٍّ شجاعٍ وهو فيه بنفسه مدفوع
ما جنت أيديه ثمارَ المساعي يوم مُدّت منهم إليها البوع
أيها الرافهون في أرضِ مصرٍ أيكم في النضال عنها القريع
كان يبغي الإصلاح بالشعر منه وسواه يشري به ويبيع
كان يأبى إذ يخضعون وما إن يستوي ذو جرآءة وهَلوع
شاعرٌ وقّادُ القريحة مطبو عٌ وما كلُّ شاعرٍ مطبوع
أدبٌ رائعٌ وخُلقٌ رضيٌّ وحجى راجحٌ وذهنٌ سريع
إنما كلها العروبة ثكلى وبمصرٍ و بالعراقِ صُدوع

***

يادموعي كوني على النظم عوني إنما حافظٌ هو الموضوع
أودعوه قبراً من الأرض ضنكاً مابه شرفةٌ ولا توسيع
شيعوه إلى التراب فأشجى كلّ ذي قلبٍ ذلك التشييع
شيعوه إلى مدينة موتى دونهم في اللقاء سدٌّ منيع
شيعته أصحابه وذووه وجموعٌ ورآءهن جموع

وكأن الضريح ربوةُ شعرٍ وكأن الأشياع طيرٌ وُقوع

***

كلُّ ما قد نثرتَه فجميلٌ كلُّ ما قد نظمته فبديع

كلفوك الزلفى فلم تستطعها ليتهم كلفوك ما تستطيع

طلبوا أن تطيعهم طاعةَ عمـ ياء والحرُّ شامسٌ لا يطيع

***

طُف بديوان حافظ واجن زهراً فهو لا نافضٌ ولا ممنوع [1]

لهف نفسي على وضاءة نجمٍ ماله من بعد الأفول طلوع

***

أقفرت منك بعد أن كنت تشدو في ذراها منازلٌ وربوع

قد أضاعوك غير أن الذي أظ هرت من عبقريةٍ لا يضيع

***

حان أن يدعوني المنونُ إليه وسأعصي المنونَ لو أستطيع

ولعل الحِمام ليس كما يز عم ناسٌ مبالغون يروع

اخضعي يا نفسُ فما لك فيما أبرمته الأقدارُ إلا الخضوع

ستحيي الشمسُ المنيرة غيري وسيرفضُّ شمليَ المجموع

بغداد جميل صدقي الزهاوي

---

(١) نافض : متغير اللون .

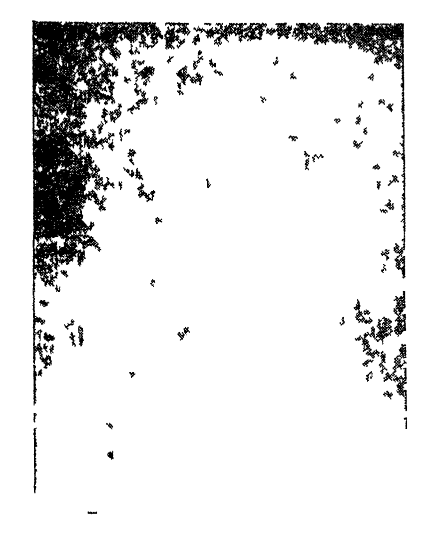
التعريف بحافظ

نهايةُ الفخر لي في هذه الكلمِ
تعريفُ حافظ إبراهيم من أَمَمِ

أقول من أَممٍ إذ ليس في بلدٍ
بالشرق من يجهل اسم الشاعر العلم

ولم يطالعْ ويستظهرْ روائعه
ما بين منتثرٍ منها ومنتظم

فهل أزيد الأُلى لم يعرفوه سوى
أداء رسمٍ لدى التعريف ملتزم



خليل مطران

هذا فتى الدهر زان النبلُ طلعته … وإن يكن بجمالٍ غيرَ متسم

إذا تجلى لك الإلهامُ مزدهراً … في مقلتيه فلا تنظر إلى الأَدَم

وإن تبينت منه هيكلاً تعباً … بوقره فهو في آنٍ (خفيفُ دم)

دع الهَيُولى وحيِّ الروح في رجلٍ … من أشرف الخلق بالأخلاق والشيم

تحار فيه فما تدري تفرده … أَبالقوافي وإن راعت أم الهمم

لاحت مناقبه الغراء ساطعةً … للمبصرين سطوع الشهب في الظلم

أجللتموه وأولاكم تجلته … مجاهراً غير ضنانٍ ولا بَرِم

ولم يزل خيرَ من صان الجوارَ ومن ... رعى الخليقَ بأن يُرعى من الحرَم
برغمه أن عينَ الشرق نائمةٌ ... عن المعالي وعينَ الغرب لم تنم
إن شام من جانبٍ فينا سنا أملٍ ... حيى الرجاءَ بدمعٍ غيرِ مكتتم
وإن دعته إلى ذوْدٍ حميته ... راع العداة بمثل الزأر في الأجم

***

ما شعرُ حافظ إلا صورة مثلت ... للنيل فاض بألوانٍ من النعم
وليس إلا صدى الأطيار مالئةً ... جناتِ مصرَ بما يُشجي من النغم
شعرٌ كأن شعورَ القوم قدّره ... فلاح مظنونه فيه كمرتسم
تراه أصدقَ مرآةٍ لأمته ... إن شفّ عن أملٍ أو شفّ عن ألم
يلقيه لحنًا بلا لحنٍ فيطربها ... ويبدعُ الوهم لا يلتاث بالوهم
لو كنتَ شاهدَه أيام ينشده ... وقد علا منبراً في المشهد العمم
علمتَ ما نشوةُ الراح العتيق فلم ... تكد تفرّق بين الحلم واللمم

***

فإن ترسّلَ جادته قريحته ... بأحسن القول من جزلٍ ومنسجم
وطاوعته المعاني فهي في يده ... ملكٌ يصرّفه تصريفَ محتكم
نثرٌ فنونُ الحلى فيه موزّعةٌ ... بين المشاهدِ والآراءِ والحكم
زاهٍ بأفصحِ تعبيرٍ وأبلغه ... سهلُ الأداء سليمُ اللفظ من سقم

***

لكن حافظ إبراهيم أنذركم ... له جوانبه الأُخرى من العظم

عوَّذت بالله من غوثي العيون أخاً ... يعدو الأناقة أحياناً إلى النهم

عشنا رفيقي صباً في مصر واشتهرت ... دهراً وقائعنا في كل مؤتدم

فالعقدُ من ثلث قرنٍ غير منتثرٍ ... والسمطُ شبهُ سماطٍ غير منفصم

وقد رأى من بلائي في ولائهما ... بلاءَ حرٍّ جميلِ الظن بالكرم

إلى البيوتات في الأطراف مختلفٍ ... وللمشاهد في الحارات مقتحم

يغشى مآدبها استوفت أطايبها ... واستكملت أدبَ السادات والخدم

فاحنقته مساراتي ولا جرمٌ ... وليس في حنق المونور من جرم

فجاءكم وعلى ما فيه من مقةٍ ... يبدي نواجذَ رابي الضغن منتقم

فأطعموه وأوفوا دينَ صاحبكم ... ولا تريحوه في يومٍ من التخم

وأرخصوا قيمَ الطهي النفيس له ... فرب غارم شيءٍ جدّ مغتنم

أدنى أحاديثه لو روجت رجحت ... أغلى النفائس بالأقدار والقيم

وكم له نكتة تسبي العقول إذا ... جرى بها مِرقمٌ أو رددت بفم

***

يا أهل لبنان إن الضيف عندكم ... هديةُ الله فيما قيل من قدم

أعزز به وهو من إهداء مصر إلى ... أبرّ جيرتها بالعهد والذمم

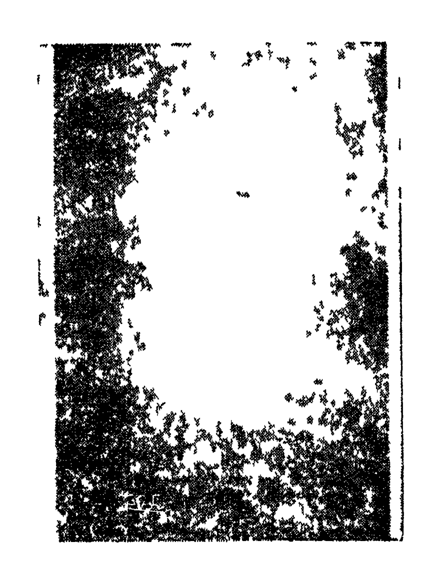
ما الألمعيُّ الذي فيكم يمثلها ... إلا ممثل مجدِ النيلِ والهرم

أليس فيما نراه من مآثرها ... أسنى مفاخرها ما خُطّ بالقلم

دامت بغابرها دامت بحاضرها ... تعز موفورة الإجلال في الأمم

بيروت : ... خليل مطران

تحية حافظ



شفيق جبري

أنشدتَ شعرك في أفيآء لبنان
فرحتُ أغمز وسواسي وشيطاني
بالأمس شوقي على أفناننا غرِدٌ
واليوم حافظ ميادٌ بأفنان
وبنتُ مروان توحي من أباطحها
وشيَ القرائح عاشت بنت مروان
جبارةٌ سخرت من كل كارثةٍ
أعيت وما فتئت جبارةَ الشان

لله ظلٌّ على أكنافها لجبٌ   أعوذ بالظل من قهرٍ وطغيان

***

يا طاويَ اليمّ في دجنآء زاحفةٍ   على صفيح من الأمواج مِرْنان
يهفو به الشوقُ والأجفانُ تكتمه   إلى أراهط من فهرٍ وغسان
خلى ضفافَ الحمى والنيلِ وانقلبت   به المطيُّ إلى أهل وجيران
من عهد عدنان ما أبلى عروبتهم   وطءُ الهزاهز في أبنآء عدنان

سر في دمشق ونادم إن نزلتَ بها عصابةً نادمتهم روح حسان (١)

هذا الرحيقُ وفي أظلاله بردى يجري بروضٍ على الفيحاء ريّان

لكن جفنةَ قد أودت مواكبهم فما نعجّ بأربـاعٍ وأوطان

خلت دمشقُ من التيجان وانبسطت أميةٌ في الحمى من غير تيجان

وقفت أُنشد في الأفناء أرسمهم لا الملك ملكي ولا السلطان سلطاني

لم يبقَ من عبدشمسٍ غيرُ خاطرةٍ أُروي مغارسها من ماء أجفاني

أشقى وأنعم في أعطاف هبتها فيها الردى وبها رَوحي وريحاني

تكاد تومض في جنبي خيالتهم ما كان أبعـدَهم عني وأدناني

يبلى الجديدان ، ما تبلى مناقبهم في النيربين إذا كرَّ الجديدان

* * *

تحيةً يا ضفـافَ النيل طيبةً تجري بها الريح في شيحٍ وحوذان

الشامُ من ودك الريّانِ في صلةٍ محبوكةِ الوشي في قربٍ وإمعان

من عهد عَمرو فما رثت ولا بليت قد أُتقنتها الليالي أيَّ إتقان

إذا بكت جنبات النيل من ألمٍ بكت دمشقُ بدمعٍ منه هتان

أواصرٌ ببيانِ العربِ محكمةٌ النيلُ والشام في الآلام صِنوان

هما النجيان في تصوير جرحهما تصويرُ جرحهما همسٌ بآذان

أرى رجالاً على الأهرام دَيدنهم حلُّ الأواصر من طيٍّ وشيبان

---

(١) إشارة إلى أبيات حسان :

لله درّ عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

كأنما مضرُ الحمراءِ ما زحفت إلى المقطم في شيبٍ وشبان
ولا استطال لها والدهر يعهده ظلٌّ على النيل أو رسم بحلوان
تنكبوا عن صميم العرب واعتصموا بجبلِ رمسيسَ أحداناً بأحدان
تلك الفصاحاتُ لم تذبُل منابتها تنمو بعودٍ على الأهرام فينان
أُعيذها خطراتٍ ملؤها مضضٌ أن تهدم الشرقَ أركاناً بأركان
آمنتُ باللغة المِمراعِ مَغرِسها فما يزلزل ريبُ الدهر إيماني
في ذمة الله تبيانٌ يؤيده كرٌّ الليالي بتنزيلٍ وقرآن
تضمنا لغةٌ لم يمحُ رونقها زحفُ السنينَ بآلامٍ وأشجان
إذا التففنا غصوناً في شدا ئدنا فما تُطيق الليالي هصرَ أغصان
لولا قوافٍ بوادي النيل ننشدها في غوطة الشام أو في أرْز لبنان
لقطعت بيننا الأرحام واضطربت بنا الوساوسُ في وصلٍ وهجران
لكنَّ مصر وإن هشت وإن عبست ركنُ العروبةِ للقاصي وللداني
يأوي إليها من الفيحاءِ متهمٌ فيستظل بظل العاطفِ الحاني
فما تجفّ بضيفانٍ بشاشتها ولا يحيط الأذى فيها بضيفان
أملت على الشرق من آيات نهضتها ما أنقذ الشرقَ من ذلٍّ وإذعان
أغفى زماناً ولم تنزع به هممٌ حتى تنبه فيه كلُّ وسنان
في كل ناحيةٍ ملكٌ يمزقه باغٍ من الإنس أو طاغٍ من الجان
فلا الربوعُ على الأردنّ هادئةٌ ولا هدوءَ على أرباع بغدان

***

يا حافظَ الشعر في ميثاءَ مخصبةٍ — من البيان سقاها ماءُ سحبان
هاجت دموعُك في عيني مدامعها — لما بكيتَ وهاج الحزنُ أحزاني
ياوقفةً لك في الستين تسألها — «أسوفت أم أعدت حر أكفاني»
فاضت بها عاطفات القلب فامتلأت — من رُوحٍ واقفها روحي وجثماني
هوّن عليك فما زالت روائعكم — من الشباب على شرخٍ وريعان
هذي دمشق فغرّد في حدائقها — أغرودة الدهر تشجي كل أسوان
واندب أميةَ في شعرٍ تسيل به — بطاحُ جلقَ في ظعنٍ وركبان
الشعرُ منبهةُ الأقوام إن غفلوا — عن نهجهم هزّ منهم كلَّ سهوان
تبني وتهدم في الأحياء دولته — قواعدَ الملك جلّ الهادم الباني
كم ثورةٍ بعثت نيرانَ جاحمه — في أمةٍ سهلةِ الأقياد مذعان
يطوي القريض إذا هبت عواصفه — ما ليس يُطوى بأسيافٍ ومُرّان
والشعرُ وحيٌ فإن أعياك جامحه — فما يقاد بألحانٍ وأوزان
يموجُ بالنفس إن هاجت هوائجه — كما يموج نسيمُ الصبح بالبان
إذا القوافي خلت من سحر عاطفةٍ — فما تميل بأرواحٍ وأبدان

دمشق : — شفيق جبري

رثاء حافظ

ستونَ عاماً على كرهٍ نعانيها ... هدأتَ عنها ولم تهدأ لياليها
مازلتَ منها على بأسٍ تغالبه ... حتى طواك على الأشجان طاويها
فاطرح شدائدها عن كاهل هدمت ... من جانبيه ولم تهدم عواديها
ياوقفةً لك في أفيائها انحدرت ... عنك العواطف مُضنيها ومشجيها (١)
ناجيتَ فيها صِباً ولّت نواعمه ... بُدّلت شيخوخةً منه تناجيها
فتوةٌ ملئت بؤساً نضارتها ... وكبرةٌ أفعمت سقماً حواشيها
أهبت بالموت من سقمٍ ومن شجنٍ ... كأنما الموتُ آمالٌ تناغيها
فنم هنيئاً فلا جسمٌ تراوحه ... تلك الشجون ولا نفسٌ تغاديها

***

غنت قوافيك بالأحزان مائجةً ... تكاد تنطق عن بؤسٍ أغانيها
على قريضك من أناتها أثرٌ ... أراه يفصح عن أقصى مراميها
مافي أغاريدها إن ناح نائحها ... إلا تهاويلُ من شكوى تزجيها
تجهمتك الليالي في تصرّفها ... ففاض شعرك في الآفاق تأويها
فما تمليتَ في يومٍ مَضاحكها ... ولا تمهلتَ إلا في مَباكيها

---

(١) إشارة إلى قوله رحمه الله :

وقد وقفت على الستين أسألها ... أسوّفت أم أعدت حر أكفاني

أمعنتَ في طلب الدنيا فما ابتسمت ... لك الحياةُ ولا هشت أمانيها
سعت بك القدم المشؤوم طالعها ... فلم تؤدِّ إلى نجحٍ مساعيها
على نعالك من تبريحها دُفعٌ ... من قانئِ الدم لم تنشف جواريها
حتى وددتَ لوَ ان النفس عاد بها ... من قبل أن تسأمَ الأشجان باريها
أو كان في مسبح الحيتان مطرحها ... أو في مسارحَ من هلكٍ مآويها
المانويةُ لم تعتق مذاهبها ... على قوافيك رسمٌ من أماليها
لله شعرك كم هاجت هواجسه ... بضيقةٍ في حواشي النفس تضنيها
قذفتَ منه على السودان طائفةً ... صوّرت بلواك تصويراً يجليها
لو لحنوا البؤس في شعرٍ نردده ... لكان بؤسك ألحاناً نغنيها
ودعت دنياك توديعاً ترقرقه ... شكوى يذوب على الآلام شاكيها
فما لعينيك في لألائها أنس ... وإنما الأنس في أدجى دياجيها
كأنما قبرك المأنوسُ متسعٌ ... لعيشك المرّ من جُلى تقاسيها
العبقريةُ ما زالت معذبةً ... في الشرق ما جمدت يوماً مآقيها

***

لكن نفسك لم تَصرع جوانبها ... ظلماءُ من خيبةِ الآمال تبريها
هزأت بالعمر لم تعبأ بغمته ... وعشتها عيشةً طلقاً نواحيها
داويت بالكأس آلام الحياة وهل ... بغير إشراقها قلبٌ يداويها
لقيتها ضرّةَ الأحزان زاكيةً ... غراسها مستطاباتٍ مجانيها
الكأس والطاس والصهباء ماثلة ... في شعرك الطلق تزهي في مزاهيها

شتت شمل الليالي في تناولها ... على رخيمٍ من الأنغام تحييها

لئن نظرت إلى الدنيا وبهجتها ... بمقلةٍ ما رأت إلا مساويها

لقد خلعت على الأحزان مشرقةً ... من الحبور طوت من شجو شاجيها

وما الحياة إذا اسودّت جوانبها ... وما الليالي إذا لم يصفُ صافيها

خيرٌ من العمر ممدوداً سرادقه ... على الأسى لحظةٌ تحلو ثوانيها

لله مجلسك المشوكُ كم طربت ... فيه القلوبُ وكم بشت بواكيها

فقد تكون حزين البال متعبه ... وقد نراك ضحوك العين ساجيها

تلك الأحاديث قد ذقنا حلاوتها ... في كل نادرةٍ سحرٌ يحليها

تزداد حسناً إذا ازدادت روايتها ... رقيقة سكبت من روح راويها

* * *

لكن روحك إن جدّت وإن هزلت ... لم تنسَ مصرَ ولم تهمل مغانيها

غنت بوادي الحمى في فجر نهضته ... وخاضت النهضةَ المحمرّ واديها

قد كنت بلبلها الغرّيدَ هيجه ... غولٌ على مصر محتلٌ روابيها

أحببت مصر وسارت في محبتها ... قصائدٌ من عُباب النيل ترويها

يجول فيها هوى الفسطاط مزدحماً ... على فؤادٍ عناه خطبُ أهليها

أيقظتَ منها غفاةً في مضاجعهم ... والشعرُ يوقظ في الأقوام غافيها

كم أمةٍ رسفت في القيد أطلقها ... من القيود فلم تُملك نواصيها

أمضّك الجرحُ في أحشاء عترتها ... فكنتَ في شعرك الريّان آسيها

أردتها حرةً لا النير يثقلها ... إذا تهادت ولا الأصفاد توهيها

فما تخوّفت إلا لعبَ لاعبها ... ولا تخشيت إلا لهوَ لاهيها
فكم بكيت على مصر وحاضرها ... وكم حنوت على مصرٍ وباقيها
جادت لها عينك الريّا محاجرها ... باللؤلؤ الرطب من حالٍ تعانيها
إذا سكتّ فلم تأمن هوادتها ... وإن نطقت فلا تأمن منافيها
آسيتها يوم دنشواي وروعته ... يا يوم دنشواي ما أبقى الأذى فيها
جلدٌ وشنقٌ وفي الأمرين مهزلةٌ ... تلك الجنايات باسم العدل جانيها
كشفت عنها غطاءً كان يسترها ... حتى تمثل للعينين قاسيها
ضحوا بشعبٍ بديلاً من قتيلهم ... تلك الجراحات لم تضمد دواميها
ويح الحضارة كم راقت ظواهرها ... هذي العيونَ وكم ساءت خوافيها
في طيها الموت خفاقٌ سبائبه ... مكشوفة عن ضحاياه محاييها
ذئبٌ تلفف في جلد الشياه وهل ... يخفي الذئابَ طلاءٌ في مغاطيها
خيرٌ من العلم جهلٌ لا يشنعه ... عسف الشعوب وهزء من أضاحيها

***

ما كان شعرك إلا وحيَ عاطفةٍ ... ظلّ الجزيرة والأهرام موحيها
عليه من مضرَ الحمراء منزعةٌ ... محبوكة الوشي مرصوصٌ مبانيها
لئن جفت مصر أرض الشام واطرحت ... هوى العروبة كم أنبت جافيها
صافحت جلقَ لم تنقض مواثقها ... على البعاد ولم تنكث أواخيها
فإن بكتك على جرحٍ تعالجه ... فقد رأتك على الأهرام تبكيها

دمشق :

شفيق جبري

شاعر تونس يرثي شاعر النيل

فُجع القريضُ ورُوِّعت أوزانه … لما غـدا تحت الثرى حسانه
وتزلزل العرشُ الفخيم بملكه … وتقوّضت لمصـابه أركانه
وتساقطت شرُفات ذيّالك الحمى … واندكَّ من فرط الأسى بنيانه
وتعطلت آيُ البـلاغة دفعةً … لما تعطل في القريض لسـانه
فنعى النعاة من الكنانة حافظاً … وطوته في طياتهـا أكفانه
لله من هذا المصابِ فإنه … خطبٌ تعاظم في البرية شانه
مات الذي ملكَ المشاعرَ شعرُه … وسبى عقول العالمين بيـانه
مات الذي ساس القوافي أزمناً … سَوْس الكريم فعمها إحسانه
مات الأديبُ الشاعرُ الفذُّ الذي … بَرعت فرائدُه وعزّ جمـانه
مات ابنُ مصرَ وشاعرُ النيل المجيـ … ـدُ وغاب في ظلم الثرى جسمانه
من للمقال يُجيد نظم عقوده … نظماً يبين ذوي الحجى إتقانه؟
مَن للقصائد بعد حافظ مَن لها؟ … من للنظام إذا عصـا ميزانه
مَن للملاجئ بعد شاعرها الذي … قد كان يُتبِعُ بالنوال لسانه؟
يامصرُ خطبك جلّ في هذا المصا … ب لحافظٌ ولى ومات زمانه
إن العظيمَ يعزّ يومَ فراقه … ومن البلية والقضا فقدانه
وإذا الشموسُ تقلصت أنوارُها … فالنجم في الأبصار ما لمعانه

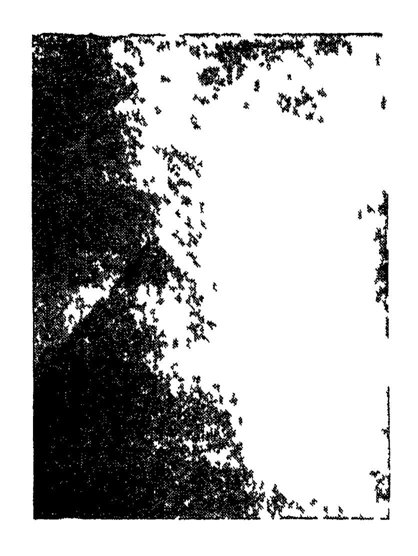
لا خير في هذي الحياة إذا سطا   فيها الزمانُ ومسها حدثانه
يا مصرُ إنك قد أُصبت بنكبة   ريعَ العلا فيها وماد مكانها
وإذا بكيتِ لها بدمعٍ هاتنٍ   فالدمع منا قد جرت خلجانه
نقل البريدُ لنا مصيبة حافظٍ   فأثار في الشعب الأسى إعلانه
فتدفقت عبراته وتتابعت   أناته وتجـدّدت أحزانه
وغدت وجوهُ جميعهم مصفرةً   أسفًا على من لا يُفلُّ سنانه
أسفًا على العلَم الشهير ومعدِن الـ   فخرِ الحصين؛ تصدّعت أركانه

* * *

يا أشعرَ الشعرآء أبكيت النهى   وبكى عليك من القريض جمانه
كيف التصبرُ والذي خلفته   باقٍ يعزّ على الورى نسيانه ؟
كيف التعزي والمآثرُ جمّةٌ ؟   يا من تمكن في القلوب مكانه
اللهُ يعلم حزننا والله جلّ   ينيلنا صبراً ، تقدس شانه
ماذا عسى أن يبلغَ الشعرآء من   نظم القريض وقد قضى سلطانه
بل ما عسى أن يصنعوا عند الرثا   إن قيل نكبةُ حافظ عنوانه
يا قبرُ كن برًّا بضيفك إنه   وافاك يملأُ قلبه إيمانه
ترك الدنا للراغبين وصالها   وصباه فضلُ الله ثم جنانه
يا قبرُ إنك قد أخذتَ عزيزنا   أكرم دفينك إننا إخوانه
وبفقده عظمَ الأسى وبموته   فُجع القريضُ وروّعت أوزانه

تونس :   الطاهر القصار

دمعة شاعر على شاعر



عادل الغضبان

شقوا الجيوب ونكسوا الأعلاما
فقدت يا براهيمَ مصرُ إماما

أودى إمامُ الشعر من محرابه
فالناسُ حيرى والصحاب يتامى

وطوى ملاك الموت صفحة شاعر
يسبي القلوب ويسحر الأحلاما

عجباً لمن سكن السمآء خياله
أن يودعوه جنادلاً ورَغاما

فوجئتُ بالنعي الأليم نخلته ... حلماً وقمتُ أكذب الأحلاما

فإذا به بعد السؤآل حقيقةٌ ... وإذا بماضي العمر كان مناما

ورجعت ولهاناً يصارع مهجتي ... وجدٌ تسعّر في الفؤآد ضِراما

وبكيت حتى استل من جفني الأسى ... دمعاً أراه على سواه حراما

وتسآءلت نفسي أيقضي شاعرٌ ... عرفَ الأنامُ بشعره الإلهاما

أيموت من أدّى الرسالة ناشراً ... سحرَ البيان قلائداً ونظاما

عزّت فؤآدي موتة الرسل الأُلى ... ملأُوا الحواضرَ حكمةً وسلاما

كُتب المماتُ على العباد وإنما ... بعضُ الخطوب يقلقلُ الأعلاما

هل مثلُ هذا الرزء رزءٌ فادحٌ ... شملَ البلادَ وأفجع الأقواما

جزع الشآمُ وأسخنت نفحاته ... ورنا يشاركُ في الأسى الأهراما

وتأوّهت أرض الحجاز وشاطرت ... لُبنان فيه ودجلة الآلاما

دولٌ مفرّقةٌ أهاب بشملها ... جرحٌ ثخينٌ عزّ أن يلتاما

في كلّ قطرٍ للبلاغة مأتمٌ ... يبكون فيه يراعةً وحساما

يا حافظ الودّ الأمين بعهده ... وأبرّ خلٍّ موثقاً وذماما

وأعفّهم نفساً وأنداهم يداً ... وأقلهم يومَ اليسار حطاما

سيظلّ ذكرك في البلاد وأهلها ... مثلَ الوفاء وإن غدوتَ عظاما

أعيى المصابُ قريحتي وتنكرت ... سبلُ الرثاء وما وجدتُ كلاما

في ذمة الرحمن يا خيرَ الألى ... نصروا القريض وجردوا الأقلاما

إن كان جسمك في التراب مغيباً ... فجميلُ ذكرك في القلوب أقاما

مصر : عادل الغضبان

على قبر حافظ

أبكاءٌ وحافظٌ في مكان ؟
تلك إحدى طوارق الحدثان
كنتَ أنساً وكيف أمسيتَ ياحا
فظُ تُدمي لذكرك العينان
كنت تتلو الرثاء معنى فمعنى
كيف أمسيت بعضَ تلك المعاني
كنت أعلى الجموع صوتاً فهلا
نطقَ الآن صوت ذاك البيان



عباس محمود العقاد

وعزيزٌ على بلادك أن تذ   هب يوم انبريت للميدان
يوم أطلقت من إسارك حراً   وأبيت الإسارَ للأوطان
يوم أرسلتها على ظالمي الأو   طان طعانةً كحدّ السنان
ألهم الله مصرَ فيك عزاء   لا بل العرب في نصير اللسان
كاننا صائرٌ كما صرتَ يوماً   والذي قد صنعت ليس بفان

مصر :   عباس محمود العقاد

حضرموت تبكي شاعر النيل

كيف يسلو الفؤادُ من أشجانِه ... وجوى الخطب ضاربٌ بجرانه
عقلَ الحزنُ مبسمَ النثر والنظـ ... ـم وأودى بقلبه وَجنانه
ومشى الكربُ في خفاءٍ وهمسٍ ... ينخرُ العظمَ والحشا بسنانه
التقت حلقتا البطانِ وناح الشـ ... ـعرُ وابيضّ فودُه بأوانه
يا لهولِ المصاب مات إمام الشـ ... ـعرِ حامي لوائه في زمانه
فبكته الآدابُ في الشرق طرّاً ... من فلسطينه إلى يابانه
قم بنا نحطم اليراعَ حداداً ... ونقدّ القريضَ من أوزانه
فالذي كان (حافظاً) لعلاه ... قد قضى نحبه فمن لصيانه
ويحَ عرشِ القريضِ من يعتلي العر ... شَ أميراً يذبّ عن صَولجانه
ويح للشعر من يحوك معانيـ ... ـه ويكسيه من حُلى أرجوانه
ويح للشعر من يدين قوافيـ ... ـه كدين الأسير طوع عنانه
ويح للحكمة الثمينةِ من ينـ ... ـظم مَرجان شعرها في جمانه
كان والله حارساً لغة الضا ... د وحامي البيان في قرآنه
كان موسوعةً من الأدب الرا ... قي لطيفاً في جدّه وليانه
كان والله نعم من عرّب القو ... ل ونعم المجيد في ترجمانه
كان والله كاسمه (حافظ) الشعـ ... ـر من الإنهيار من أركانه

لا يباريه في المعاني مبارٍ لا يوازيه شاعرٌ في رهانه
يستطيب اللسانُ والأُذنُ ترتيـ ـلَ قوافيه أو سماعَ قِيانه
نثره الدرُّ أخجل ابنَ إياد ومحا ذكرَ ربه سَحبانه
عبقريُّ الخيال يسمو على الطيـ ـف (رفائيلُ) دونه ببنانه
لبقٌ بالكلامِ والشعرِ يجريـ ـه كجري العتاقِ في ميدانه

***

رحم الله (حافظًا) شاعرَ النيـ ـل وعزَّ القريضِ في سلطانه
قد بكاه البيانُ والشعرُ والحكـ ـمة مر البكاءَ يا لبيانه!!
لم يخلف سوى نظامٍ من الشعـ ـرِ بديعٍ يحتلّ جيدَ حسانه
لم يخلف سوى القلائدِ إرثًا وتراثُ الأديبِ من عرفانه
يا له من وراثةٍ كلما طا ل به عهده مضى إلى عنفوانه
لم يمت من له (ليالي سطيحٍ) وله (البوسآءُ) من برهانه
لم يمت من له هنا وهناك الـ آي عن فضله وعن إحسانه
لو تسير الموتى لموتِ جليلٍ لمشى (ابنُ الحسين) في أكفانه

***

شاعرَ النيل ما لشعرك مثلٌ هزَّ منا الشعورَ في أرسانه
شاعرُ النيل إن تغنى جرى النيـ ـلُ على شعره وفي خلجانه
هو خِدرُ البيانِ للحق ظرفٌ مسرحٌ للخيال في ألوانه
هو سحرٌ محللٌ أين هارو تُ بشيطانه المريدِ وجانه؟

مثلٌ سائرٌ وفي طيه الحكـ ـمةُ يبقى على ممرِّ زمانه
لستُ أدري وقد رفعت منارَ الـ ـشعر فوقَ السرير من إيوانه
يا ترى هل يفيك حقك أم يرتدُّ عَيًّا بقلبه ولسانه

* * *

يا حُماةَ الأشعار هل من شعورٍ خلدوا فضله على إخوانه
وأقيموا له المآتم دوماً واندبوا الشعرَ في نسيج بطانه
واقدروا الفضل قدره فأولوالفضـ ـل أحقُّ الورى بإكبار شانه
وعزاءٌ مصرُ الفتـاة عزاءٌ لم يمت من نراه في ديوانه
كلنا في المصاب يا أمةَ النيـ ـل سوآء نخوض في أحزانه
فضعوا وردتين عنا على القبـ ـر شعارَ الولاء من خلانه
قد قرأنا السبعَ المثاني عليه ووهبنا إليه من فرقانه
وبنو حضرموتَ تأخذ في الحز ن نصيباً أجلَّ من أخدانه
درست شعرَه دراسةَ حبٍّ فهو أستاذُها بكل معانه
حزنت حزنها على والديها وأنينُ الحزين من تحنانه
نظمت دمعها سماطاً من الشعـ ـر وشعرُ الموتور من أشجانه
ثم غنت به على وترِ الحز ن فسال الأنين من عيدانه

حضرموت : عبد الله بن أحمد العلوي

غروب نجم البيان


علي محمود طه

املأي الأرض من حداد وغيهب
مال نجمُ البيانِ عنكِ وغرَّبْ
وخبا من مصابح الفكر نورٌ
كان أمضى من الشهاب وأثقب
وطوى الموت هالةً كان يُنمى
كلُّ أفقٍ إلى سناها ويُنسب
يا سماءَ النبوغِ ما كلَّ يومٍ
من بني الشعر تظفرين بكوكب

ذهب الشاعرُ الذي ردَّد الشر ق صدى شعره الجميل المحبب
ومضي الناثرُ الذي صوّر النفـ س وأُبدى سرَّ الضمير المحجب
الأديبُ العريقُ في لغةِ الضا د وقامو سها الصحيح المرتب
لم يكن شاعرَ القديم ولا كا ن لآداب عصره يتعصب
كان يُعنى بكلِّ فذٍّ من القو ل ويزهى بكل حسنٍ ويعجب
شاعر الحبِّ والجمال وربّ المـ نطقِ الحق واليراع المؤدَّب
شعره من ينابع السحر ينسا ب وفي عالَم الحقيقةِ ينصبّ

عاطفيّ القصيد يعبث بالألـ ... باب أسلوبه الرشيقُ ويلعب
وخيال يسمو إلى ما وراء الـ ... ـكون من عالم اليقين ويذهب
ومعانٍ أرقُّ من نسمة الفجـ ... ـرِ ولفظٌ من سلسل الخمر أعذب
وبيانٌ يسيل في كل نفسٍ ... فعله من غرائب السحر أغرب
وقوافٍ كأنهـا نغماتٌ ... هاجها الشجوُ في يراعٍ مثقب
وكأن الأوزانَ رجعُ مثانٍ ... ترقص الروحُ وفقهنّ وتطرب

***

بؤساءَ الحياةِ من لكمُ اليو ... مَ على الحادثات والعيش أخطب
ضاقتِ الأرضُ بالحنان وفاضت ... بالأذى أبحراً تضجّ وتصخب
فابحثوا في شعابها عن مقيلٍ ... وانشدوا من منافذ النجم مهرب
قد فقدتم نصيرَكم وسُلبتم ... عضداً شدّ أن يغال ويسلب
عقل الموتُ مقولاً منه عضباً ... وطوى مهجةً وأطبق هيدب
سكن اليومَ عن شجاكم فؤادٌ ... ذاب من رحمةٍ لكم وتصبب
وغفت أعينٌ بكتكم بدمعٍ ... لم تدع منه ما يراق ويسكب
الرفيقُ الحاني على كلّ قلبٍ ... أنشب البؤس فيهِ ناباً ومخلب
والخفيفُ الخطى إلى كل نفسٍ ... مال عنها نصيرها وتنكب
فاذكروه على الليالي إذا ما ... زحم الدهر ركنكم فتخرب

***

من لصرعي الهموم بعدك يا حا ... فظُ مَن للحزين من للمعذب

عجبٌ صبرُها على خطبك الدا ... وي وصبرُ البأساء من ذاك أعجب
كنتَ برّاً بها وأحنى عليها ... من فؤاد الأب الشفوق وأحدب
قم وشاهد مأتمَ الشرق وانظر ... كيف يبكي النبوغُ فيك وينْدب
قسماً لو يرد (هيجو) إلى العيـ ... ـش لألقى لك الزمامَ وقرَّب
ومشى في يمينه غار باريـ ... ـسَ إلى رأسك الكريم وعصّب
وتمنى الذي كتبت عن البؤ ... سِ وردَّ الأصيلَ دون المعرب (١)

***

فجعت نهضةُ البلادِ ببانٍ ... شدَّ من ركنها وشاد وطنب
وحباها من روحه وقواه ... ما أفاد البلادَ عزّاً وأكسب
هزَّ أشبالها الكماةَ وأحيى ... أملاً في صدورهم يتوثب
لو شهدتم غداةَ ثورتها الكبـ ... ـرى لجاج النفوس وهي تلهب
لرأيتم في ثورة النفس منه ... محنقاً من قساور الغيل مغضب
لم يزل منه في المسامع صوتٌ ... تتوقى الظبى صداه وترهب
نافذٌ في الصميم من باطل القو ... مِ كما ينفذ السنانُ المذرَّب

***

حافظَ الودّ والذمام سلاماً ... لم يعدْ بعدُ من يودُّ ويصحب
كنت نعمَ الصديق في كل آنٍ ... حين يرجى الصديق أو حين يطلب
لم تغيرك من زمانك دنيا ... وحياةٌ بأهلها تتقلب

(١) إشارة إلى كتاب البؤساء الذي عربه الفقيد عن فيكتور هيجو

خُلقٌ رُضته على شِرعةِ الصد ... ق وإن خانك الرجاء وكذب
وإباءٌ حميته من صغارٍ ... وبريقٍ من المواعد خُلب
وفؤادٌ لغير عاطفةِ الوجـ ... دان لا يدني ولا يتقرب
وضميرٌ لا يبلغ المالُ منه ... وبلوغُ النجوم من ذاك أقرب
ولسانٌ حفظته عن سؤالٍ ... لا يبين الكلامَ أو يتذبذب
يلفظ الروح صادياً وإذا لم ... يصفُ للماء موردٌ ليس يشرب
صفحاتٌ نقيةٌ بمداد الـ ... حق في مجتلى العظائم تكتب

***

خانني فيك منطقي وعصاني ... قلمٌ طالما أفاض وأسهب
آب بالشعر من مصابك يبكي ... رزءه فيك والرجاء المخيب
أنت من أمةٍ بهم أنزل اللـ ... ـه هداه على الشعوب فثوب
لم يزل منكمو على الأرض ظلٌ ... وشعاعٌ هادٍ وغيثٌ مصوّب
ويجوب الحياة في كل آنٍ ... هاتفٌ منكمو وطيفٌ تأوب
حضرٌ في القلوب أنتم وإن كنـ ... ـتم على ملتقى النواظر غيب

مصر : علي محمود طه



حفلة تكريم حافظ في دار المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٩

تحية شاعر النيل



فارس الخوري

ليالي التصابي قد جفاني حبورُها
ولِمّتي السوداءُ أسفرَ نورُها

ومن لي بإنكار الحقيقةِ بعدما
تجلى على وجهي و َفودي نذيرها

فأجنحةُ البازي تهلب ريشها
وساقية الآمال جفّ غديرها

تذكرتُ أيامَ السرور التي مضت
فياليت شعري هل يعود سرورها

وعهد ابنةِ العنقود يوم سقيتها ... وقد شغفت قلبي فتاةٌ تديرها

أهيم بما قد دار بين جفونها ... ولا تزدهيني كرمةٌ وعصيرها

أبثُّ لها أشجان نفسي كأنها ... مليكةُ أمري والفؤادُ سريرها

لدن لي مع الأصحاب سهمٌ مسدَّدٌ ... وحظيَ من رِيم الكناسِ غريرها

أسفتُ على عهد الشبابِ ولم تعد ... تشير لنفسي مقلةٌ وفتورها

وأُدنتنيَ الأيام من هوّة الونى ... فأصبح مني قابَ قوسٍ شفيرُها

وكادت صروف الدهر تطوي صحائفي ... وهل بعد هذا الطيّ يرجى نشورها

إلى أن تلافاني مطلٌ بوجهه ... على فضلاتٍ في الفؤاد يثيرها
همامٌ على الستين حافظ بأسه ... يشدُّ على السبعين وهو مزيرها
وليس يضير المرءَ شيبُ شعوره ... ولكنما شيبُ العزومِ يضيرها
فما شائب الأقوام إلا وقورهم ... وأشيبُ آساد العرين هصورها
همامٌ له في النائبات مواقفٌ ... يقصر عنها كهلها وطريرها
غنيٌّ عن الدنيا فلا تستفزّه ... خزائنُ أرباب الغنى وأثيرها
وأخلق بمن نال الكفاف إذا استوى ... قليلُ المجاني عنده وكثيرها

* * *

وقفت أحييه عن المجمع الذي ... له رتبةٌ فيه قليلٌ نظيرها
ومن لي بتحليقٍ إلى أوجِ فضله ... وأين لهذا همتي وقصورها
فيا ليت لي من شاعرِ النيل نفحةً ... يراض بها من قافياتي نَفورها

* * *

أحافظُ حييتَ الشآم تحيةً ... يفوق عبيرَ الروض منها عبيرها
زففت لها الشعرَ النفيس عرائساً ... بجانبها تخفي وتخسفُ حورها
وألبستها ثوباً من الحمد دونه ... حدائقها في زَهوها وزُهورها
وطوقتها بالحب والعطف ربقةً ... قلادة أسرٍ لا يفادى أسيرها
وأهديتها وحياً من الشعر مُنسياً ... معاجزما أوحى إلى الكون طورها
وأوليتها فخراً على الدهر خالداً ... يعزّ بها لُبنانها وسنيرها
وجئتَ أيا حرّ السجية داعياً ... لوَحدة سوريّا وهذا ضميرها

قضية أحرارٍ يريدون نجحها ... ألا فاهتفوا يحيا السفيرُ سفيرها

* * *

دمشقُ تحيي فيك حراً بشعره ... تغنت وتاهت غيدها وطيورها
وقد طالما اشتاقت لزورةِ ماجدٍ ... روت شعرَه أبهاؤها وخدورها
فكم من فتى بالشام أنت سميره ... وكم من فتاةٍ فيه أنت سميرها
نثرت على العرب الكرام منازعاً ... برغم خصوم العرب تنمو بذورها
فإني أرى عند الشبيبة نزوةً ... إلى المجد والعلياء أنت مثيرها
ألست الذي إن أنشد النيل شعره ... تردّده أنهارنا وخريرها
تلونا على الخابور من معجزاته ... فأنعش والصحراء خفّ هجيرها
وجدناه في أرواد مطلعاً على ... دياجير هاتيك الكهوف ينيرها
وكانت قوافيه على ماء زحلةٍ ... كما فعلت بالشاربين خمورها
سقيت ربوع النيربين بسلسلٍ ... من الشعر صافٍ أين منه نميرها
سطرت عليها من جميلك آيةً ... حليفة خلدٍ ليس تمحى سطورها

* * *

هنيئاً لهذي الدار بعثُ فخارها ... فأخطاها في عقرها وجريرها
ولو كان شوقي حاضراً أحرزت به ... فرزدقها والكل منهم أميرها
ثلاثة أركانٍ وقى الله شملهم ... بهم عزّت الفصحى وعزّ عشيرها
فيا شعراء النيل إن قر بضكم ... خزائنه عند الشآم صدورها
أقمتم لأهل الضاد في مصرَ دولةً ... أريكتها أنتم ونحن ثغورها
نقدمكم طوعاً ونعرف حدّنا ... وما آفة الأقوام إلاّ غرورها

شرعتم لنا نهجَ الفصاحة لاحباً … وقوّمتموها فاستقامت أمورها
ففي ذمة الله الإمامُ محمد … منارُ الفتاوى الصائباتِ ونورها
تخطى إلى لبّ القضايا فدلّنا … عليه وقد ألهت سواه قشورها
وسعدٌ ومحمودٌ وصبري وقاسمٌ … وأمثالهم ممن أجنّت قبورها
وأحياؤهم رهطُ التجدد والعلى … تباهي بطونَ الأرض فيهم ظهورها
أولئك خطوا للثقافة أسّها … وشيدت على هذا الأساس قصورها
همُ أولُ البانين والفضلُ فضلهم … وهم في سماء المكرمات بدورها

* * *

وحييت في قُطر الشآم غطارفاً … همُ للأمانيّ النبيلة سُورها
يحيون في أحياء مصرَ ضياغماً … تجاوبَ في أقصى البلادِ زئيرها
همُ في تلافيف الدحال ليوثها … وهم في تضاعيف السماء صقورها
إذا حملوا ضيماً فإن صدورهم … على الضغن والآلام تغلي قدورها
وإن صبروا صبر الحكيم على الأذى … فما فاز بالآمال إلاّ صبورها
لهم عزماتٌ إن توارت هنيهةً … فلا بد أن تبدو ويلظى سعيرها
وترجع حقاً ضائعاً لنصابه … وصدق الأماني والإله ظهيرها

* * *

ويا شاعرَ القطرين مطران بيعة الـ … قريض لديك اليوم يذكى بخورها
لك الحمد أن أبلغتَ شامك منيةً … يحنّ إليها شيخها وصغيرها
توسلت بالترغيب حتى أزرته … وما كان لولا أن فعلتَ يزورها

دمشق :

فارس الخوري

دمعة لبنانية على حافظ

يا شاعرَ النيلِ ما للنيل يضطرم ... كأنما في حشا أمواجــه حمم
يرمي الضفافَ بما يبلي كأن له ... ثأراً وقد قام منها اليوم ينتقم
ماذا دهاه وقد علمته خلقــاً ... من بعضه الجود والإشفاق والحلم
علمته النبل حتى بات يقلقه ... شكوى النسيم ويشجي قلبه النغم
ما أنّت الريحُ إلا هبّ منتفضاً ... ولا شكا الطير إلا هزّه الألم
يمر بالفدفــدِ العاري فيلبسه ... ما ليس ينسجه آذار والدّيم
وشيٌ من النبت لا تذوي نضارته ... طرازه النرجس الفوّاح والعنم
خلائقٌ منك يا ابن الشعر لقنها ... والشعر من طبعه الإحسان والكرم
أراعه حرُّ تموز فأذهله ... عما تلقن ؛ أم قد مسه لمم ؟
أزلزلت تحته الغبراء فارتجفت ... أمواجه، أم هوى من فوقه الهرم؟
بلى أتاه نعيٌّ منك غادره ... وقلب (فيزوف) يغلي ، عنده شبم
مهما تلون حزناً لست أعذره ... ولست أحسب ترعى عنده الذمم
حتى يطير بخاراً مأوه وعلى ... متن السحاب بريح الجو يصطدم
فيسكب الغيثُ دمعاً فوق رابيةٍ ... من الربى قد ثوى في جوفها علم
موسد (حافظ) فيها يضاجعه ... عن جانبيه بها الهندي والقلم
إلفان شب رفيقاً مولعــاً بهما ... ولم يحوله كهلاً عنهما السأم

كأنما مذ ثوى (محمود) أخلفه ... عليهما ، فمضى ترقى به الهمم
تاها بكفيه حتى قال قائلنـا ... (محمود) أنت أعادته لنا الرمم
لم يظمأ الصارم المشقوق في يده ... يوماً ولا مس حدّ الأحدب القرم
ما زال هذا على القرطاس يخضبه ... دم الفؤآد وهذا في النضال دم
حتى دعاه الردى يبغيه فارتجفا ... لدعوة ريع من أصدائها الأجم
وأيقنا أن بعد العز مسكنةً ... وأن محياهما من بعده عدم
فآثرا حفرةً فيها الإمام ثوى ... على أكفٍّ بها يعلوهما الوصم
قد رافقاه ومـا شآءا له بدلاً ... وهكذا العزة القعسآء والشمم
أين الوفآء بأن نبقى إذا ذهبت ... أحبابنا ولنا في القرب مغتنم

* * *

يا تارك النيل من حرّ المصيف به ... للأرز ويحك إن الأرز مضطرم
فيه القلوب على النيران صالية ... هيهات يشفي لظاها المآء والنسم
ما صيفنا والأسى يغلي بأنفسنا ... إلا جحيم به نشوى ونلتهم
أيرزأ النيل مفجوعاً بشاعره ... وينعم الأرز؟ لا عاش الألى نعموا
إن لم يشاركْ بنو عدنان إخوتهم ... فيما يلمّ فلمْ ما بيننـا الرحم
إذا اتحدنا لساناً والقلوبُ على ... خلفٍ فأعرقُ منا في الوفا العجم

* * *

شقيقةَ الأرز ما أنت الوحيدة في ... رزءٍ تداعت له الأغوارُ والقمم
(للشام) منه عويل و(الفرات) غدا ... ثكلان يندب و(الأردن) يلتدم
رزءٌ تقاسمه الأعراب كلهمو ... كما توزع بين الإخوةِ القسم

ما كان (حافظ) إلا جدولاً سلساً ... بالحب يجري وبالإخلاص ينسجم
بَرٌّ بيعرب أدنى ما يروم لهم ... أن يفتدوا أمةً تعنو لها الأمم
يمشون للمجد والعليا تجندهم ... كتائباً للولا من فوقها علم
ما جف جفنٌ له مذ قام يرمقهم ... بعطفه ، عثروا في العيش أم سلموا
الدمع في عينه بشرٌ إذا اتحدوا ... والدمع في عينه حزنٌ إذا انقسموا
وللبلاغة نصلٌ في أنامله ... صليله الآيُ والأمثال والحكم
كم عزهم صوته في الزيغ فاعتدلوا ... ومسهم سحره في الشعب فالتأموا
شواردٌ لابن إبراهيم ما طلعت ... في أفق يعرب إلا انجابت الظلم
فيها النقيضان، منها فوق أكبدهم ... بردٌ ، ومنها على أعدائهم ضرم
إن البيان أفانينٌ وأروعه ... مايطفئ الوجد أو يردي الألى ظلموا

***

ياروحَ (حافظ) أغناك الآله وقد ... جاورته ، والغنى من ربك الأمم
فاستقبلتك بإعجاب ملائكه ... بين التسابيح والتهليل تبتسم
وصافحتك بأمر الله خاشعةً ... لدى سناك ، وجارُ الله محترم
ما كنت في الكون إلا مثلها شيماً ... وطالما أكبرت أمثالها الشيم
تنعمي في ذرا الرحمن دانيةً ... من عرشه تتوالى نحوك النعم
أما محبوك في الدنيا وهم كثرٌ ... باليأس لا بالتأسي بعدكِ اعتصموا
وتوب جسمكِ فيها بات قبلتهم ... يكاد قبل الصفا والبيت يستلم

رأس المتن : (لبنان) ... فارس مراد سعد

الى شاعر النيل



محمد البزم

مرحباً بالشيخ ِ شيخ ِ القارضين
شاعر ِ النيل وفخر ِ الكاتبين
جهبذ ِ الشعر ِ وموحى سحره
والمقوّى فيه بالروح الأمين
ذي دمشق لِدَة ُ الدهر وهل
غيرُ صنو ِ الدهر بالحسن قمين
نسبُ الخلد بها متصلٌ
وبها مغرس مجد الخالدين

زُرْتَها في جفوة ِ العزّ لها — رب جاف ٍ قلبه في الواصلين
لو بحين ٍ غير ِ ذا يممتها — لمشى الدهر بها للزائرين
فتلقتك بثغر ٍ أُحكمت — صوغه في الدهر كرّات القرون
بنساء ٍ قاصرات الطرف عين ٍ — ورجال ٍ في المعالي معرقين
جدولٌ يحبو وروضٌ ضاحكٌ — عبقريٌّ الصنع مقطوعُ القرين
جنةٌ تجلى وعيشٌ رغدٌ — تحت أدواح ٍ تسر الناظرين
يبصر المرتادُ في أفيائها — بهجة النفس ومسلاةَ الحزين

ربوةٌ ذاتُ قرارٍ ومَعين ومتاعٌ مستقرٌ كل حين
سمةٌ خالدةٌ لا تمحي في طلى الأيام دهرَ الداهرين

***

رب شعرٍ لك كالريح سرى يقطع الأرض سهولاً وحزون
نظم المشرقَ والغربَ معاً رب شعرٍ جاز طوقَ الناظمين
راحةٌ في طرسها جبارةٌ يدحر الشكَّ بها جيشُ اليقين
ويراعٌ مَرِنٌ ذو مِرَّةٍ تارةً يقسو وتاراتٍ يلين
يهبط الوحيُ عليه كلما وتوارى بين شقيه المنون
يقع الحقُّ على قرطاسه أخذاً تلعب باللبِّ الرزين
ناسمَ الأقدارَ في أفلاكها وأخاف الليثَ في ظل العرين
علل الكائن منها وانبرى يستشفُّ الغيبَ عما سيكون

***

ما لمصرٍ لا عرى مصرَ الأذى وهي أمُّ الشرق في برِّ البنين
ما لهم لا عثر الجدُّ بهم لم يجمْ حولك منهم محتفون
هل نسوا أيام لا نسمع في مصرَ إلا حافظاً يذكي الزبون
تبعث الشعرَ لظىً يصلى بها من بني التاميز رهطُ الغاصبين
وبمصرٍ زُمَرٌ قد تخذوا خدمةَ الأوطان ديناً أيَّ دين
وهبوا مصرَ نفوساً حرةً لا يراها الله في المستعبدين
قد صبرتم وتجلدنا لها نوبٌ توهن عزمَ الصابرين

ودمشقٌ أخت مصر ملئت ... شيعاً تغمط حقّ النابهين
جهلوا الشعر وضلوا كنهه ... وعدَوا فيه إلى الغثّ السمين
يستغيثُ الشعر في راحاتهم ... ويناديِ أهله هل من معين ؟
كاد نجمُ الشعر في دَهمائهم ... أن يُرى بعد السنا في الآفلين

***

يا حباك الله كل المرتجى ... فلقد هيجت بي الداءَ الدفين
هجتَ بي الذكرى على الوهن وقد ... طرحتني عن مَطاها الأربعون
أرمق الخمسين أستدني الردى ... والردى في مهجة الغيب جنين
والليالي كلٌّ ما تأتي به ... عجبٌ في راحة الدهر كمين
وطوت أبرادَ شرخٍ كلما ... عنّت الذكرى له سحّت شؤون
شاخ شيطاني وعزمي فأنا ... بين شيخين أثيمٍ ولعين
فأتى شعرُك فارتدّا معاً ... ذاك في المُردِ وذا في الناشئين
أزجر النفسَ عن الشعر وهل ... يُزجر المدنفُ عن بثّ الأنين
كلما أزمعتُ عنه نزعةً ... جدّ بي الوجد وأذكاني الحنين
فأصادي سِرْبَه ذَيلَ الدجى ... حين جسمُ الليل بالصبح طعين
وكأن الغيمَ منثوراً على ... جبهة المشرق أسرابُ الضئين
أنتقي الأرفعَ منه شمماً ... وأخو النُّهية لا يرضى بدون

***

هجتَ بي الذكرى فكانت خمرةً ... ذاتَ عرفٍ لذةً للشاربين

وجرت بي نشوةٌ قدسيةٌ لم تَجُلْ قطّ بهــام المنتشين
ذكرُ مجدٍ يعربيٍّ شاخصٍ خالدٍ لم يمحه فعــلُ السنين
وبني مروان أعلام العــلى وبناةِ المجد أبكاراً وعُون
من بني الأملاك إما غضبوا مَرَجوا البحرَ ببحرٍ من سفين
وانتحوا أرضَ الأعادي بالقنا والظبى تشتاق هامَ الدارعــين
صقلوا حاشيةَ الدهرِ فتىً وأقاموا من خدودِ المُصعرين
طاولوا الزُّهرِ ولو حلوا بهــا غادروها وعلوا مستكبرين
عدلوا الشمَّ حلومــاً ذللت جامحَ الأقدار بالعزم المكين
وكأن الدهر في قبضتهم صولجانٌ ولياليه كُرين
وكأن الأرض شطرنجٌ وقد هزئت كفهمُ باللاعبــين
يُدفــع البيدقُ من راحتهم فيُرى مَلكاً له العزُّ يدين
ورثوا الأرض صلاحاً وهدًى إنما الأرض تراثُ المصلحين
كل فياضِ الحشا مضطلع يصل الحربَ بذي أيدٍ فطين
أمويّ عبشميٍّ دأبه فتكةُ الأجدل بالمستنسرين
محتدٌ كالتبر وضّــاء السنا والحسام العضبِ تجلوه القيون
إن طوى الدهرُ شعوباً غبرت فهمُ في الدهر غيرُ المنطوين
قسماً بالشمسِ والبدرِ معــاً والدراري الزُّهر والصبح المبين
لأصوغنّ بما قد أُثّلو رائعَ الشعر شجوناً ولحون

* * *

ليس في المجد لُمغفٍ قسمةٌ   إنما المجدُ لقومٍ يقظين
سنةٌ من عهد عادٍ لم يزل   يتبع الآخرُ فيها الأولين
إنما الدهر خضمٌّ زاخرٌ   والورى فيه وفودُ السابحين
بعضهم طافٍ على آذيه   وهوى بعضٌ ضعافًا غَرقين
أمةٌ تجتاحُ أطراف الدُّنى   حين أخرى نهبةٌ للناهبين
أمةٌ تبني وأُخرى تحتذي   إنما الباني إمامُ المحتذين
قد أفاق الدهرُ من غفوته   وجرى يتبع خطوَ الناهضين
منتهى الضعف وغاياتُ الونى   أمةٌ معدودةٌ في الضارعين
تدفع الجزيةَ طوعًا عن يَدٍ   وبنوها حشدٌ في الصاغرين
أنذرت دهراً وأغفت حقبًا   ثم هبت في صياح المنذرين
تأنف الطيرُ إذا هدّدها   أجدلٌ بالذل من سكنى الوُكون
ما أرى ذا الغربَ إلا ناشئًا   فطنًا لقنه الشرقُ الفنون
أودع الحكمة طوعًا قلبه   وغذاه بلبانِ المرسلين
أخذ العهدَ عليه أن يُرى   حَدِبًا إن رابه الدهر الخؤون
فجرى والعلم شأواً وانثنى   زائراً يحمل زَهْوَ الفاتحين
أُنسيَ العهد ولم يعطف على   منهج الحكمة شأنَ السادرين

***

قدَرٌ قاسٍ ودهرٌ أخرق   وقضاءٌ في بنانٍ لا تلين

دمشق : محمد البزم

اي استاذي حافظ



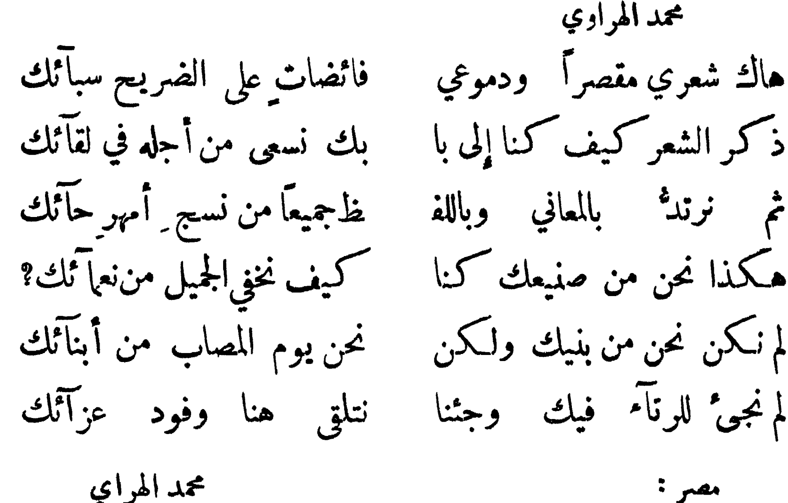
محمد الهراوي

أيُّ شعرٍ يفيك حقَّ رثائك
قصر الشعرُ في يديْ أصدقائك

نظر الناسُ يوم بنتَ إلى الشعـ
ـرِ وماذا يقول وقت ثوائك

أيها الناس قد عجزنا فعـذراً
نحن في الخطب لم نكن بالملائك

غلبَ الدمعُ يوم متَّ على الشعـ
ـرِ وفي الحق فهو يوم بكائك ؟



هاك شعري مقصراً ودموعي — فائضاتٍ على الضريح سبائك
ذكر الشعر كيف كنا إلى با — بك نسعى من أجله في لقائك
ثم نرتدُّ بالمعاني وباللفـ — ـظ جميعاً من نسجِ أمهرِ حائك
هكذا نحن من صنيعك كنا — كيف نخفي الجميل من نعمائك؟
لم نكن نحن من بنيك ولكن — نحن يوم المصاب من أبنائك
لم نجئْ للرثاء فيك وجئنا — نتلقى هنا وفود عزائك

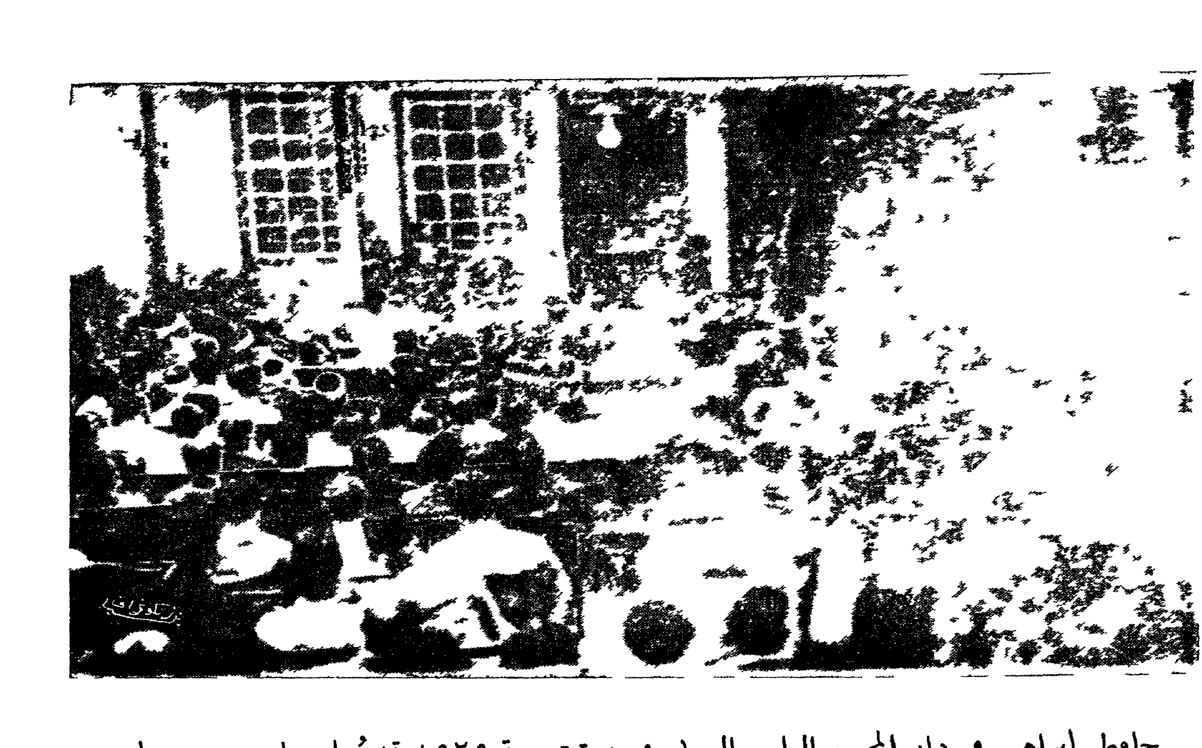
مصر : محمد الهراي

شاعر النيل

محمد حافظ ابراهيم

٣

اشعار له لم تنشر في ديوانه



حافظ إبراهيم في دار المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٢٩ وقد عُلق على صدره وسام الاستحقاق السوري وهو يلقي البيتين اللذين تراهما في الصفحة التالية بخطه وتوقيعه

دمع السرور

شكرتُ جميلَ صنعكمُ بدمعي ... ودمعُ العينِ مقياسُ الشعورِ

لأوّلِ مرّةٍ قد ذاقَ جفني ... على ما ذاقهُ دمعَ السرورِ

حافظ ابراهيم

تحية الشام

حيي بَبكورُ الحيا أرباعَ لُبنان ... وطالعَ اليمنُ من بالشام حياني

أهل الشآمَ لقد طوّقتمُ عُنقي ... بمنةٍ خرجت عن طوق تبياني

قل للكريم الذي أسدى إليّ يداً ... أنى نزحت فأنت النازح الداني

ما إن تقاضيتُ نفسي ذكرَ عارفةٍ ... هل يحدث الذكرُ إلا بعد نسيان

ولا عتبتُ على خلٍّ يضنّ بها ... ما دام يزهد في شكري وعرفاني

أقرّ عينيّ أني قمت أنشدكم ... في معهدٍ بحلى العرفان مُزدان

وشاع فيّ سرورٌ لا يعادله ... ردُّ الشباب إلى شعري وجثماني

لي موطنٌ في ربوع النيل أعظمه ... ولي هنا في حماكم موطنٌ ثان
إني رأيت على أهرامها حللاً ... من الجلال أراها فوق لبنان
لم يمحُ منها ولا من حسن جدّتها ... على التعاقب ما يمحو الجديدان
حسبتُ نفسي نزيلاً بينكم فإذا ... أهلي وصحبي وأحبابي وجيراني
من كل أبلج سامي الطرف مضطلعٍ ... بالخطب مبتهجٍ بالضيف جذلان
يمشي إلى المجد مختالاً ومبتسماً ... كأنه حين يبدو عودُ مُرّان

* * *

سكنتمُ جنةً فيحاءَ ليس بها ... عيبٌ سوى أنها في العالم الفاني
إذا تأملتَ في صنع الإله بها ... لم تلقَ في وشيه صنعاً لإنسان
في سهلها وأعاليها وسلسلها ... برءُ العليل وسلوى العاشق العاني
وفي تضوّع أنفاسِ الرياض بها ... رَوح لكل حزينِ القلب أسوان
إني تخيرت من لبنانَ منزلةً ... في كل منزلةٍ روضٌ وعينان
يا ليتني كنتُ من دنياي في دَعةٍ ... قلبي جميعٌ وأمري طوعُ وجداني
أقضي المصيف بلبنان على شرفٍ ... ولا أحول عن المشتى (بحلوان)
يا وقفةً في جبال الأَرْز أنشدها ... بين الصنوبر والشربين والبان
تستهبط الوحيَ نفسي من سماوتها ... وينثني ملَكاً في الشعر شيطاني
عليّ أجاودكم في القول مقتدياً ... بشاعر الأَرْز في صنعٍ وإتقان
لا بدع إن أخصبت فيها قرائحكم ... فأعجزت وأعادت عهدَ حسان
طيب الهواء وطيب الروض قد صقلا ... لوحَ الخيال فأغراكم وأغراني

من رام أن يشهد الفردوس ماثلةً ... فليغشَ أحياءَ كم في شهر نيسان
تاهت بقبر صلاح الدين تربتها ... وتاه أحياؤها تيهاً بمطران
يبني و يهدم في الشعر القديم وفي الشـ ... ـعر الحديث فنعم الهادم الباني
إذا لمحتم بشعري وَمضَ بارقةٍ ... فبعضُ إحسانه في القول إحساني
رَعياً لشاعركم رعياً لكاتبكم ... جزاهما الله عني ما يقولان

***

أرى رجالاً من الدنيا الجديدة في الد ... نيا القديمة تبني خيرَ بنيان
قد شيدوا آيةً بالشام خالدةً ... شتى المناهلِ تُروي كل ظمآن
لئن هدَوكم لقد كانت أوائلكم ... تهدي أوائلهم أزمانَ أزمان
لا غرو إن عمروا في الأرض وابتكروا ... فيها أفانينَ إصلاحٍ وعمران
فتلك دنياهمُ في الجو قد نزعت ... أعنةَ الريح من دنيا سليمان

***

أبت أمية أن تفنى محامدُها ... على المدى وأبى أبناء غسان
فمن غطارفةٍ في جلقٍ نجبٍ ... ومن غطارفةٍ في أرض حوران
عافوا المذلة في الدنيا فعندهم ... عزّ الحياة وعز الموت سِيان
لا يصبرون على ضيمٍ يحاوله ... باغٍ من الإنس أو طاغٍ من الجان
شققت أسواق بيروت فما أخذت ... عيناي في ساحها حانوت يوناني
فقلت في غبطةٍ لله درهمُ ... ليس الفلاح لوانٍ غير يقظان
تيمموا أرض (كولمب) فما شعرت ... منهم بوطء غريب الدار حيران

سادوا وشادوا وأبلوا في مناكبها ... بلاءَ مضطلعٍ بالأمر معوان

إن ضاق ميدان سبقٍ عن عزائمهم ... صاحت بهم فأروها ألف ميدان

لا يستشيرون إن هموا سوى هممٍ ... تأبى المقامَ على ذلٍّ وإذعان

ولا يبالون إن كانت قبورهم ... ذرى الشوامخ أو أجواف حيتان

في الكون مورقهم في الشام مغرسهم ... والغرس يزكو نقالاً بين بلدان

إن لم يفوزوا بسلطانٍ يقرهمُ ... ففي المهاجر قد عزوا بسلطان

أو ضاقت الشامُ عن برهان قدرتهم ... ففي المهاجر قد جاءوا ببرهان

إنا رأينا كراماً من رجالهمُ ... كانوا عليهم لدينا خيرَ عنوان

أنّى التقينا التقى في كل مجتمعٍ ... أهلٌ بأهلٍ وإخوانٌ بإخوان

كم في نواحي ربوع النيل من طرفٍ ... لليازجيّ وصروفٍ وزيدان.

وكم لأحيائهم في الصحف من أثرٍ ... له (المقطم) (والأهرام) ركنان

***

متى أرى الشرق أدناه وأبعدُه ... من مطمع الغرب فيه غير وسنان

تجري المودة في أعراقه طلقاً ... كجرية الماء في أفناء أفنان

لا فرق ما بين بوذيٍّ يعيش به ... ومسلمٍ ويهوديٍّ ونصراني

ما بال دنياه لما فاء وارفُها ... عليه قد أدبرت من غير إيذان

عهدُ الرشيد ببغدادٍ عفى ومضى ... وفي دمشقَ انطوى عهد ابن مروان

ولا تسل بعده عن عهد قرطبةٍ ... كيف انمحي بين أسيافٍ ونيران

فعلموا كل حيٍّ عند مولده ... عليك لله والأوطان دينان

حتمٌ قضاؤهما حتمٌ جزاؤهما فاربأ بنفسك أن تمنى بخسران

النيل وهو إلى الأردنّ في شغفٍ يهدي إلى بردى أشواق ولهان

وفي العراق به وجدٌ بدجلته وبالفرات وتحنانٌ لسيحان

إن دام ما نحن فيه من مدابرةٍ وفتنةٍ بين أجناسٍ وأديان

رأيتُ رأيَ المعري حين أرهقه ما حلّ بالناس من بغيٍ وعدوان

لا تطهر الأرض من رجسٍ ومن درنٍ حتى يعاودها نوح بطوفان

* * *

ولى الشبابُ وجازتني فتوّته وهدّم السقمُ بعد السقم أركاني

وقد وقفت على الستينَ أسألها أسوّفت أم أعدّت حرّ أكفاني

شاهدت مصرع أترابي فبشرني بضجعةٍ عندها رَوحي وريحاني

كم من قريبٍ نأى عني فأوجعني وكم عزيزٍ مضى قبلي فأبكاني

من كان يسأل عن قومي فإنهم ولّوا سراعًا وخلوا ذلك الواني

إني مللت وقوفي كل آونةٍ أبكي وأنظم أحزانًا بأحزان

إذا تصفحتَ ديواني لتقرأني وجدت شعرَ المراثي نصف ديواني

أتيت مستشفيًا والشوق يدفع بي إلى رُباكم وعودي غيرُ فينان

فأنزلوني مكانًا أستجم به وينجلي عن فؤآدي برح أجفاني

وجنبوني على شكرٍ موائدَ كم بما حوت من أفاويهٍ وألوان[1]

حسبي وحسب الندى ما نلت من كرمٍ قد كدت أنسى به أهلي وخلان

---

(١) لعله جواب عن أبيات شاعر القطرين المنشورة في الصفحة ١٩٠ من هذا الكتاب .

بين اليقظة والمنام

أشرقْ فدتك مشارقُ الإصباح ... وأمطْ لثامك عن نهارٍ ضاحِ
بوركتَ يا يومَ الخلاص ولا ونتْ ... عنكَ السعودُ بغدوةٍ ورواح
بالله كن يمناً وكن بشرى لنا ... في ردِّ مغتربٍ وفكِّ سراح
أقبلتَ والأيامُ حولكَ مثلُ ... صفين تخطرُ خطرةَ المياح
وخرجتَ من حجب الغيوب محجلاً ... في كلِّ لحظٍ منك ألفُ صباح
لو صحَّ في هذا الوجودِ تناسخٌ ... لرأيتُ فيك تناسخُ الأرواح
ولكنتَ يومَ «اللابرنت» بعينه ... في عزَّةٍ وجلالةٍ وسماح
يومٌ يريك جلاله ورواؤه ... في الحسن قدرةَ فالق الإصباح
خلعت عليه الشمسُ حلةَ عسجدٍ ... وحباه آذارٌ أرقَّ وشاح
الله أثبته لنا في لوحه ... أبدَ الأبيدِ فما له من ماح
حييه عنا يا أزاهرُ واملأي ... أرجاءه بأريجك الفياح
وانفحه عنا يا ربيعُ بكلِ ما ... أطلعتَ من رندٍ ونَورِ أقاح

***

تِهْ يا (فؤاد) فحول عرشك أمة ... عقدتْ خناصرَها على الإصلاح
أبناؤها وهمُ أحاديثُ الندى ... ليسوا على أوطانهم بشحاح
صبروا على مرِّ الخطوب فأدركوا ... حلوَ المنى معسولةَ الأقداح

شاكي سلاح الصبر ليس بأعزلٍ يغزوه ربُّ عواملٍ وصفاح
الصبرُ إن فكرت أعظمُ عدّةٍ والحق لو يدرون خير سلاح
قد أنكروا حقّ الضعيف فهل أتى إنكارُ ذاك الحق في (إصحاح)
كم خدّرت أعصابَ مصرَ نوافخٌ لوعودهمْ كنوافح التفاح
فتعلل المصريُّ مغتبطًا بها أرأيتَ طفلاً عللوه بداح
وتأنقوا في الخلف حتى أصبحت أقوالهم تذرى بغير رياح
لما تنبهَ بالكنانةِ نائمٌ وأصاتَ بالشكوى الأليمة صاح
وتكشفت تلك الغياهب وانطوت وبدت شموسُ الحق وهي ضواحي
علموا بحمد الله أنّ قرارَنا في ظلّ غير اللهِ غيرُ متاح
فاليوم قَرّي يا كنانة واهدَئي حرَمُ الكنانةِ لم يكن بمباح
من ذا يغيرُ على الأسودِ بغابها أو من يعومُ بمسبح التمساح
للنيلِ مجدٌ في الزمانِ مؤثلٌ من عهدِ (آمونٍ) وعهدِ (فتاح)
فسلِ العصورَ به وسلْ آثارَه في مصرَ كم شهدت من السيَّاح

***

يا صاحب القطرين غيرَ مدافعٍ ما مثلُ ساحك في العلى من ساح
لم يبدُ نورٌ فوقَ نورٍ يجتلى كالتاج فوق جبينك الوضاح
ذكرتْ بعرشكَ مصرُ يومَ وليته عرش (المعزّ) بها وعرشَ (صلاح)
في كلِّ قطرٍ من جلالك روعةٌ ولكل قطرٍ منك ظلُّ جناح
لك مصرُ والسودانُ والنهرُ الذي يختالُ بين رُبًى وبين بطاح

وبواسقُ السودانِ تشهد أنها ... غُرست بعهد جدودك الفتاح
لاغروَ إن غنىَّ بمدحك صائحٌ ... أو مسجحٌ في حلبةِ المدّاح
حسنُ الغناء مع الصياح كحسنه ... عند الخبيرِ به مع الإسجاح
أوَ لم يكن لك مُلكُ مصر ونيلها ... ينسابُ بين مروجها الأفياح
منضورةَ الجنات حالية الرُّبى ... مطلولةَ السرحات والأرواح
قد قال عمرٌو في ثراها آيةً ... مأثورةً نقشت على الألواح
بينا تراه لآلئًا وكأنما ... نُثرت بتربته عقود ملاح
وإذا به للناظرينَ زمرّدٌ ... يشفيك أخضرُه من الأتراح
وإذا به مسكٌ تشقّ سوادَه ... شقّ الأديم محارثُ الفلاح
« البرلمانُ » تهيأت أسبابهُ ... لم يبقَ من سببٍ سوى المفتاح
هو في يديك وديعةٌ لرعيةٍ ... تثني بألسنةٍ عليكَ فصاح
رُدَّ الوديعةَ يا « فؤآد » فإنما ... ردُّ الوديعة شيمة المسماح
وانهض بشعبك يا « فؤآدُ » إلى العلى ... وإلى مكانٍ في الوجودِ بَراح
فاللهُ يشهدُ والخلائقُ أننا ... طلاّبُ حقٍ في الحياة صراح

* * *

هذا منارُ « البرلمان » أمامكم ... لهدى السبيلِ كإبرةِ الملاّح
فتيمموهُ مخلصين فما لكم ... من دونهِ من غبطةٍ وفلاح
الفصلُ للشورى وتلك هي التي ... تزَعُ الهوى وترُدُّ كلَّ جماح
هي لا تضلُّ سبيلها فكأنما ... خلقَ السبيلُ لها بغيرِ نواحي

هي لا براحَ تردُّ كيدَ عدوِّكم ... وتفلُّ غربَ الغاصبِ المجتاح
فتكنفوا الشورى على استقلالكم ... في الرأي لا توحيهِ نزعهُ واح
ويدُ الإلهِ معَ الجماعةِ فاضربوا ... بعصا الجماعةِ تظفروا بنجاح
كونوا رجالاً عاملين وكذّبوا ... والصبحُ أبلجُ حاملَ المصباح[1]
ودَعوا التخاذُلَ في الأمورِ فإنما ... شبحُ التخاذُلِ أنكرُ الأشباح
واللهِ ما بلغَ الشقاءُ بنا المدى ... بسوى خلافٍ بيننا وتلاحي

***

قم يا ابنَ مصرَ فأنت حرٌّ واستعد ... مجدَ الجدودِ ولا تعد لمراح
شمر وكافح في الحياةِ فهذه ... دُنياكَ دارُ تناحرٍ وكفاح
وانهل معَ النهالِ من عذبِ الحيا ... فإذا رقا فامتح مع المتاح
وإذا ألحَّ عليك خطبٌ لا تهن ... واضرب على الإلحاح بالإلحاح
وخضِ الحياةَ وإن تلاطم موجها ... خوضُ البحارِ رياضةُ السباح
واجعل عيانك قبلَ خطوِك رائداً ... لا تحسبنَّ الغمرَ كالضحضاح
وإذا اجتوتك محلةٌ وتنكرت ... لك فاعدُها وانزح مع النزّاح
في البحرِ لا تثنيك نارُ بوارجٍ ... في البرِّ لا يلويك غابُ رماح
وانظر إلى الغربيِّ كيف سمت به ... بين الشعوب طبيعةُ الكدّاح
واللهِ ما بلغت بنو الغربِ المنى ... إلاّ بنياتٍ هناك صحاح

(١) إشارة إلى الفيلسوف ديوجنس الذي كان يحمل في رابعة النهار مصباحاً يبحثُ عن رجل.

ركبوا البحارَ وقد تجمدَ ماؤها والجوُّ بين تناوح الأرواح
والبرُّ مصهورَ الحصى متأججاً يرمي بنزاعِ الشوى لوّاح
يلقى فتيهمُ الزمانَ بهمةٍ عجبٍ ووجهٍ في الخطوبِ وقاح
ويشقُّ أجوازَ القفارِ مغامراً وعرُ الطريقِ لديهِ كالصحصاح
وابن الكنانةِ في الكنانةِ راكدٌ يرنو بعينٍ غيرِ ذاتِ طماح
لايستغلُّ كما علمتَ ذكاءَهُ وذكاؤهُ كالخاطفِ اللماح
أمسى كماء النهرِ ضاعَ فراتهُ في البحر بين أجاجهِ المنداح
فانهض ودع شكوى الزمان ولا تنحْ في فادح البؤسى مع الأنواح
واربحْ لمصرَ برأس مالك عزةً إن الذكاءَ حبالةُ الأرباح
وإذا رُزقتَ رياسةً فانسج لها بردَينِ من حزمٍ ومن إسجاح
واشربْ من الماءِ القراح منعماً فلكم وردتَ الماءَ غيرَ قراح

قال شوقي وهو في الأندلس :

يا ساكني مصرَ إنا لا نزال على عهدِ الوفاءِ — وإن غبنا — مقيمينا
هلاَّ بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نبلُّ به أحشاءَ صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنةٌ ما أبعدَ النيلَ إلا عن أمانينا

فقال حافظ :

عجبتُ للنيل يدري أن بلبله صادٍ ويسقي رُبى مصرٍ ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب موردُه ولا ارتضوا بعد كم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

الرحلة الى ايطاليا

عاصفٌ يرتمي وبحرٌ يغير … أنا بالله منهما مستجير
وكأن الأمواجَ وهي توالى … محنقاتٍ أشجانُ نفسٍ تثور
أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت … ثم فارت كما تفور القدور
ثم أوفت مثل الجبال على الفلـ … ـك وللفلك عزمةٌ لا تخور
تترامى بجؤجؤ لا يبالي … أمياهٌ تحوطه أم صخور
أزعج البحرُ جانبيها من الشدّ … فجنبٌ يعلو وجنبٌ يغور
وهو آنًا ينحط من علوٍ كالسيـ … ـل وآنًا يحوطها منه سُور
وهي تزورُّ كالجواد إذا ما … ساقه للطعان ندب جسور
وعليها نفوسنا خائراتٌ … جازعاتٌ كادت شعاعًا تطير
في ثنايا الأمواج والزبد المنـ … ـدوف لاحت أكفاننا والقبور
مرّ يومٌ وبعض يوم علينا … والمنايا إلى النفوس تشير
ثم طافت عناية الله بالفلـ … ـك فزالت عمن تقلّ الشرور
ملكت دفةَ النجاة يدُ اللـ … ـه فسبحان من إليه المصير
أمر البحر فاستكان وأمسى … منه ذاك العبابُ وهو حصير
أيها البحرُ لا يغرنك حولٌ … واتساعٌ وأنت خلقٌ كبير
إنما أنت ذرةٌ قد حوتها … ذرةٌ في فضاء ربي تدور

إنما أنت قطرةٌ في إناءٍ ليس يدري مداه إلا القدير

* * *

إيه (إسبيريا) فدتك الجواري منشآتٍ كأنهن القصور
ياعروسَ البحار إنك أهلٌ أن تحليك بالجمان البحور
فالبسي اليوم من ثنائيَ عقداً نشتهيه من الحسان النحور

* * *

إيه إيطاليا عدتك العوادي وتنحى عن ساكنيك الثبور
فيك يامهبطَ الجمال فنونٌ ليس فيها عن الكمال قصور
ودُمى جمع المحاسن فيها صنَعُ الكف عبقريٌّ شهير
قد أُقيمت من الجماد ولكن من معاني الحياة فيها سطور
فهي تبدو مثل الملائك يكسو ها جمالٌ على حفافيه نور
أُمرت السكوت من جانب الحق بدنيا فيها الأحاديث زور

* * *

أرضهم جنةٌ وحورٌ وولدا نٌ كما تشتهي وملكٌ كبير
تحتها — والعياذ بالله — نارٌ وعذابٌ ومنكرٌ ونكير
إن يوماً كيوم (ردجو ومسيـ نا وكالابريا) ليومٌ عسير
ساعة منه تهلك الحرث والنسـ ل وتمحو ما سطرته الدهور
ذاك (فيزوف) قائماً يتلظى قد تعالى شهيقه والزفير
ينذر القومَ بالرحيل ولكن ليس يغني مع القضاء النذير

وكذاك الأوطان مهما تجنت ليس للحرّ عن حماها مسير

***

شمسهم غادةٌ عليها حجابٌ فهي شرقيةٌ حوتها الخدور
شمسنا غادةٌ أبت أن توارى فهي غربيةٌ جلاها السفور
جوّهم في تقلبٍ واختلافٍ غير أن الثبات فيهم وفير
جوّنا أثبت الجوآء ولكن ليس فينا على الثبات صبور
ولديهم من الفنون لُبابٌ ولدينا من الفنون قشور
أنكروا الوقفَ شرعهم فلهذا كلُّ ربعٍ بأرضهم معمور
ليس فيها مستنقعٌ أو جدارٌ قد تداعى أو مسكنٌ مهجور
كل شبرٍ فيها عليه بناءٌ مشمخرٌّ أو روضةٌ أو غدير
قسموا الوقت بين لهوٍ وجدٍّ في مدى اليوم قسمةً لا تجور
كلهم كادحٌ بكورٌ إلى الرز ق ولاهٍ إذا دعاه السرور
لا ترى في الصباح لاعبَ نردٍ حوله للرهان جمٌّ غفير
لا ولا باهلاً سليم النواحي (للقهاوي) رواحهُ والبكور
لم يحل بينهم وبين الملاهي أو شؤونِ الحياة جوٌّ مطير
لا يبالون بالطبيعة حنت أم تجنت أم احتواها النفور
عصفت فوقهم رياحٌ عواتٍ أم أجازت بهم صبا أم دبور
قد أعدوا لحادثات الليالي عدةً لا يحوزها التقدير
نضروا الصخر في رؤوس الرواسي ولدينا في موطنِ الخصب بور

قد وقفنا عند القديم وساروا حيث تسري إلى الكمال البدور
والجواري في النيل من عهد نوحٍ لم يقدَّر لصنعها تغيير
ولع القومُ بالنظافة حتى جُنَّ فيها غنيهم والفقير
فإذا سرتُ في الطريق نهاراً خلتُ أني على المرايا أسير
أفرط القوم في النظام وعندي أن فرطَ النظام أسرٌ ونِير
ولذيذُ الحياةِ ما كان فوضى ليس فيها مسيطرٌ أو أمير
فإذا ما سألتني قلتُ عنهم أمةٌ حرةٌ وفردٌ أسير
ذاك رأيي وهل أشارك فيه إنه قول شاعرٍ لا يضير
في جبال (التيرول) إن أقبل الصيف نعيمٌ وإن مضى زمهرير
أذكرتني ما قاله عربي طارقيٌّ أمسى احتواه: (شلير)
حلٌّ ترك الصلاة في هذه الأرض وحلت لنا عليها الخمور
إن صدر السعير أحنى علينا من (شلير) وأين منا السعير

* * *

قد بلوتُ الحياة في الشرق والغرب فما في الحياة أمرٌ يسير
من ثواءٍ فيه الملالُ لزامٌ أو رحيلٍ فيه العناء كثير

مصر فوق الجميع

وقف الخلقُ ينظرون جميعاً   كيف أبني قواعدَ المجدِ وحدي

وبناةُ الأهرام في سالف الده   ـر كفوني الكلام عند التحدّي

أنا تاجُ العلاءِ في مفرِق الشر   ق ودُرّاته فرائدُ عقدي

أي شيءٍ في الغرب قد بهر النا   س جمالاً ولم يكن منه عندي

فترابي تبرٌ ونهري فراتٌ   وسمائي مصقولةٌ كالفرند

أينما سرت جدولٌ عند كرمٍ   عند زهرٍ مدنَّرٍ عند رند

ورجالي لو أنصفوهم لسادوا   من كهولٍ ملءِ العيون ومُرد

لو أصابوا لهم مجالاً لأبدَوا   معجزاتِ الذكاءِ في كل قصد

إنهم كالظبى ألحّ عليها   صدأُ الدهر من ثواءٍ وغمد

فإذا صيقل القضاء جلاها   كنّ كالموت ماله من مردّ

أنا إن قدّر الإله مماتي   لا ترى الشرقَ يرفع الرأس بعدي

ما رماني رامٍ وراح سليماً   من قديمٍ عنايةُ الله جندي

كم بغت دولةٌ عليّ وجارت   ثم زالت وتلك عقبى التعدي

إنني حرّةٌ كسرت قيودي   رغمَ رُقبى العدى وقطعت قدّي

وتماثلت للشفاء وقد دا   نيت حَيني وهيأ القومُ لحدي

قل لمن أنكروا مفاخرَ قومي   مثل ما أنكروا مآثر وُلدي

هل وقفتم بقمة الهرم الأكـ ... ـبر يوماً فَرَيْتمُ بعض جهدي
هل رأيتم تلك النقوشَ اللواتي ... أعجزت طوقَ صنعة المتحدي
حال لونُ النهار من قدَم العهـ ... ـد وما مسَّ لونها طولُ عهد
هل فهمتم أسرارَ ما كان عندي ... من علوم ٍ مخبوءة ٍ طيّ بُردي
ذاك فن التحنيط قد غلب الدهـ ... ـر وأبلى البلى وأعجز نِدي
قدعقدتالعهود من عهد فرعو ... ن ففي مصر كان أول عقد (١)
إن مجدي في الأُولَيات عريقٌ ... من له مثل أولَياتي ومجدي
أنا أم التشريع قد أخذ الرو ... مانُ عني الأصولَ في كل حدّ
ورصدت النجومَ منذ أضاءت ... في سماء الدجى فأحكمت رصدي
وشدا (بنتاؤور) فوق ربوعي ... قبل عهد اليونانِ أو عهدِ نجد (٢)
وقديماً بنى الأساطيلَ قومي ... ففرقن البحارَ يحملن بَندي
قبلأسطول (نلسن) كان أسطو ... لي سرياً وطالعي غير نكد
فسلوا البحر عن بلاء سفيني ... وسلوا البرَّ عن مواقع جُردي
أتراني وقد طويت حياتي ... في مراس ٍ لم أبلغ اليوم رشدي
أي شعب ٍ أحقّ مني بعيش ... وارف ِ الظل أخضر اللون رَغد
أمن العدل أنهم يردون الـ ... ـماء صفواً وأن يكدّر وردي
أمن الحقّ أنهم يطلقون الـ ... أسد منهم وأن تقيدَ أسدي

---

(١) يشير إلى المعاهدة السياسية التي عقدت بين فرعون والحيثاس وهي أول معاهدة أبرمت في التاريخ. (٢) بنتاؤور أقدم شاعر عرفه التاريخ وهو مصري.

نصف قرنٍ إلا قليلاً أُعاني ما يعاني في هونه كلُّ عبد
نظر الله لي فأرشد أبنا ئي فشدّوا إلى العلا أيّ شدّ
إنما الحق قوةٌ من قوى الديّا ن أمضى من كل أبيضَ هندي
قد وعدتُ العلا بكل أبيٍّ من رجالي فأنجزوا اليوم وعدي
أمهروها بالروح فهي عروسٌ تشنأ المهرَ من عروضٍ ونقد
وردوا بي مناهلَ العزّ حتى يخطبَ النجم في المجرّة ودي
وارفعوا دولتي على العلم والأخـ ـلاق فالعلمُ وحده ليس يُجدي
وتواصوا بالصبر فالصبر إن فا رق قوماً فما له من مسدّ
خُلقُ الصبر وحده نصرَ القو مَ وأغنى عن اختراعٍ وعدّ
شهدوا حومة الوغى بنفوسٍ صابراتٍ وأوجهٍ غيرِ رُبد
فمحا الصبرُ آية العلم في الحر ب وأنحى على القويّ الأشدّ
إن في الغرب أعيناً راصداتٍ كحلتها الأطماعُ فيكم بسهد
فوقها مجهرٌ يريها خفايا كم ويطوي شعاعه كلّ بعد
فاتقوها بجُنةٍ من وئامٍ غيرِ رثّ العرى وسعي وكدّ
واصفحوا عن هنات ما كان منكم رب هافٍ هفا على غير عمد
نحن نجتاز موقفاً تعثر الآ راءُ فيه وعثرةُ الرأي تُردي
ونعير الأهواءَ حرباً عواناً من خلافٍ والخلف كالسل يعدي
ونثير الفوضى على جانبيه فيعيد الجهولُ فيها ويبدي
ويظن الغويّ أن لا نظامٌ ويقول القويُّ قد جدّ جدي

فقفوا فيه وقفة الحزم وارموا ... جانبيه بعزمة المستعدّ
إننا عند فجر ليلٍ طويلٍ ... قد قطعناه بين سهدٍ ووجد
غمرتنا سودُ الأهاويل فيه ... والأمانيُّ بين جَزْرٍ ومدّ
وتجلى ضياؤُه بعد لأيٍ ... وهو رمزٌ لعهديَ المستردَّ
فاستبينوا قصد السبيل وجدوا ... فالمعالي مخطوبةٌ للمجد

آيا صوفيا

قالها حين خيف على الأستانة أن يدخلها الأعداء

أيا صوفيا حان التفرق فاذكري ... عهود كرام فيك صلّوا وسلموا
إذا عدت يومًا للصليب وأهله ... وحلّى نواحيك المسيح ومريمُ
ودُقّت نواقيس وقام مُزَنَّرٌ ... من الروم في محرابه يترنّم
فلا تُنكري عهد المآذن إنه ... على الله من عهد النّواقيس أكرم
تبارکت بيت القدس جذلان آمن ... ولا يأمن البيت العتيق المُحرّم
أيرضيك أن تغشى سنابك خيلهم ... حماك وأن يُمنى الحطيم وزمزم
وكيف يذلّ المسلمون وبينهم ... كتابك يتلى كل يومٍ ويكرم
نبيك محزونٌ وبيتك مطرقٌ ... حياءً وأنصار الحقيقة نُوَّم
عصينا وخالفنا فعاقبتَ عادلاً ... وحكّمت فينا اليوم من ليس يرحم

ملجأ البر

أيها الطفل لك البشرى فقد ... قدّر اللهُ لنا أن ننشرا

قدر الله حياةً حرةً ... وأبى سبحانه أن نقبرا

لا تخف جوعاً ولا عرياً ولا ... تبكِ عيناك إذا خطبٌ عرا

لك عند البرّ في ملجئه ... حيث تأوي خاطرٌ لن يكسرا

حيث تلقى فيه حدباً وترى ... بين أترابك عيشاً أنضرا

لا تسئ ظناً بمثرينا فقد ... تاب عن آثامه واستغفرا

كان بالأمس وأقصى همه ... إن أتى عارفةً أن يظهرا

فغدا اليوم يواسي شعبه ... وهو لا يرغب في أن يُشكرا

نبهت عاطفةَ البرّ به ... محنةٌ عمت ومقدارٌ جرى

جمعتنا في صعيدٍ واحدٍ ... وأرادتنا على أن نقهرا

فتعاهدنا على دفع الأذى ... بركوبِ الحزم حتى نظفرا

وتواصينا بصبرٍ بيننا ... فغدونا قوةً لا تزدرى

أنشرت في مصرَ شعباً صالحاً ... كان قبل اليوم منفكٌّ العرى

كم محبٍّ هائمٍ في حبها ... ذاد عن أجفانه سرح الكرى

وشبابٍ وكهولٍ أقسموا ... أن يشيدوا مجدها فوق الذُّرى

يا رجالَ الجدّ هذا وقته ... آن أن يعمل كلٌّ ما يرى

ملجأٌ أو مصرفٌ أو مصنعٌ ... أو نقاباتٌ لزراع القرى
أنا لا أعذر منكم من ونى ... وهو ذو مقدرةٍ أو قصرا
فابدأوا بالملجأ الحرّ الذي ... جئت للأيدي له مستمطرا
واكفلوا الأيتام فيه واعلموا ... أن كل الصيد في جوف الفرا
أيها المثري ألا تكفل من ... بات محروماً يتيماً معسرا
أنت من يدريك لو أنبته ... ربما أطلعت بدراً نيرا
ربما أطلعت (سعداً) آخراً ... يُحكم القول ويرقى المنبرا
ربما أطلعت منه (عبدَه) ... من حمى الدين وزان الأزهرا
ربما أطلعت منه شاعراً ... مثل (شوقي) نابهاً بين الورى
ربما أطلعت منه فارساً ... يدخل الغيلَ على أسد الشرى
كم طوى البؤسُ نفوساً لو رعت ... منبتاً خِصباً لكانت جوهرا
كم قضى العدم على موهبةٍ ... فتوارت تحت أطباق الثرى
كلٌّ من أحيي يتيماً ضائعاً ... حسبه من ربه أن يؤجرا
إنما يحمد عقبى أمره ... من لأخراه بدنياه اشترى



رثاء سعد

إيه ياليلُ هل شهدت المصابا ... كيف ينصبّ في النفوس انصبابا
بلغ المشرقين قبل انبلاج الـ ... ـصبح أن الرئيس ولى وغابا
وانعَ للنيراتِ سعداً فسعدٌ ... كان أمضى في الأرض منها شابا
قُدَّ ياليلُ من سوادك ثوباً ... للدراري وللضحى جِلبابا
انسج الحالكات منكَ نقاباً ... واحجبْ شمسَ النهار ذاكَ النقابا
قل لها غاب كوكبُ الأرض في الأر ... ضِ فغيبي عن السماء احتجابا
والبسيني عليه ثوبَ حدادٍ ... واجلسي للعزاء فالحزنُ طابا

***

أينَ سعدٌ فذاك أولُ حَفلٍ ... غابَ عن صدره وعاف الخطابا
لم يعود جنوده يومَ خطبٍ ... أن ينادى فلا يردّ الجوابا
علّ أمراً قد عاقه علّ سقماً ... قد عراه، لقد أطال الغيابا
أيْ جنود الرئيس نادوا جهاراً ... فإذا لم يجب فشقوا الثيابا
إنها النكبة التي كنتُ أخشى ... إنها الساعة التي كنتُ آبى
إنها اللفظة التي تنسف الأنـ ... ـفس نسفاً وتفقر الأصلابا
مات سعدٌ لا كنت يا (مات سعدٌ) ... أسهاماً مسمومةً أم حرابا
كيف أقصدت كلّ حيٍّ على الأر ... ض وأحدثتِ في الوجودِ انقلابا

حسرةٌ عندَ أنةٍ عنـدَ آهٍ تحتها زفرةٌ تذيبُ الصـلابا
قل لمن بات في فلسطين يبكي إن زلزالنا أجلُّ مصابا
قد دُهيتم في دوركم ودهينـا في نفوسٍ أبينَ إلا احتسابا
ففقدتم على الحوادث جفنـاً وفقدنا المهنَّد القرضابا
سلَّه ربه زماناً فأبلى ثم ناداه ربه فأجابا
قدرٌ شاء أن يزلزلَ مصراً فتغـالى فزلزلَ الألبابا
طاح بالرأسِ من رجالات مصرٍ وتخطى التحوت والأوشابا
والمقاديرُ إن رمت لا تبالي أرؤوساً تصيبُ أم أذنابا

***

خرجت أمةٌ تُشيِّعُ نعشاً قدْ حوى امة وبحراً عُبابا
حملوه عَلَى المدافِع لما أعجزَ الهـامَ حمله والرقابا
حال لونُ الأصيل والدَّمعُ يجرى شفقاً سائلاً وصبحاً مذابا
وسها النيلُ عن سُراه ذُهولاً حين ألفى الجموعَ تبكي انتحابا
ظنَّ يا سعدُ أن يرى مهرجاناً فرأى مأتماً وحشداً عجابا
لم تسقــ مثله فراعينُ مصرٍ يوم كانوا لأهلها أربابا
خضب الشيبُ شيبهم بسوادٍ ومحا البيضُ يوم متَّ الخضابا
واستهلت سحبُ البكاء على الوا دي فغطت خضراءهُ واليبابا
ساقت «التيمسُ» العزاءَ إلينا وتوخت في مدحك الإسهابا
لم ينح جازعٌ عليك كما نا حت ولا أطنبَ المحبُّ وحابى

واعترافُ (التاميزِ) يا سعدُ مقيا س ً لما ناب نيلنا وأصابا

* * *

يا كبير الفؤادِ والنفسِ والآ مالِ أين اعتزمتَ عنا الذهابا

كيفَ ننسى مواقفاً لك فينا كنتَ فيها المهيبَ لا الهيابا

كنتَ في ميعةِ الشبابِ حساماً زاد صقلاً فرِنده حين شابا

لم ينازِلكَ قارحُ القوم إلاَّ كنتَ أقوى يداً وأعلى جنابا

عظمٌ لو حواه كسرى أنوشر وان يوماً لضاقَ عنهُ إهابا

ومَضاءٌ يريكَ حدَّ قضاءِ الـــله يفري متناً ويحطمُ نابا

قد تحدَّيتَ قوةً تملأ المعـ مورَ من هولِ بطشها إرهابا

تملكُ البرَّ والبحارَ وتمشي فوق هامِ الورى وتجبي السحابا

لم ينهنه من عزمك السجن والنفـ ي وساجلتها بمصرَ الضرابا

سائلوا (سيشلاً) أأوجسَ خوفاً وسلوا (طارقاً) أرام انسحابا ؟

عزمةٌ لا يصدُّها عن مَداها ما يصدُّ السيولَ تغشى الهضابا

* * *

ليتَ سعداً أقامَ حتى يرانا كيف نعلي على الأساسِ القبابا

قد كشفنا بهديه كل خاف وحسبنا لكل شيءٍ حسابا

حجج المبطلين تمضي سراعاً مثلما تطلع الكؤوس الحبابا

حين قال (انتهيتُ) قلنا بدأنا نحمل العبءَ وحدنا والصعابا

فاحجبوا الشمس واحبسوا الروح عنا وامنعونا طعامنا والشرابا

واستشفوا يقيننا رغم ما نلـ ـقى فهل تلمحون فيه ارتيابا
قد ملكتم فم السبيل علينا وفتحتم لكل شعواء بابا
وأتيتم بالحائمات ترامى تحمل الموت جاثماً والخرابا
وملأتم جوانب النيل وعداً ووعيداً ورحمة وعذابا
هل ظفرتم منا بقلب أبيّ أو رأيتم منا إليكم مثابا
لا تقولوا خلا العرين ففيه ألف ليث إذا العرين أهابا
فاجمعوا كيدكم وروعوا حماها إن عند العرين أسداً غضابا

***

جزع الشرق كله لعظيم ملأ الشرق كله إعجابا
علم الشام والعراق ونجداً كيف يحمي الحمى إذا الخطب نابا
جمع الحق كله في كتاب واستثار الأسود غاباً فغابا
ومشى يحمل اللواء إلى الحق ويتلو في الناس ذاك الكتابا
كلما أسدلوا عليه حجاباً من ظلام أزال ذاك الحجابا
واقف في سبيلهم أين ساروا عالم باحتيالهم أين جابا
أي مكر يدق عن ذهن سعد أي ختل يريغ منه اضطرابا
شاع في نفسه اليقين فوقا ه به الله عثرة أو تبابا
عجزت حيلة الشباك وكان الشـ ـرق للصيد مغنماً مستطابا
كلما أحكموا بأرضك فخاً من فخاخ الدهاء خابوا وخابا
أو أطاروا الحمام يوماً لزجل قابلوا منك في السماء عقابا

تقتل الدسّ بالصراحة قتلاً ... وتسقي منافق القوم صابا
وترى الصدق والصراحة ديناً ... لا يراه المخالفون صوابا
تعشق الجو صافي اللون صحواً ... والمضلون يعشقون الضبابا
أنت أوردتنا من المـآء عذباً ... وأراهم قد أوردونا السرابا
قد جمعت الأحزاب خلفك صفًّا ... ونظمت الشيوخ والنوابا
وملكت الزمام واحتطت للغيـ ... ـب وأدركت بالأناة الطلابا
ثم خلفت بالكنانة أبطا ... لاً كهولاً أعزّةً وشبابا
قد مشى جمعهم إلى المقصد الأسـ ... ـمى يُغذُّون للوصول الركابا
يبتنون العلا، يشيدون مجداً ... يسعدون البنين والأعقابا
قد بلوناك قاضيـاً ووزيراً ... ورئيسـاً ومدرَهًا خلابا
فوجدناك من جميع نواحيـ ... ـك عظيماً موفقـاً غلاّبا
لم ينل حاسدوك منك مناهم ... لا ولم يلصقوا بعلياك عابا
نم هنيئًا فقد سهدت طويلاً ... وسئمت السقام والأوصابا
كم شكوت السهاد لي يوم كنا ... « بالبساتين » نستعيد الشبابا
ننهب اللهو غافلين وكنا ... نحسب الدهر قد أناب وتابا
فاذا الرزء كان منا بمرمى ... وإذا حائم الردى كان قابا
حرمتنا المنون ذيالك الوجـ ... ـه وذاك الحمى وتلك الرحابا
وسجايا لهن في النفس روح ... يعدل الفوز والدعاء المجابا
كم وردنا موارد الأنس منها ... ورشفنا سلافها والرضابا

ومرحنا في ساحها فنسينا الـ أهل والأصدقاء والأحبابا
ثم ولت بشاشةُ العيش عنا حين ساروا فوسدوك الترابا
خفتَ فينا مقام ربك حيًّا فتنظر بجنتيه الثوابا

وداع الشباب

قالها وقد وقف يومًا على داره التي قضى فيها سنيّ صباه

كم مرّ بي فيك عيشٌ لست أذكره ومرّ بي فيك عيشٌ لست أنساه
ودعت فيك بقايا ما علقتُ به من الشباب وما ودعت ذكراه
أهفو إليه على ما أقرحت كبدي من التباريح أولاه وأخراه
لبسته ودموع العين طيعةٌ والنفس جياشة والقلب أوّاه
فكان عوني على وجدٍ أكابده ومُرّ عيش على العلات ألقاه
إن خان ودي صديق كنت أصحبه أو خان عهدي حبيب كنت أهواه
قد أرخص الدمعَ ينبوعُ الغناء به والهفتي ونضوبُ الشيب أغلاه
كم روّح الدمع عن قلبي وكم غسلت منه السوابقُ حزنًا في حناياه
لم أدر ما يدُه حتى ترشفه فم المشيب على رغمي فأفناه
قالوا تحررت من قيد الملاح فعش حرًّا ففي الأسر ذلّ كنت تأباه
فقلت يا ليته دامت صرامته ما كان أرفقه عندي وأحناه
بُدّلت منه بقيدٍ لست أفلته وكيف أفلت قيداً صاغه الله
أسرى الصبابة أحياءٌ وإن جهدوا أما المشيب ففي الأموات أسراه

الترحيب بشوقي

وردَ الكنانةَ عبقريٌّ زمانه ... فتنظَّري يا مصرُ سحرَ بيانه
وأتى الحُسان فهنئوا ملكَ النهى ... بقيام دولته وعود حُسانه
النيلُ قد ألقى إليه بسمعه ... والماءُ أمسك فيه عن جريانه
والزهرُ مصغٍ والخمائلُ خشعٌ ... والطيرُ مستمعٌ على أفنانه
والقطرُ في شوقٍ لأندلسيةٍ ... شوقيةٍ تشفيه من أشجانه
يصغي لأحمد إن شدا مترنماً ... إصغاء أمةِ أحمدٍ لأذانه
فاصدح وغنّ النيل واهزز عطفه ... يكفيه ما عاناه من أحزانه

***

واذكر لنا (الحمرآء) كيف رأيتها ... و (القصرَ) ماذا كان من بنيانه
ماذا تحطم من ذراه وما الذي ... أبقت صروفُ الدهر من أركانه
واهاً عليه وأهله وبُناته ... أيامَ كان النجم من سكانه
إذ ملكُ أندلسٍ عريضٌ جاهه ... وشبابه المبكيّ في ريعانه
الفتحُ والعمران آيةُ عهده ... وكتائبُ الأقدار من أعوانه
لبست به الدنيا لباسَ حضارةٍ ... قد كان يخلعه على جيرانه
زالت بشاشته وزال وأقفرت ... من أنسه الدنيا ومن إنسانه
وطوى الثرى سرّ الزوال فيا ترى ... هل ضاق صدر الأرض عن كتمانه

فتكلمت تلك الطلول وأفصحت لما وقفتَ مسائلاً عن شانه
ولعل نكبته هناك تفرقٌ وتعدُّدٌ قد كان في تيجانه
عبرٌ رأيناها على أيامنـا قـد هونت ما نابه في آنه
وحوادثٌ في الكون إثرَ حوادثٍ جاءَت مشمرةً لهدّ كيانه
سبحان جبار السموات العلى ومقلبِ الأحوالِ في أكوانه

* * *

أهلاً بشمس المشرقين ومرحباً بالأبلج المرجوّ من إخوانه
أشكو إليك من الزمان وزمرةٍ جرحت فؤآد الشعر في أعيانه
كم خارج عن أفقه حصب الورى بقريضه والعُجب مِلء جَنانه
يختال بين الناس متئدَ الخطى ريح الغرور تهبّ من أُردانه
كم صكّ مسمعنا بجندل لفظه وأطال محنتنا بطول لسانه
ما زال يعلن بيننـا عن نفسه حتى استغاث الصم من إعلانه
نصح الهداة لهم فزاد غرورهم واشتدّ ذاك السيل في طغيانه
أوَلم ترَ الفرقان وهو مفصلٌ لم يلفتِ البوذيّ عن أوثانه

***

قل للذي قد قام يشأو أحمـداً خلِّ القريضَ فلستَ من فرسانه
الشعرُ في أوزانه لو قسته لظلمته بالدرّ في ميزانه
هذا امرؤٌ قد جاءَ قبل أوانه إن لم يـكن قد جاءَ بعد أوانه
إن قـال شعراً أو تسنم منبراً فتعوذاً بالله من شيطانـه

تخذ الخيال له (بُراقاً) فاعتلى   فوق السهى يستنُّ في طيرانه
ما كان يأمن عثرةً لو لم يكن   روحُ الحقيقة ممسكاً بعنانه
فأتى بما لم يأته متقدمٌ   أو تطمع الأذهان في إتيانه
هل للخيال وللحقيقة منهلٌ   لم يبغه الروّاد في ديوانه
إنا لنلهو إذ نجدّ وإنه   ليجدّ إذ يلهو بنظم جمانه
أقلامه لو شاء شكّ قصيرها   هام الثريا والسهى بسنانه
يملي عليها عقله وجَنانه   ما ليس ينكره هوى وجدانه
بَسلٌ على شعرائنا أن ينطقوا   قبل المثول لديه واستئذانه
عاف القديم وقد كسته يد البلى   خلق الأديم فهان في خُلقانه
وأبى الجديدَ وقد تأنق أهله   في الرقش حتى غرّ في ألوانه
فجديدُه بعث القديم من البلى   وأعاد سؤدده إلى إبانه
ورمى جديدهم فخرّ بناؤه   بر ُواء زخرفه وبرق دهانه
شعراء (نفح الطيب) أنشر ذكرهم   في أرض أندلسٍ أديبُ زمانه
ود (ابن هانئ) و(ابن عمار) بها   لو يظفران معاً بلثم بنانه
ولو استطاعا فوق ذاك لأقبلا   رغم البلى والقبر يستبقانه

***

يا كرمةَ المطرية ابتهجي به   واستقبلي الظمآن من أخدانه
مدي الظلال على الوفود وجددي   عهداً طواه الدهر في بستانه
كم مجلسٍ للهو فيه شهدته   فسكرت من ديوانه ودِنانه

غنى مغنيه فهاج غناؤه شجوَ الحمام على ذوائب بانه
فترنحت أشجارُه وتمايلت أعوادُها طرباً على عيدانه
فكأن مجلسنا هناك قصيدة من نظمه طلعت على عيدانه
فالحمد لله الذي قد رده من بعد غربته إلى أوطانه
فتنظروا آيانه وتسمعوا قد قام بلبلكم على أغصانه

نشيد الشبان المسلمين

أعيدوا مجدَنا دنيا ودِينا وذودوا عن تُراث المسلمينا
فمن يعنو لغير الله فينا ونحن بنو الغُزاة الفاتحينا

ملكنا الأمر فوق الأرض دهرا وخلّدنا على الأيام ذكرا
أتى عمر فأنسى عدل كسرى كذلك كان عهد الراشدينا

جبينا السحب في عهد الرشيد وبات الناس في عيش رغيد
وَطوّقتِ العوارفُ كل جيد وكان شعارُنا رِفقاً ولينا

سلوا بغداد والإسلامُ دينُ أكان لها على الدنيا قرين
رجالٌ للحوادث لا تلين وعلمٌ أيّدَ الفتحَ المبينا

فلسنا منهم والشرقُ عان إذا لم نكفه عنتَ الزمان
ونرفعه إلى أعلى مكان كما رفعوه أو نلقى المنونا

مهرجان شوقي

بلابلَ وادي النيل بالمشرق اسجعي ... بشعر أمير الدولتين ورجّعي
أعيدي على الأسماع ماغردت به ... يراعة شوقي في ابتداءٍ ومقطع
براها له الباري فلم ينبُ سنها ... إذا ما نبا العسال في كفّ أروع
مواقعها في الشرق والشرقُ مجدب ... مواقعُ صيب الغيث في كل بلقع
لديها وفودُ اللفظ تنساق خلفها ... وفودُ المعاني خشعاً عند خشع
إذا رضيت جاءت بأنفاس روضة ... وإن غضبت جاءت بنكباءَ زعزع
أحنُّ على المكدود من ظل دوحة ... وأحنى على المولود من ثدي مرضع
على سنها رفقٌ يسيل ورحمةٌ ... ورَوح لمن يأسى وذكرى لمن يعي
تسابق فوق الطرس أفكار ربها ... سباقَ جياد في مجال مربع
تطير بروق الفكر خلف بروقها ... تناشدها بالله لا تتسرعي
تحاول فوت الفكر لو لم تكفها ... أنامله كفّ الجموح المروّع
ألم تعلموا أنا بذخرَي نباغةٍ ... نفاخر أهل الشرق في أي مجمع
نفاخر من شوقينا بيراعةٍ ... ونزداد فخراً من (علي) بمبضع
فذاك شفاء الجسم تدمى جراحه ... وتلك شفاء الواله المتوجع

***

نمتك ظلالٌ وارفاتٌ وأنعمٌ ... ولينُ عيشٍ في مَصيف ومربع

ومن كان في بيت الملوك ثوآؤه ... ينشأ على النعمى ويمرح ويرتع
لئن عجبوا أن شاب شوقي ولم يزل ... فتيّ الهوى والقلب جمّ التمتع
لقد شاب من هول القوافي ووقعها ... وإتيانه بالمعجز المتمنع
كما شيبت هود ذؤابة أحمد ... وشيبت الهيجاء رأس المدّرع
يعيبون شوقي أن يُري غير منشد ... وما ذاك عن عيٍّ به أو ترفع
ولكن حياء لم يفارق طبعه ... وطبع الكريم الحرّ فوق التطبع
وما كان عاباً أن يجيء بمنشدٍ ... لآياته أو أن يجيء بمسمع
فهذا كليم الله قد جاء قبله ... بهارون ما يأمره بالوحي يصدع

***

بلغتَ بوصف النيل من وصفك المدى ... وأيام فرعونٍ ومعبوده (رع)
وما سقت من عادِ البلاد وأهلها ... وماقلت في أهرام (خوفو) (وخفرع)
فأطلعتها شوقية لو تنسقت ... مع النيرات الزهر خصت بمطلع
أ (من أي عهد في القرى) قد تفجرت ... ينابيع هذا الفكر أم (أخت يوشع)
وفي (توت ما أعي) ابتكار موفق ... وفي (ناشئ في الورد) إلهام مبدع
أسالت (سلا قلبي) شؤوني تذكراً ... كما نثرت (ريم على القاع) أدمعي
و (سل يلدزاً) إني رأيت جمالها ... على الدهر قد أنسى جمال المقنع
أطلت علينا (أخت أندلس) بما ... أطلت فكانت للنهى خير مشرع
وفي نسج (صدّاح) أتيت بآية ... من السهل لا تنقاد لابن المقفع
ورائع وصف في (أبي الهول) سقته ... كبستان نور قبل رعيك مارُعي

خرجت به عن طوق كل مصورٍ يجيد دقيق الفن في جوف مصنع
وفي (انظر إلى الأقمار) زفرة واجدٍ وأنةُ مقروح الفؤاد موزّع
بكيت على سر السماء وطهرها وما ابتذلوا من خدرها المترفع
شياطين أنس تسرق السمع خلسةً ولا تحذر المخبوء للمتسمع
وسينية للبحتري نسختها بسينية قد أخرست كل مُدّع
أتى لك فيها طائعاً كل ما عصى على كل جبارِ القريحة ألمعي
شجا البحتري إيوان كسرى وهاجه وهاجت بك الحمراء أشجان موجع
وقفت بها تبكي الربوع كما بكى فيالكما من واقفين بأربع
فنسجك كالديباج حلاه وشيه وفي النسج ما يأتي بثوبٍ مرقع
وشعرك ماء النهر يجري مجدداً وشعر سواد الناس ماء بمنقع
أ (أفضى إلى ختم الزمان ففضه) من الوحي والإلهام أم قول لوذعي
و (قلبي ادّكرت اليوم غير موفق) رُقى السحر أم أنات أسوانَ مولع
تملكت من ملك القريض فسيحه فلم تبقِ يا شوقي لنا قِيدَ أصبع
فبالله دع للناثرين وسيلةً تفيء عليهم واتقِ الله واقنع
عملت على نيل الخلود فنلته فقل في مقام الشكر يا رب أوزِع

***

جلا شعرُه للناس مرآةَ عصره ومرآةَ ماضي الشعر من عهد تبع
يجيءُ لنا آناً (بأحمدَ) ماثلاً وآونة (بالبحتريّ) المرصع
ويشأو رُقى (هوجو) ويأتي نسيبه لنا من لياليّ (ألفريد) بأربع

وإن خطرت ذكرى الفحول بفارس ... وما خلفوا في القول من كل مشبع
أتانا بروضٍ مزهرٍ من رياضهم ... (وحافظهم) فيه يغني ويرتعي
فقل للذي يبغي مداه منافساً ... طمعت لعمر الله في غير مطمع
فذلك سيفٌ سله الله قاطعاً ... فأيّان يضرب يفرِ درعاً ويقطع
وهل تدفع الدرع المنيعة صارماً ... به يضرب المقدار في كف سلفع

* * *

نُفيتَ فلم تجزع ولم تكُ ضارعاً ... ومن ترمه الأيام يجزع ويضرع
وأخصبت في المنفى وما كنت مجدباً ... وفي النفي خِصب العبقري السميدع
لقد زاد (هوجو) فيه خصب قريحةٍ ... وآب إلى أوطانه جدّ ممرع
وأدرك (سامي) بالجزيرة غايةً ... إليها ملوكُ القول لم تتطلع
تذكرت عذب النيل والنفس صبةٌ ... إلى نهلةٍ من كوب ماء مشعشع
وأرسلت تستسقي بني مصر شربةً ... فقطعت أحشائي وأضرمت أضلعي
أنروى ولا تروى وأنت أحقنا ... بريّ ! فيا قلب النبوغ تقطع
وإن شئتِ عنا ياسماء فأقلعي ... ويا ماء هافا كفف ويا أرض فابلعي
حرامٌ علينا أن نلذ بنهلةٍ ... وأنت تنادينا ونحن بمسمع
أبى الله إلا أن يردك سالماً ... ومن يرعَه يسلم ويغنم ويرجع
وعدت فقرّت عين مصرٍ وأصبحت ... رياضُ القوافي في ربيع موشع
وأدركت ما تبغي وشيدت آية ... على الشاطئ الغربي في خير موقع
يحفّ بها روضٌ يحيي بدورها ... بكوراً بريّا عرفه المتضوع

حمى يتهادى النيل تحت ظلاله تهاديَ خَوْدٍ في رداءٍ مجزّع
لقد كنت ترجو منه بالأمس قطرةً فدونكه فابرد غليلك وانقع

* * *

أميرَ القوافي قد أتيت مبايعاً وهذي وفود الشرق قد بايعت معي
فغنّ ربوع النيل واعطف بنظرةٍ على ساكن النهرين واصدح وأبدع
ولا تنسَ نجداً إنها منبت الهوى ومرعى المهامن سارحاتٍ ورُتّع
وحيِّ ذُرى لُبنان واجعل لتونسٍ نصيباً من السلوى وقسم ووزع
ففي الشعر حثٌّ الطامحين إلى العلا وفي الشعر زهدُ الناسك المتورع
وفي الشعر ما يغني عن السيف وقعه كما روّع الأعداء بيتٌ لأشجع
وفي الشعر إحياء النفوس وريّها وأنت لريّ النفس أعذبُ منبع
فنبه عقولاً طال عهد رقادها وأفئدةً شدّت إليها بأنسع
فقد غمرتها محنةٌ فوق محنةٍ وأنت لها يا شاعر الشرق فادفع
وأنت بحمد الله ما زلت قادراً على النفع فاستنهض بيانك وانفع
وخذ بزمام القوم وانزع بأهله إلى المجد والعلياء أكرم منزع
وقفنا على النهج القويم فإننا سلكنا طريقاً للهدى غيرَ مهيع
ملأنا طباقَ الأرض وجداً ولوعةً بهندٍ ودعدٍ والرباب وبوزع
وملّت بنات الشعر منا مواقفاً بسقط اللوى والرقمتين ولعلع
وأقوامنا في الشرق قد طال نومهم وما كان نوم الشعر بالمتوقع
تغيرتِ الدنيا وقد كان أهلها يرون متونَ العيس ألين مضجع

وكان بريد العلم عيراً وأينقاً … متى يعيها الإيجاف في البيد تظلع

فأصبح لا يرضى البخار مطيةً … ولا السلك في تياره المتدفع

وقد كان كل الأمر تصويب نبلةٍ … فأصبح بعض الأمر تصويب مدفع

ونحن كما غنى الأوائل لم نزل … نغني بأرماحٍ وبيضٍ وأدرع

عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى … لشيءٍ جديدٍ حاضر النفع ممتع

لدى كل شعب في الحوادث عدةٌ … وعدتنا ندب التراث المضيع

فيا ضيعة الأقلام إن لم نقم بها … دعامة ركن المشرق المتزعزع

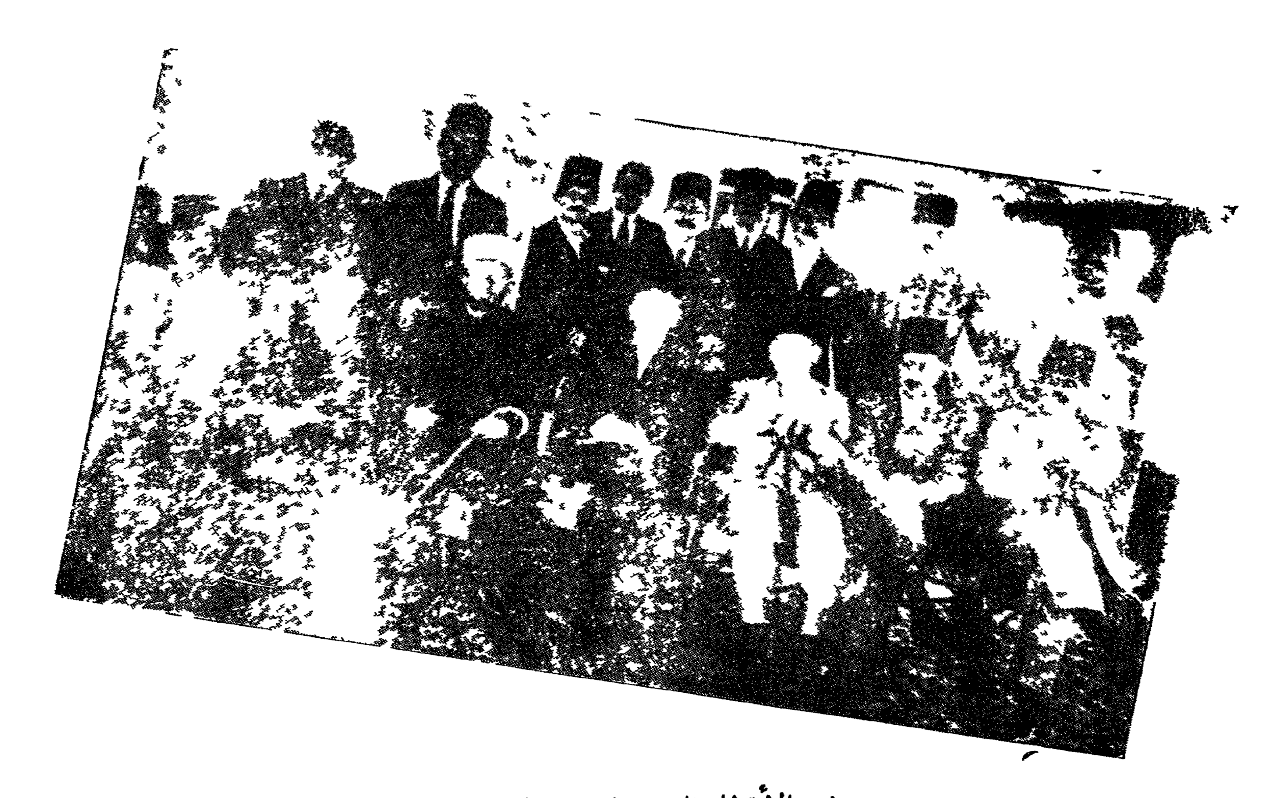
أتمشي به شم الأنوف عداته … ورب الحمى يمشي بأنفٍ مجدّع

عزيزٌ عليه يا بني الشرق أن يرى … كواكبه في أفقه غير طلع

وأعلامه من فوقه غير خفق … وأقلامه من تحتها غير شرّع

وكيف يوقى الشرّ أو يبلغ المنى … على ما ترى من شمله المتصدع

فإن كنت قوالاً كريماً مقاله … فقل في سبيل النيل والشرق أو دع



وفود الأقطار العربية في مهرجان شوقي سة ١٩٢٧

عيد المقتطف

شيخان قد خبرا الوجود وأدركا ... ما فيهِ من علل ومن أسباب
واستبطنا الأشياء حتى طالعا ... وجهَ الحقيقة من وراء حجاب
خمسون عاماً في الجهاد كلاهما ... شاكي اليراعة طاهر الجلباب
لا تعجبوا إن خضبا قلميهما ... وبياضُ شيبهما بغير خضاب
فلكل حسن حليةٌ يزهى بها ... وأرى اليراعة حلية الكتاب
إني نظرت إلى اليراعة في يدي ... فحسبتها في القدر عود ثقاب
ونظرتها تنقضُّ من كفيهما ... فوق الطروس فخلتها كشهاب
يزهى مدججنا برمحٍ واحدٍ ... وأراهما لا يزهيان بغاب
متواضعان ولا أرى متكبراً ... غير الجهول مدنساً بالعاب
يتجاذب القطران في فضليهما ... ذيل الفخار وليس ذا بعجاب
فهما هنا علمان من أعلامنا ... وهما هنالك نخبة الأنجاب
جازا مدى السبعين لم يتوانيا ... عن وصل حمدٍ واجتناب سباب
نسباهما قلماهما فليسحبا ... ذيلاً على الأحساب والأنساب
قلمان مشروعان في شقيهما ... وحيٌ يفيض على أولي الألباب
متساندان إذا الخطوب تألبت ... متعانقان تعانق الأحباب
نفحات آذار إذا لم يُظلما ... فإذا هما ظُلما فلفحة آب
ما سوَّدا بيضاء إلا بيضا ... بالكاتبين صحيفة الإعجاب

للمقصد الأسمى لدى حرم النهى　　رفعا قباباً حوجزت بقباب
خطا بمقتطف العلوم بدائعاً　　وروائعاً بقيت على الأحقاب
جاءا لنا من كل علم نافع　　أو كل فنٍّ ممتعٍ بلباب
في كل لفظٍ حكمةٌ مجلوةٌ　　وبكل سطرٍ مهبطٌ لصواب
فاللفظ فيه مقوّم بصحيفةٍ　　والسطر فيه مقومٌ بكتاب
داني القطوف كريمة أفياؤه　　عذب الورود مفتح الأبواب
ذلل مسالكه فأنى جئته　　ألفيت نفسك في فسيح رحاب
تتسابق الأقلام فيه ولا ترى　　من عاثرٍ فيها ولا من ناب
كم من يراعة كاتب جالت به　　ولعابها في الطرس حلو رضاب
كم من سؤالٍ فيه كان جوابه　　إلهام نابغةٍ وفصل خطاب
كم فيه من نهر جرى بطريفة　　ترد النهى منه ألذّ شراب
وقفت سقاة الفضل في جنباته　　تروي النفوس بمترع الأكواب
ماذا أعدّ وهذه آياته　　في العد تعجز أمهر الحساب
قد نسقت وتآلفت فكأنها　　في الحسن مثل تآلف الأحزاب
وترى تهافتنا عليه وحرصنا　　فتخال فيه مقاعد النواب
يا ثروة القرآء من علمٍ ومن　　فضلٍ ومن حكمٍ ومن آداب
الشرق أثبت يوم عيدك أنه　　مازال في ريٍّ وخصب جناب
عادت سماء الفضل فيه فأطلعت　　زهراً من الأعلام والأقطاب
العلم شرقيٌّ تغافل أهله　　عنه فعاقبهم بطول غياب

وتنبهوا لمصابهم فتضرعوا ⁂ فعفا وعاودهم بغير عتاب

فتذوقوا طعم الحياة وأدركوا ⁂ ما في الجهالة من أذى وتباب

العلم في البأساء مزنةُ رحمةٍ ⁂ والجهل في النعماء سوط عذاب

ولعلّ وِرد العلم ما لم يرعه ⁂ ساقٍ من الأخلاق وِرْدُ سراب

إني قرأتك في الكهولة والصبا ⁂ وملأت من ثمر العقول وطابي

وأتيت أقضي بعض ما أوليتني ⁂ وأقول فيك الحق غير محاب

لو كنت في عهد الفتوة لم أزل ⁂ لوهبت للشيخين بُرد شبابي

لكنني أبليته وطويته ⁂ وتخذت من نسج المشيب ثيابي

وأرى ركابي حين شابت لمتي ⁂ يحتثها سفرٌ بغير إياب

يعقوب إنك قد كبرت ولم تزل ⁂ في العلم لا تزداد غير تصاب

لاحت برأسك هزةٌ ولعلها ⁂ من وقع فكرك لا من الأعصاب

فكرٌ سريع كرُّه متدفعٌ ⁂ كتدفع الأمواج فوق عُباب

لا يستقر ولا يحدث نفسه ⁂ أن ينثني عن جيئةٍ وذهاب

أو أنها طربٌ بنفسك كلما ⁂ وفقت في بحثٍ وكشف نقاب

أو أنها استنكار ما شاهدته ⁂ في الناس من لهوٍ وسوء مآب

لم يلهك الإثراء عن طلب العلا ⁂ بالجد لا بتصيد الألقاب

لك في سبيل العلم أجر مجاهدٍ ⁂ والصبر أجر ملازم المحراب

وإليك من جهد المقل قصيدةً ⁂ يغنيك موجزها عن الإسهاب

لولا السقام وما أكابد من أسى ⁂ للحقت في هذا المجال صحابي

الى لطفي السيد

يا كاسيَ الأخلاق في بلدٍ عن الأخلاق عارِ
لم يبقَ فينا من يجـا دل في مقامك أو يماري
بالأمس قـد علمتنـا أدبَ الكتابة والحوار
واليوم قـد ألطفتنـا بالطيبات من الثمار
بكتاب رسطاليسَ تا جِ نوادر الفلك المدار
جاهـدت في تفصيله ووصلتَ ليلك بالنهـار
تزنُ الكلامَ كأنـه ماسٌ بميزان التجار
وتصون معنى ربـه صون اللآلئ في المحار
وتضنُّ دهقانَ الكلا م كضنّ دهقان النضار
حتى حسبتك في الأنا ة والاختبار والاختيار
صَنَعاً يصوّر في الفصو ص لدى الفراعنة الكبار

***

إني قرأتُ كتابـه بين الخشوع والاعتبار
فإذا المترجمُ ماثلٌ جنبَ المؤلفِ في إطار
وعليهما نورٌ يفيـ ض من المهابةِ والوقار

***

قالوا لقد هجر السيا   سةَ وانزوى في عقر دار
ترك المجالَ لغيره   ورأى النجاةَ مع الفرار
لا تظلموا ربَّ النهى   وحذارِ من خطلٍ حذار
هجر السياسة للسيا   سة لا لنومٍ أو قرار
لو أنهم علموا الذي   يبني لهم خلفَ الستار
لسعوا إلى حامي الفضيـ   ـلةِ والحقيقة والذِّمار
وافاهمُ بدعائم الا   أخلاق والحكم السواري
أسّ السياسة والنجا   ح وحصن (سيدة البحار)
كلفت بها وتمسكت   قبل الفيالق والجواري

***

ياعاشقَ الخلق الصر   يح وشانئَ الخلق المواري
إني اختبرتك في الكهو   لة والصبا حقَّ اختبار
لم يجرِ في ناديك هجـ   ـر القول أو خلع العذار
حلو التواضع والتوا   ضعُ آيةُ القوم الخيار
مرّ التكبر حين يدعو   ك التواضع للصغار
سر في طريقك وادعاً   فلأنت مأمونُ العثار
واجعل على لَقَم الطر   يق صُوىً تلوح لكل سار[1]
إنا إلى كتب السيا   سة يا حكيم على أوار

---

(١) لقم الطريق : جوانبه — الصوى : العلامات كالمنائر

عجل بها قبل (الفسا   د) وقبل عادية البوار[1]
إنا نناضل أمةً   أقطابها أسدٌ ضوار
عركوا الزمانَ وأهله   وتحصنوا من كل طاري
أمست سياستهم كظلِّ   سمٍ يجير كل قاري

***

إن ينكروا بعضَ الغمو   ض على أديبٍ ذي اقتدار
فلأنهم لم يذكروا   أن المترجم في إسار
لم يعي أحمد أن يجي   ء بآي قيسٍ أو نزار
وهو المجلي في أسا   ليب الفصاحة والمباري
لغةُ العلوم حقائقٌ   هي عن زخارفنا عوار
تأبى الغلوَّ وتحسب الـ   إغراق كالثوب المعار
والنقل إن عدم الأما   نة كان عنوان الخسار

الى وزير كبير

لا غروَ إن أشرق في منزلي   في ليلة القدر محيّا الوزير
فالبدرُ في أعلى مداراته   للعين يبدو وجهه في الغدير

---

(١) إشارة إلى كتاب الكون والفساد الذي ترجمه الأستاذ أحمد لطفي السيد وعزم على نشره قبل كتاب السياسة . وحافظ يطلب العكس

رثاء حافظ نفسه (*)

آذنت شمسُ حياتي بمغيبِ ... ودنا المنهلِ يا نفس فطيبي
إن من سار إليه سيرنا ... وردَ الراحة من بعد اللغوب
قد مضى (حفني) وهذا يومنا ... يتدانى فاستثيبي وأنيبي
وارقبيه كلَّ يومٍ إنما ... نحن في قبضة علاّم الغيوب
أذكري الموتَ لدى النوم ولا ... تغفلي ذكرته عند الهبوب

(*) لهذه القصيدة قصة عجيبة هي أنه لما توفي المرحوم الشيخ محمد عبده رثاه على القبر أولاً الشيخ أحمد أبو خطوة ثم حسن عاصم باشا ثم حسن عبد الرازق باشا الكبير ثم قاسم أمين بك ثم حفني ناصف بك ثم حافظ إبراهيم بك واتفق أن مات الأربعة الأولون على ترتيب وقوفهم في الرثاء فلاحظ ذلك المرحوم حفني بك ناصف فبعث إلى حافظ بهذه الأبيات :

أتذكر اذ كنا على القبر ستةً ... نعدد آثارَ الإمام ونندب
وقفنا بترتيب وقد دبّ بيننا ... مماتٌ على وفق الرثاء مرتب
أبو خطوةٍ ولى وقفاه عاصمٌ ... وجاء لعبد الرازق الموتُ يطلب
فلبى وغابت بعده شمسُ قاسمٍ ... وعما قليلٍ نجمُ محياي يغرب
فلاتخشَ هلكاً ماحييتُ وإن أمت ... فما أنت إلا خائفٌ تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف ... ونم تحت بيت الوقف وهو مخرّب
وخض لجج الهيجاء أعزلَ آمناً ... فإن المنايا عنك تنأى وتهرب

فلما توفي حفني بعد ذلك نظم حافظ مرثيته هذه وألقاها في حفلة ذكرى الشيخ محمد عبده سنة ١٩٢٢ وحسب احد الأدباء بهذه المناسبة حسبة انتهى منها إلى أن حافظاً يموت بعد حفني بثلاث سنين ولكن حافظاً صحح الحساب وانتهي إلى أن وفاته ستكون بعد ثلاث عشرة سنة وقد كان ذلك فإن وفاة حفني كانت سنة ١٩١٩ رحمهم الله جميعاً

واذكري الوحشة في القبر فلا مؤنس فيها سوى تقوى القلوب
قدّمي الخيرَ احتساباً فكفى بعضُ ما قدّمت من تلك الذنوب
راعني فقدُ شبابي وأنا لا أُراع اليوم من فقد مشيبي
حنّ جنباي إلى بَرْد الثرى حيث أنسى من عدوٍّ وحبيب
مضجعٌ لا يشتكي صاحبه شدة الدهر ولا شدّ الخطوب
لا ولا يُسئمه ذاك الذي يُسئم الأحياء من عيشٍ رتيب
قد وقفنا ستةً نبكي على عالِم المشرق في يومٍ عصيب
وقف الخمسةُ قبلي فمضوا هكذا قبلي وإني عن قريب
وردوا الحوضَ تباعاً فقضوا باتفاقٍ في مناياهم عجيب
أنا مذ بانوا وولّى عهدُهم حاضرُ اللوعة موصول النحيب
هدأت نيرانُ حزني هدأةً وانطوى (حفني) فعادت للشبوب
فتذكرت به يوم انطوى صادق العزمة كشاف الكروب
يوم كفناه في آمالنا وذكرنا عنده قولَ (حبيب)
(عرفوا من غيبوه وكذا تُعرف الأقمارُ من بعد المغيب)
وفجعنا بإمامٍ مصلحٍ عامرِ القلب وأوّابٍ منيب
كم له من باقياتٍ في الهدى والندى بين شروق وغروب
يبذل المعروف في السرّ كما يرقب العاشق إغفاء الرقيب
يُحسن الظنّ به أعداؤه حين لا يُحسن ظنٌّ بقريب
تنزل الأضياف منه والمنى والخلال الغرُّ في مرعى خصيب

قد مضت عشرٌ وسبعٌ والنهى في ذبولٍ والأماني في نضوب
نرقب الأفقَ فلا يبدو به لامعٌ من نور هادٍ مستثيب
وننادي كلَّ مأمولٍ وما غيرُ أصداءِ المنادي من مجيب
دَوِيَ الجرح ولم يُقدَر له بعد ثاوي (عين شمسٍ) من طبيب
أجدب العلمُ وأمسى بعده رائدُ العرفان في وادٍ جديب
رحمةُ الدين عليه كلما خرج التفسيرُ عن طوق الأريب
رحمةُ الرأي عليه كلما طاش سهم الرأي في كفِّ المصيب
رحمةُ الفهم عليه كلما دَقّت الأشياءُ عن ذهن اللبيب
رحمةُ الحلم عليه كلما ضاق بالحدثان ذو الصدر الرحيب
ليس في ميدان مصرٍ فارسٌ يركب الأخطار في يوم الركوب
كلما شارفه منا فتى غاله المقدارُ من قبل الوثوب
ما ترى كيف تولى (قاسمٌ) وهو في المَيعة والبرد القشيب
أنسي الأحياءُ ذكرى (عبده) وهي للمستاف من مسكٍ وطيب
إنهم لو أنصفوها لبنوا معهداً تعتاده كفُّ الوهوب
معهداً للدين يُسقى غرسه من نميرٍ فاض من ذاك القَليب
ونسينا ذكر (حفني) بعده ودفنّا فضله دفن الغريب
لم تَسِل منا عليه دمعةٌ وهو أولى الناس بالدمع الصبيب
سكنت أنفاسُ حفني بعدما طيبت في الشرق أنفاس الأديب
عاش خِصب العمر موفور الحجى صادق العشرة مأمون المغيب

تهنئة السلطان حسين

هنيئاً أيها الملك الأجلُّ ... لك العرشُ الجديدُ وما يطلّ

تسنم عرشَ إسماعيل رحباً ... فأنت لصولجان الملك أهل

وحصنه بإحسانٍ وعدلٍ ... فحصن الملكِ إحسانٌ وعدل

وجدد سيرة العمرين فينا ... فإنك بيننا لله ظلّ

لقد عزّ السريرُ وتاه لما ... تبوأه المليك المستقلّ

وهشّ التاجُ حين علا جبيناً ... عليه مهابةٌ وعليه نُبل

تمنى لو يقرّ على أبيّ ... تذل له الخطوبُ ولا يذلّ

وقد نال المرامَ وطاب نفساً ... فها هو ذا بلابسه يُدِلّ

وما كنتَ الغريبَ عن المعالي ... ولا التاجِ الذي بك بات يعلو

وإنك منذ كنتَ ولا أغالي ... حسامٌ للأريكة لا يفلّ

فكم نهنهت من غرب العوادي ... وكم لك في ربوع النيل فضل

وما من مجمعٍ للخير إلا ... ومن كفيك سحٌ عليه وَبْل

فقد عرف الفقيرُ نداك قدماً ... وقد عرف الكبير علاك قبل

لك العرشان هذا عرشُ مصرٍ ... وهذا في القلوب له محلّ

فألف ذات بينهما برأيٍ ... وعزمٍ لا يكلّ ولا يملّ

فعرشٌ لا تحفّ به قلوب ... تحفّ به الخطوب ويضمحل

ومنها :

فعش للنيل سلطاناً أبيــاً ... له في ملكه عقدٌ وحلُّ
ووالِ القوم إنهم كرامٌ ... ميامينُ النقيبة أين حلوا
لهم ملك على (التاميز) أضحت ... ذراه على المعالي تستهــلُّ
وليس كقومهم في الغرب قومٌ ... من الأخلاق قد نهلوا وعلوا
فإن صادقتهم صدقوك ودّاً ... وليس لهم إذا فتشت مثل
وإن شاورتهم والأمر جدٌّ ... ظفرتَ لهم برأيٍ لا يَزِلُّ
وإن ناديتهم لبــاك منهم ... أساطيلٌ وأسيافٌ تسلُّ
فمادِدهم حبال الودّ وانهض ... بنا فقيادُنا للخــير سهل
وخفف من مصاب الشرق فينا ... فنحن على رجال الغرب ثقل
إذا نزلت هناك بهم خطوبٌ ... ألمّ بنا هنــا قلقٌ وشغل
حيارى لا يقرّ لنا قرارٌ ... تنازلنا الخطوبُ ونحن عزل
فأهلاً بالدليل إلى المعــالي ... ألا سر يا (حسين) ونحن نتلو
وأسعدنا بعهدك خير عهدٍ ... به أيامنــا تصفو وتحلو
فأمرك طاعةٌ ورضاك غنمٌ ... وسيفك قاطعٌ ونداك جزْلُ

وقال وقد ساءه التصفيق في حفلة تأبين إسماعيل صبري باشا :

أأكثرتم التصفيقَ في موطنٍ ... كان البــكا فيه بنا أليقا
فأكرموا (صبري) بإصغائكم ... وليعذر الدمع إذا صفقا

رثاء اسماعيل صبري باشا

نعـاك النعاةُ وُحمّ القدرْ ... ولم يغنِ عنا وعنك الحذرْ
طوت ذبحةُ الصدر صدرالندى ... فلم تطوِ إلا سجلّ العبر
فأمسيت تذكر في الغابرين ... وإن قلّ مثلك فيمن غبر
إذا ذُكرت سير النابهين ... فسيرة (صبري) تجبُّ السير
لقد كنت برّاً بظل الشباب ... فلما تقلص كنت الأبرّ
فلم تُستبق نزوةً في الصبا ... ولم تستبح هفوةً في الكبر

***

أهني الثرى أم أعزي الورى ... لقد فاز هذا وهذا خسر
أأول يوم لعهد الربيع ... تجفّ الرياض ويذوي الزهر
ويذبل زهرُ القريض الثري ... ويُقفر روضُ القوافي الغرر
ليهدأ (عُمان) فغواصه ... أصيب وأمسى رهين الحفر
فقد كان يعتاده دائبًا ... بكوراً روُوحاً لنهب الدرر
يقول فيرخص در النحور ... ويغلي جُمان بنات الفكر
يسوق القصار فيأبى العثار ... وكم من مطيل مملٍّ عثر
قصارٌ وحسب النهى أنها ... لها معجزاتُ قصارُ السور
رحمت فقد كنت حلو اللسان ... جليّ البيان صدوقَ الخبر
قليلَ التعجب جمّ الأناة ... حكيم الورود حكيم الصدر

شمائلك الغرُّ هنّ الرياض ... روى عن شذاها نسيمُ السحر
لها مثل روح الدعاء استجيب ... فعافى وآوى وأغنى وسرّ
إذا ما وردتَ لها منهلاً ... وردتَ نميراً لذيذَ الخصر
وفكرك في خصبه ثروةٌ ... لفكر الأديب إذا ما افتقر
وشعرك كالماء في صفوه ... على صفحتيه تراءى الصور
عيون القصائد مثل العيون ... وشعرك فيهن مثل الحور
وكم لك شكوى هوى أو أسى ... لها نفثاتٌ تذيب الحجر
هتفت بها مرةً في الهجير ... فكاد يدبّ إليك الشجر
وكم كنت تشعل فحم الدجى ... بأنفاس صبٍّ طويل السهر
فيا ويح قلبك ماذا ألحّ ... عليه من الداء حتى انفطر
أيخفق تحت الدجى وحده ... لذكرى أليفٍ سلا أو هجر

***

إذا قيل (صبري) ذكرت (الوليد) ... ومرت بنفسيَ ذكرى (عمر)
يزين تواضعه نفسه ... كما زان حسنَ الملاح الخفر
زكيّ المشاعر عفُّ الهوى ... شهيّ الأحاديث حلو السمر
لقد كنت أغشاه في داره ... وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعري على مسمعٍ ... لطيفٍ يحسّ نبوّ الوتر
على سمع باقعةٍ حاضرٍ ... يميز القديم من المبتكر
فيصقل لفظيَ صقل الجمان ... ويكسوه رقة أهل الحضر

يرقرق فيه عبير الجنان فتستاف منه النهى والفكر
كذلك كان عليه السلام إماماً لكل أديبٍ شعر
فكنا الجداول نروي الظمآء ظمآء العقول وكان النهر

* * *

زهدتَ على شهرةٍ طبقت وجاهٍ أظلّ وفضلٍ بهر
خلعتَ الشباب فلم تبكه وساءك أنك لم تختضر
وقد ذقت طعم الردى عندما أصيب قطارك يوم السفر
فأقسمتَ أنك ألفيته لذيذَ المذاقة إذ تحتضر
تمنيت أن لم تعد للحياة ولكن أباها عليك القدر
وكم ساعةٍ بين ساع الحياة سقتك المرار بكأس الضجر
فرحت إلى أختها شاكياً أذاتك منها فكانت أمرّ
ففتشت أثناءها جاهداً بعينيْ بصيرٍ بعيد النظر
فلم ترَ فيها على طولها هنيهة صفوٍ خلت من كدر
وما زلت تشكو إلى أن أتت كما تشتهي ساعة لم تذر
فلاصدّ تخشاه بعد الوصال ولاضعف تشكوه بعد الأشر
أريح فؤادك مما ضناه وصدرك مما عليه انكدر
تمنيتها خطوةً للممات تفرج عنك كروب الغير
وها قد خطاها ونلت المنى فهل في الممات بلوغ الوطر
صدقت ففي الموت نصر الأبيّ على الدهر إن هو يوماً غدر

* * *

مللتَ الثوآءَ بدار الزوال فماذا رأيتَ بدار المقر
أَتحت التراب يضام الكريم ويشقى الحليم ويخفى القمر
ويهضم حقُّ الأديب الأريب ويطمسَ فضلُ النبيه الأغر
أتحت التراب تساق الشعوب بسوط العبودة سوقَ البقر
ويعقد مؤتمرٌ للسلام فتخرج منه إلى مؤتمر
فإن كان ما عندنا عندكم فليس لنا من شقآءٍ مفرّ

***

خضمُّ الحياة بعيد النجاة فطوبى لراكبه إن عبر
فعد سالمًا غانمًا للتراب كرأيك في الموت واهنأ وقرّ

الى واصف غالي بك

ياصاحبَ الروضة الغنآء هِجتَ بنا ذكرى الأوائل من أهلٍ وجيران
نشرتَ فضلَ كرامٍ في مضاجعهم جرّ الزمانُ عليهم ذيلَ نسيان
إني أحييك عنهم في جزيرتهم وفي العراق وفي مصرٍ ولُبنان
جلوت للغرب حسن الشرق في حلل لايستهين بها نساج (هرنان)

(*) ألقاها في الحفلة التي أقيمت لتكريم واصف غالي بك سنة ١٩١٤ بمناسبة تأليفه كتاباً بالفرنساوية عن الشعر العربي وتمدن العرب وإلقائه المحاضرات والخطب في فرانسا في هذا الموضوع ٠

ظنوكَ منهم وقد أنشأت تخطبهم ... بما عنا لك من سحرٍ وتبيان
ما زلت تبهرنا طوراً وتبهرهم ... حتى ادّعاك وحياك الفريقان
لولا اسرارك فازوا في ادعائهمُ ... (بواصفٍ) وخسرنا أيّ خسران
غرست من زهرات الشرق طائفةً ... في أرض (هيجو) فجاءت طرفة الجاني
(حديقة) لك لم نعهد لها شبهاً ... بين الحدائق في زهرٍ وأفنان
يحيي شذاها نفوسَ الوافدين وما ... مرّوا بوردٍ ولا طافوا بريحان
لكنها من أزاهير النهى جمعت ... مالا تُناخفه أزهار بستان
بالأمس كان لها شرقٌ تضوع به ... واليوم صار لها بالغرب شرقان
أسمعتهم من نسيب القوم فانطلقت ... شؤون كل شجيّ القلب ولهان
وزدتهم من كلام (البحتري) قطعاً ... مثلَ الرياض كستها كفُّ نيسان
سل (الفريد) (ولامارتين) هل جريا ... مع (الوليد) أو (الطائي) بميدان
وهل هما في سماء الشعر قد بلغا ... شأوَ النواسيّ في صوغٍ وإتقان
ودّا وقد شهدا بالحق أنهما ... في بيت (أحمد) لو يرضى نديمان
أمسى كتابك (كالسيما) يعيد لهم ... مرآى الحوادث مرّت منذ أزمان
قد شاهدوا فيه تحت النقع عنترةً ... يصارع الموت عن عبسٍ وذبيان
وشاهدوا أسداً يمشي إلى أسدٍ ... كلاهما غيرُ هيابٍ ولا واني
هذا من العرب لا يلوي به فزعٌ ... وذاك أروعُ من آساد خفان
لله درُّ يراعٍ أنت حامله ... لو كانَ في أنملي يوماً لأغناني
وقفت تدفع عن آدابنا تهماً ... كادت تقوّض منها كلَّ بنيان

فكنت أول مصريٍّ أقام لهم … على نبالة مصر ألفَ برهان
ما زلت تلقي على أسماعهم حججاً … في كل نادٍ وتأتيهم بسلطان
حتى انثنيت وما في الغرب مجترىءٌ … على البناء ولا زارٍ على الباني
محوت ما كتبوا عنا بقاطعةٍ … من البراهين فلت قول (رينان)
أنحى على الأدب الشرقي مفترياً … عليه ما شاء من زورٍ وبهتان
ظن الحقيقة في الأشعار تنقصنا … واللفظَ والقصدَ والتصوير في آن
وأننا لم نصل فيها إلى مئةٍ … عداً وذاك لعيٍّ أو لنقصان
ولو رأى (ابن جريج) في قصائده … لقال آمنت في سري وإعلاني

***

مالي أفاخر بالموتى وبين يدي … من شعر أحيائنا ما ليس بالفاني
في شعر (شوقي) و(صبري) ما نتيه به … على نوابغهم دع شعر (مطران)
بوركت يا ابن الوزير الحر من رجل … لم يختلف فيه أو في فضله اثنان
بلغ إذا جئت باريزاً أفاضلها … عنا التحيات واشفعها بشكران
وخص كاتبهم (جولا) بأطيبها … كيما نقابل إحساناً بإحسان
واجعل لسفرك ذيلاً في شواعرنا … وقف لهن هناك الموقف الثاني
وانثر على الغرب من تلك الحلى وأشد … بكل حسانةٍ فينا وحسان
وعد إلى الشرق عودَ الفاتحين له … وخذ مكانك فيه فوق كيوان
واشكر رعايةَ (عباسٍ) ومنته … واشرح ولاءك يا (غالي) لعثمان
واضرع إلى الله أن يرعى أريكتنا … مرفوعةَ الشأن ما مر الجديدان

في حفلة تكريمه

ملكتم عليّ عِنانَ الخطب ۝ وجزتم بقدري سماءَ الرتب
فمن أنا بين ملوكِ الكلام ۝ ومن أنا بين كرام الحسب
أتسعى إليّ حماة القريضِ ۝ وتمشي إليّ سراةُ العرب
وتنظم فيّ عقود الجمان ۝ وتنثر فوقي نثارَ الذهب
وأُكرَم حتى كأني نبغت ۝ وقمت لمصر بما قد وجب
فماذا أتيت من الباقيات ۝ وهذا شبابي ضياعاً ذهب
عملت لقوميَ جهدَ المقلّ ۝ على أنه عملٌ مقتضب (١)
فلم يغنِ شيئاً ولم يجدِهم ۝ ولم يبقَ إلا بقاءَ الحبب
وهل أنا إلا امرؤ شاعرٌ ۝ كثيرُ الأماني قليل النشب
يقول ويطرب أترابه ۝ ويقنع منهم بذاك الطرب
تعلقت حيناً بذيل البيان ۝ وأدخلت نفسيَ في من كتب
فلا السبقُ لي في مجال النهى ۝ ولا ليَ يوم الفخار الغلب
ولا أنا من علية الكاتبين ۝ ولا أنا بالشاعر المنتخب
ولكن سما بيَ عطف الأمير ۝ ورأي الوزير وفضلُ الأدب
وما كنت أحلم لولا الوزيرُ ۝ بهذا الهناء وهذا اللقب
عليّ أيادٍ له جمةٌ ۝ وفضلٌ قديمٌ شريف السبب

---

(١) إشاره إلى ترجمته «البؤساء» وعدم إتمامه

فآناً أقال به عثرتي ... وأورى زنادي وآناً وهب
تفيأت منه ظلالَ النعيم ... وأصبحت أعرف لبس القصب
وأمشي اختيالاً إلى (عابدين) ... يطالعني بدرُها عن كثب
وألثم كفّ كريم الجدود ... غياثِ العفاةِ مزيل الكرب
واحتثّ بين وفود السراة ... مطايا الرجآء لذاك الرحب
أتوا خالصين لوجه الأمير ... فلا عن ريآءٍ ولا عن رهب
لهم ما يشآؤون من ربهم ... رضآءُ الأمير ونيل الأرب
وللكاشحين نكالُ الزمان ... ونحسُ النجوم ذوات الذنب
فعهدُ الأمير كعهد الرشيد ... يمتُّ إليه بحبل النسب

***

إليك (أبا حسنٍ) أنتمي ... فما زلّ مولى إليك انتسب
عرفتَ مكاني فأدنيتني ... وشرفت قدري بدار الكتب
وعرّفت دهري مقام الأديب ... وقد كان دهري شديد الكلب
فلو أن لي مرقصات (الخليل) ... وإعجازَ (شوقي) إذا ما رغب
لقمت بشكرك حقّ القيام ... ولكن طلبت فعزّ الطلب
فشكري لصنعك شكر النبات ... ببطن الفلاة لقطر السحب
وشكراً لشوقي رسول القريض ال ... كريم الإخآء المتين السبب
وشكراً (لداود) ربّ اليراع ... وشكراً (لسركيس) ربّ العجب
وشكراً لكل كريمٍ سعى ... إليّ وكلِّ أديبٍ خطب

هُمُ شجعوني على أن أقول ... وما كان لي بينهم مضطرَب
هُمُ ألهموني فصيحَ الكلام ... هُمُ علموني طريق النخب
فعنهم أخذت وعنهم صدرت ... ومن عندهم فضليَ المكتسب
فحيوا عزيزَ البلاد الذي ... على السحب ذيل المعالي سحب
وحيوا (سعيداً) وزير الأمير ... قريبَ الصواب بعيد الغضب
تولى الرئاسة والحادثات ... تروع النفوسَ بوقع النوب
فساس البلاد وأرضى العباد ... وأرضى الأمير وأرضى الأدب

رثاء الشيخ علي يوسف

صونوا يراعَ (عليٍّ) في متاحفكم ... وشاوروه لدى الأرزاء والنوَب
واستلهموه إذا ما الرأي أخطأكم ... يوم النضال عن الأوطان والنشب
قد كان سلوةَ مصرٍ في مكارهها ... وكان جمرةَ مصرٍ ساعةَ الغضب
في شقه وَمراميه وريقته ... ما في الأساطيل من بطش ومن عطب
كم ردَّ عنا وعينُ الغرب طامحةٌ ... من الرزايا وكم جلى من الكرب
له صريرٌ إذا جدَّ النزال به ... ينسي الكماة صليل البيض والقضب
ماضرَّ من كان هذا في أنامله ... أن يشهد الحرب لم يسكن إلى يَلَب
فلو رآه (ابن أوس) ما قرأت له ... «السيف أصدق أنباء من الكتب»
ألا فتى عربيٌّ يستقلُّ به ... بعد الفقيد ويحمي حوزة الأدب

ويمنع الحق أن يغشى تبلجه ... مافي السياسة من زورٍ ومن كذب
أودى فتى الشرق بل شيخ الصحافة بل ... شيخ الوفائية الوضاحة الحسب
أقام فينا عصاميًّا فعلمنا ... معنى الثبات ومعنى الجد والدأب
وراح عنا ولم تبلغ عزائمنا ... مدى مناها ولم تقرب من الأرب
قالوا عجبنا لمصرٍ يوم مصرعه ... وقد عجبت لهم من ذلك العجب
إن الألى حسبوها غير جازعةٍ ... لا ينظرون إلى الأشياء من كثب
تالله ما جهلت فيه مصيبتها ... ولا الذي فقدت من كاتب العرب
لكنها ألفت والأمر يحزبها ... فقد الرجال وموت السادة النجب
وعلمتها الليالي أن تصابرها ... في الحادثات وإن أمعن في الحرب
كم أرجفوا بعد موت الشيخ وارتقبوا ... موت (المؤيد) فينا شرَّ مرتقب
وإن يمت تمت الآمال في بلدٍ ... لولا (المؤيد) لم ينشط إلى طلب
صبابةٌ من رجاءٍ بين أضلعنا ... قد بات يرشف منها كلُّ مغتصب
ألم يكن لبني مصرٍ وقد دهموا ... من ساسة الغرب مثل المعقل الأشب
كم انبرت فيه أقلامٌ وكم رفعت ... فيه منائر من نظمٍ ومن خطب
وكان ميدان سبق للألى غضبوا ... للدين والحق من داعٍ ومحتسب
فكم يراعٍ حكيم في مشارعه ... قد التقى بيراع الكاتب الأرب
أي الصحائف في القطرين قد وسعت ... ردَّ (الإمام) مزيل الشك والريب
أيام يحصب (هانوتو) بفريته ... وجهَ الحقيقة والإسلام في نحب
مالي أعدّد آثارَ الفقيد لكم ... والشرق يعرف رب السبق والغلب

لولا (المؤيد) ظل المسلمون على　　تناكر بينهم في ظلمة الحجب
تعارفوا فيه أرواحاً وضمهمُ　　رغم التنائي زمامٌ غير منقضب
في مصر في تونس في الهند في عدن　　في الروس في الفرس في البحرين في حلب
هذا يحنّ إلى هذا وقد عقدت　　مودةٌ بينهم موصولةُ السبب
أبا (بثينة) نم يكفيك ما تركت　　فينا يداك وما عانيت من تعب
جاهدت في الله والأوطان محتسباً　　فارجع إلى الله مأجوراً وفز وطب
واحمل بيمناك يوم النشر ما نشرت　　تلك الصحيفة في دنياك وانتسب

رثاء الدكتور شميل

سكن الفيلسوفُ بعد اضطراب　　إن ذاك السكونَ فصلُ الخطابِ
لقيَ اللهَ ربه فاتركوا المر　　ءَ لديّانه فسيحَ الرحابِ
حزن العلمِ يوم متّ ولكن　　أمن الدينُ صيحةَ المرتاب
كنت تبغي بَرْدَ اليقين على الأر　　ض وتسعى وراءَ لب اللباب
فاسترح أيها المجاهد واهدأ　　قد بلغت المراد تحت التراب
وعرفتَ اليقينَ وانبلج الحق　　لعينيك ساطعاً كالشهاب
ليت شعري وقد قضيت حياةً　　بين شكٍّ وحيرةٍ وارتياب
هل أتاك اليقين من طرق الشكِّ　　فشكُّ الحكيم بدءُ الصواب
كم سمعنا مُسائلاً قبل (شبلي)　　عاش في البحث طارقاً كل باب

أطلقَ الفكرَ في العوالم حرًّا مستطيراً يريغ هتكَ الحجاب
يقرع النجمَ سائلاً ثم يرتدُّ إلى الأرض باحثًا عن جواب
أعجزته من قدرة الله أسبا بٌ طواهــا مسببُ الأسباب
وقفت دونها العقولُ حيارى وانثنى هِبرزِيُّهـا وهو كابي
لم يكن ملحداً ولكن تصدى لشؤون المهيمن الوهــاب
رام إدراك كنه ما أعجز النا س قديمــاً فلم يفز بالطلاب

***

إيه شبلي قد أكثر الناس فيك الـ قول حتى تفننوا في عتابي
قيل ترثي ذاك الذي ينكر النو ر ولا يهتدي بهدي الكتاب
قلت كفُّوا فإنمــا قمت أرثي منه خلاً أمسى طويلَ الغياب
أنا والله لا أحابيه في القو ل فقد كان صاحبي لا يحابي
أنا أرثي شمائلاً منه عنـدي كنَّ أحلى من الشهاد المذاب
كان حرَّ الآراء لا يعرف الختـ ل ولا يستبيح غيبَ الصحاب
مفضلٌ محسن على العسر واليسـ ر جميع الفؤاد رحب الجناب
عاش ما عاش لا يليق على الأيـــام مالاً ولم يلن للصعاب
كان في الود موضع الثقة الكبـ رى وفي العلم موضعَ الإعجاب
نكب الطبُّ فيه يوم تولى وأصيبت روائع الآداب
وخلا ذلك النـديُّ من الأنـ س وقد كان مرتع الكتاب
وبكت فقدَه الشآمُ ونآءت فوق ما نابها بهــذا المصاب

كل يوم يُهدُّ ركنٌ من الشا ... م لقـد آذنت إذاً بالخراب

فهي باليازجي وجرجي وشبلي ... فجعت بالثـلاثة الأقطاب

فعـلى الراحل الكريم سلام ... كلما غيَّب الثرى ليث غاب

ذكرى شكسبير

يحييك من أرض الكنانة شاعرٌ ... شَغوفٌ بقول العبقريين مغرم

ويطربه في يوم ذكراك أن مشت ... إليك ملوك القول عرب وأعجم

نظرت بعين الغيب في كل أُمة ... وفي كل عصر ثم أنشأت تحكم

فلم تخطئْ المرمى ولا غرو إن دنت ... لك الغاية القصوى فإنك ملهم

أفق ساعة وانظر إلى الخلق نظرة ... تجدهم وإن راق الطلاء هم هم

على ظهرها من شر أطماعهم دم ... وفوق عباب البحر من صنعهم دم

تفانوا على دنيا تغرُّ وباطـل ... يزول إلى أن ضجت الأرض منهم

فليتك تحيي يا أبا الشعر ساعـةً ... لتنظر ما يُصمي ويدمي ويؤلم

وقائع حرب أجج العلم نارها ... فكاد بها عهد الحضارة يختم

وتعلمَ أن الطبع لا زال غالبًا ... سواء جهول القوم والمتعـلم

وختام القصيدة :

فقل لبني التاميز والجمع حافل ... به ينثر الدرُّ الثمين وينظم

لئن كان في ضخم الأساطيل فخركم ... لفخركمُ بالشاعر الفرد أعظم

رثاء محمد بك فريد

من ليوم نحن فيه من لغدٍ ... مات ذو العزمة والرأي الأسدّ

وبدا شعري على قرطاسه ... لوعةً سالت على دمعٍ جمد

أيها النيل لقد ملّ الأسى ... كن مداداً لي إذا الدمع نفد

واذبلي يازهرةَ الروض ولا ... تبسمي للطلّ فالعيش نكد

والزم النوحَ أياطير ولا ... تبتهج بالشدو فالشدوُ حدد

فلقد ولى (فريدٌ) وانطوى ... ركنُ مصرٍ وفتاها والسند

خالدَ الآثار لا تخشَ البلى ... ليس يبلى من له ذكرٌ خلد

زرتَ (برلين) فنادى سمتها ... نزلت شمس الضحى برج الأسد

واختفت شمسك فيها وكذا ... تختفي في الغرب أقمارُ الأبد

يا غريبَ الدارِ والقبرِ ويا ... سلوة النيل إذا ما الخطبُ جدّ

وحساماً فلّ حديه الردى ... وشهاباً ضاءَ وهناً وخمد

قل لصب النيل(١) إن لاقيته ... في جوار الدائم الفرد الصمد

إن مصراً لا تني عن قصدها ... رغم ما تلقى وإن طال الأمد

جئت عنها أحمل البشرى إلى ... أول البانين في هذا البلد

فاسترح واهنأ ونم في غبطةٍ ... قد بذرت الحبّ والشعب حصد

(١) هو مصطفى كامل باشا

رثاء السلطان حسين

دكّ ما بين ضحوةٍ وعشيّ   شامخٌ من صروح آل عليّ
وهوى عن سماوة العرش مِلكٌ   لم نمتع بعهدهِ الذهبي
قد تساءلت يوم مات حسين   أفقدنا بفقده كل شيّ
أم ترى يسعد الكنانة باريـ   ـها ويقضي لها بلطفٍ خفي
لم تكد تدرك النفوس مراداً   في زمان المتوَّج العلوي
لم تكد تبلغ البلاد مناها   تحت أفياء عدله الكسروي
لم يكد ينعم الفقير بعيشٍ   من نداهُ وفيضه الحاتمي
حجب الموت مطلع الجود يا مصـ   ـر فجودي لهُ بدمع سخي
ومضى واهب الألوف فولت   يوم ولَّى بشاشة الأريحي
وقضى كافل اليتامى فويلٌ   لليتامى من الزمان العتي
كم تمنى لو عاش حتى يرانا   أمةً ذات مَنعةٍ ورقي
غالهُ الضعف حين شمر للإصـ   ـلاح في ملكه بعزمٍ فتي

***

حبس الخطب فيك ألسنة القو   ل وأعيى قريحة العبقري
وإذا جلَّت الخطوب وطمت   أعجزت في القريض طوق الروي
إن شر المصاب ما أطلق الدمـ   ـع وراع المفوَّهين بعي
لهف نفسي على انبساطك للضيـ   ـف وذيالك الحديث الشهي

يحسب الدار داره وهو يمشي فوق زاهي بساطك الأحمديّ
خلقٌ مثلما نشقتَ أريج الز هر جادته زورة الوسمي
واهتزازٌ للعرف مثل اهتزاز السـ يف في قبضة الشجاع الكمي
وحيـاء عند العطية ينفي خجل السائل الكريم الأبي
واختبارٌ يثني عنان العوادي ووقارٌ يزين صدر الندي
رحم الله يا حسين خلالاً فيك لم يجتمعن في نفس حي
يا كريماً حللت ساح كريمٍ وضعيفاً حللت ساح القوي
قد كفاك السهاد في العيش فاهنأ يا أليف الضنى بنومٍ هني
ويح مصر فأي خيط رجاء قطعته رنات صوت النعي

باني الهرم

سخر العلمَ ليبني آيةً فوق شط النيل تبدو كالعلمْ
هي ذكر خالد لكنهُ عابس الوجه إذا الذكر ابتسم
كلُّ ما فيها على إعجازها أنها قبرٌ لجبار حطم
ليته سخر ما في عهده من قوى في غير تقديس الرمم
من فنون أعجزت أطواقنا وعلوم عندها الفهم وجم
وبنانٍ مبدعات صوّرت أوجهَ العذر لعباد الصنم
أبدعت ما أبدعت ثم انطوت وعلى أسرارها الدهر ختم

رثاء باحثة البادية

ملكَ النهى لا تبعدي ... فالخلقُ في الدنيا سفر
إني أرى لكِ سيرةً ... كالروض أرّجه الزهر
ربى أبوك الناشئيـ ... ن فعاش محمودَ الأثر
وسلكتِ أنت سبيلـه ... في الناشئات من الصغر
ربيتهنّ على الفضيـ ... لة والطهارة والخفر
وعلى اتباع شريعةٍ ... نزلت بها آيُ السوَر
فلبيتكم فضلٌ على الـ ... أحياء أنثى أو ذكر
لله درّكِ إن نثر ... تِ ودرُّ (حفني) أو نثر

* * *

قد كنتِ زوجاً طبةً ... في البدو عاشت والحضر
سادت على أهل القصو ... ر وسوّدت أهل الوبر
غربيةٌ في علمها ... مرموقة بين الأسر
شرقيةٌ في طبعها ... مخدورة بين الحجر
بينا تراها في الطرو ... س تخطّ آياتِ العبر
وتريك حكمة نابهٍ ... عرك الحوادث واختبر
فإذا بها في مطبخٍ ... تطهي الطعام على قدَر

وإذا بها قعدت تخيـ ط وترنضي وخز الإبر
فخرت بوالدها ووا لدها بحليتها افتخر
بالعلم حلت صدرها لا باللآلئ والدرر
فانظر شمائل فكرها بالله يوم (المؤتمر)
واقرأ محاضرة (الجريـ دة) والمقالات الغرر
وارجع إلى ما أودعت عند المجلات الكبر
تعلم بأنا قد فقد نا خيرَ ربات الفكر
ذنب المنية في اغتيا ل شبابها لا يغتفر
ياليتهـا عاشت لمصـ ر ولم تغيبها الحفر
كانت مثالاً صالحًا يُرجى و كنزاً يُدَّخر
إني رأيت الجـاهلا تِ السافراتِ على خطر
ورأيت فيهنَّ الصبـا نة والعفاف على سفر
لا وازع — وقد انطوت ملكٌ — يقيهن الضرر

* * *

لا كان يومك يوم لا ح الحزن مختلفَ الصور
علمتِ هاتفةَ القصو ر نواحَ هاتفةِ الشجر
وتركتِ أتراب الصبا حزنًا يقطن الشعر
يبكين عهدك في الصبا ح وفي المساء وفي السحر
وتركتِ شيخك لا يعي هل غاب زيد أو حضر

ثملاً ترنحـه الهمو م إذا تحامل أو خطر
كالفرع هزّته العوا صف فالتوى ثم انكسر
أو كالبناء يريد أن ينقضّ من وقع الخبر
قد زعزعته يدُ القضا ء وزلزلته يدُ القدر
أنا لم أذق فقد البنيـ ن ولا البنات على الكبر
لكنني لما رأيـ ت فؤاده وقد انفطر
ورأيته قد كاد يحـ رق زائريه إذا زفر
وشهدته أنّى خطا خطواً تخبل أو عثر
أدركت معنى الحزن حز ن الوالدين كما أمر
وشهدت زوجك مطرقاً مستوحشاً بين السمر
كالمدلج الحيران في الـ بيداء أخطأه القمر
فعلمتُ أنك كنت رِعة د هنائه وقد انتثر
صبراً أبا ملكٍ فإن الباقيات لمن صبر
وبقدر صبر المبتلى طول المصيبة والقصر
كن أنت أنت إذا تُسا ء كأنت أنت إذا تُسرّ

***

يا برّةً بالوالديـ ن أبوكِ بعدك لا يقرّ
فسلي إلهك سلوةً لأبيك فهو به أبرّ
وليهنك الخدر الجديـ د فذاك دار المستقر

رثاء الطبيبين

إبراهيم حسن باشا ومحمد شكري باشا

لا مرحباً بك أيهذا العامُ   لم يُرْعَ عندك للأُساة ذمام
في مستهلك رُعتنا بمآتمٍ   للنافعين من الرجال تقام
علمان من أعلام مصرَ طواهما   فيك الردى فبكتهما الأهرام
غيبت (شكري) وهو نابه عصره   وأصبت (إبراهيم) وهو إمام
خدما ربوع النيل في عهديهما   والطبُّ نبتٌ لم يَجُده غمام
والناسُ بالغربيِّ في تطبيبه   ولعوا على بعدِ المزار وهاموا
حتى انبرى (شكري) فأثبت سبقه   أن ابنَ مصرَ مجرِّبٌ مقدام
وأقام (إبراهيم) أبلغ حجةٍ   أن العرين يحله ضرغام
وترسمَ المتعلمون خُطاهما   فانشقَّ من علميهما أعلام
قد أقسموا للطب أن يسموا به   فوق السماك فبرَّتِ الأقسام
وغدت ربوع الطب تحكي جنةً   فيها (لبقراط) الحكيم مقام
ورأى عليلُ النيل أن أُساته   برُّوا الأُساةَ فلم يرُعه سقام
يا مصر حسبك ما بلغت من المنى   صدق الرجاءُ وصحت الأحلام
ومشى بنوك كما اشتهيت إلى العلى   وعلى الولاء كما علمت أقاموا
ومددتِ صوتك بعد طول خفوته   فدعا بعافيةٍ لك الإسلام

ورفعت رأسك عند مفتخر النهى ... بين الممالك حيث تحنى الهام

* * *

كم فيك جراح كأن يمينه ... عند الجراحة بلسمٌ وسلام

قد صيغ مبضعه وإن أجرى دماً ... من رحمةٍ فجريحه بسام

وموفق جم الصواب إذا التوى ... دآء العليل وحارت الأفهام

يلقي بسمعٍ لا يخون إذا هفت ... أذنٌ وخان المسمعين صمام

وإذا عضالُ الدآء أبهم أمره ... عرفت خفيَّ دبيبه الإبهام

يستنطق الآلامَ وهي دفينةٌ ... خرسآءُ حتى تنطق الآلام

كم سلَّ من أيدي المنايا أنفساً ... وثنى عنانَ الموت وهو زؤام

ومطبب للعين يحمل ميله ... نوراً إذا غشي العيونَ قتام

وكأن إثمده ضيآءُ ذرّه ... (عيسى بن مريم) فانجلى الإظلام

ومطبب للطفل لم تنبت له ... سنٌّ ولم يدرج إليه فطام

يشكوا السقام بناظريه وماله ... غير التفزز والأنين كلام

فكم استشفَّ وكم أصاب كأنما ... في نظرتيه الوحيُ والإلهام

ومولد عرف الأجنةُ فضله ... إن أعسرت بولادها الأرحام

كم قد أنار لها بحالكة الحشا ... سبلاً تضل سلوكها الأوهام

لولا يداه سطا على أبدانها ... كرب المخاض وشفها الإيلام

فبهؤلآء الغرّ يا مصر اهنئي ... فبمثلهم تتفاخر الأيام

وعلى طبيبيك اللذين رماهما ... رامي المنونِ تحيةٌ وسلام

رثاء علي باشا ابي الفتوح

جلّ الأسى فتجملي وإذا أبيتِ فأجملي
يامصرُ قد أودى فتا كِ ولا فتى إلا علي
قد مات نابغة القضا ء وغاب بدرُ المحفل
وعدا القضاءُ على القضا ء فصابه في المقتل
حلاّلُ عقد المعضلا ت قضى بداءٍ معضل
ويح الكنانة مالها في غمرةٍ لا تنجلي
باتت وكارثةٌ تمرّ بها وكارثةٌ تلي

* * *

يا زهرةَ الماضي ويا ريحانة المستقبل
كنا نعدّك للشدا ئد في الزمان المقبل
يا لابس الخلق الكريـ م المطمئن الأمثل
فارقتنا في حين حا جتنا ولم تتمهل
يا راميًا صدر الصعا ب رماك رامي الأجدل
يا حافظًا غيبَ الصديـ ق ويا كريمَ المقوَل
أيُّ المحامد غضةً بجلالك لم تتجمل
تلهو لداتك بالصبا لهواً وأنت بمعزل

تسعى وراء الباقيا ت الصالحات وتعتلي

بين المحابر والدفا تر دائباً لا تأتلي

أدركتَ علم الآخري ن وحزتَ فضل الأول

أدنى مرامك همة فوق السماك الأعزل

وأجلُّ قصدك أن ترى مصراً تسود وتعتلي

دَرَجَ الأحبةُ بعد ما تركوا الأسى والحزن لي

لم يحلُ لي من بعدهم عيشٌ ولم أتعلل

لي كلّ عام وقفةٌ حرّى على مترحل

أبكي بكاء الثاكلا ت وأصطلي ما أصطلي

لم يبقَ في يوم الفقيـ ـد عزيمةٌ لم تُفلل

يوم عبوسٌ قد مضى بفتى أغرّ محجل

من لم يشاهد هوله عند القضاء المنزل

لم يدرِ ما قصم الظهو ر ولا انخزال المفصل

* * *

يا قبرُ ويحك ما صنعـ ـتَ بوجهه المتهلل

عبست منه نضارةً كانت رياضَ المجتلى

وعبثت منه بطرةٍ سوداء لما تنصل

يا قبر هل لعب البلى بلطاف تلك الأنمل

لهفي عليها في الطرو س تسيل سيل الجدول

لهفي عليها في الجدا ... ل تحلُّ عَقد المشكل
لهفي عليها للرجآ ... ء وللعفاة السؤل
يا قبرُ ضيفك بيننـا ... قد كان خيرَ مؤمل
لم ينقبض كبراً بنـا ... ديه ولم يتبـذل
إني حللتُ رحابه ... فنزلت أكرمَ منزل
ونهلت من أخلاقه ... فوردت أعذب منهل

الطيارة العثمانية

أختَ الكواكب ما رما ... كِ وأنتِ رامية النسور
ماذا دهـاكِ وفوق ظهـ ... ـرِك مربض الأسدالهصور
(فتحي) وهل لي إن سألـ ... ـتُ عن المصيبة من مجير
ويلاه هل جُزْتَ الحدو ... د وأنتَ مخترقُ الستور
فرماك حرّاس السـما ... ء وتلك قاصمةُ الظهور
حاولتَ أن تردَ المجرّ ... ة والورودُ من العسـير
فوردتَ يا (فتحي) الحِما ... مَ وأنت منقطع النظير
وهوَيتَ من كبد السما ... ء وهكذا مهوى البدور
إن كان أعياك الصعو ... دُ بذلك الجسد الطهور
فاسبح بروحك وحدهـا ... واصعد إلى الملك الكبير

رثاء جرجي زيدان

دعاني رفاقي والقوافي مريضةٌ وقد عقدتْ هوجُ الخطوب لساني
فجئت وبي ما يعلم اللهُ من أسى ومن كمدٍ قد شفني وبراني
مللت وقوفي بينكم متلهفاً على راحلٍ فارقته فشجاني
أفي كل يوم يبضع الحزن بضعةً من القلب إني قد فقدتُ جناني
كفانيَ ما لقيتُ من لوعةِ الأسى وما نابني يوم (الإمام) كفاني
تفرق أحبابي وأهلي وأخرت يدُ الله يومي فانتظرت أواني
ومالي صديقٌ إن عثرت أقالني ومالي قريبٌ إن قضيت بكاني
أراني قد قصرت في حق صحبتي وتقصيرُ أمثالي جنايةُ جاني
فلا تعذروني يوم (فتحي) فإنني لأعلم ما لا يجهل الثقلان
فقد غاب عنا يوم غاب ولم يكن له بين هالات النوابغ ثان
وفي ذمتي (لليازجيّ) وديعةٌ وأخرى (لزيدان) وقد سبقاني
فياليت شعري ما يقولان في الثرى إذا التقيا يوماً وقد ذكراني
وقد رميا بالطرف بين جموعكم ولم يشهدا في المشهدين مكاني
أيحمل بي هذا العقوقُ وإنما على غير هذا العهدِ قد عرفاني
دعاني وفائي يوم ذاك فلم أكن ضنيناً ولكنّ القريضَ عصاني
وقد تخرس الأحزان كلَّ مفوّهٍ يصرّف في الإنشاد كلَّ عنان

أأنساهما والعلمُ فوق ثراهما … تنكس من أعــلامه علمان
وكم فزت من رب (الهلال) بحكمة … وكم زنت من رب (الضياء) بياني
(أزيدان) لا تبعد وتلك علالة … ينادي بها الناعون كلّ حسان
لك الأثر الباقي وإن كنتَ نائياً … فأنت على رغم المنية داني
ويا قبرَ زيدانٍ طويت مؤرخاً … تجلى له ما أضمر الفتيان
وعقلاً وَلوعــاً بالكنوز فإنه … على الدرّ غواصٌ ببحر عُمان
وعزماً شآمياً له أينما مضى … شبا هندوانيٍّ وحــدُّ يماني
وكفاً إذا جالت على الطرس جولةً … تمايل إعجاباً بهــا البلدان
أشادت بذكر الراشدين كأنما … فتى القدس ممن ينبت الحرمان
سألتَ حُماةَ النثر عدّ خلاله … فمالي بما أعيى القريض يدان

رثاء الدكتور صروف

أبكي وعين الشرق تبكي معي … على الأريب الكاتب الألمعي
جرى عصيُّ الدمع من أجله … فزاد في الجود على الطيع
نقصٌ من الشرق ومن زهوه … فقدُ اليراع المعجز المبدع
ليس لمصرٍ في رجالاتها … حظٌّ ولا للشام في أروع
مصاب صروف مصاب النهى … فليبكه كل فؤادٍ يعي
كُرِّم بالأمس وأكفانه … تنسجها الأقدار للمصرع

يا صائغ الدر لتكريمه ... صغه لمنعاه من الأدمع
قد زين العلم بأخلاقه ... فعاش ملء العين والمسمع
تواضعٌ والكبر دأب الفتى ... خلا من الفضل فلم ينفع
تواضعُ العلم له روعةٌ ... ينهار منها صلفُ المدعي
وحلة الفضل لها شارةٌ ... أزهى من السيفين والمدفع
يشبع من حصل من علمه ... وهو من التحصيل لم يشبع
مبكراً تحسبه طالباً ... يسابق الفجر إلى المطلع
قد غالت الأسقام أضلاعه ... والرأس في شغل عن الأضلع
مات وفي أنمله صارمٌ ... لم ينبُ في الضرب عن المقطع
صاحبه خمسين عاماً فلم ... يخن له عهداً ولم يخدع
موفقٌ أنى جرى ملهمٌ ... ماضلّ في الورد عن المشرع
لم يبرِه بارٍ سوى ربه ... ولم يجزه جاهلٌ أو دعي
في النقل والتصنيف أربى على ... مدى ابن بحر ومدى الأصمعي
أي سبيلٍ للهدى لم يَرِد ... وأي باب منه لم يقرع
يقتطف الزهر ويختاره ... كالنحل لا يعفو عن الأينع
فتحسب القرآء في جنةٍ ... عقولهم في روضها ترتعي
(صرّوف) لا تبعد فلست الذي ... يطويه طاوي ذلك المضجع
أسكتك الموت ولكنه ... لم يسكت الآثار في المجمع
ذكراك لا تنفكُّ موصولةً ... في معهد العلم وفي المصنع

الى العالم الجديد

أي رجال الدنيا الجديدة مُدُّوا ... لرجال الدنيا القديمة باعا

وأفيضوا عليهمُ من أيادي ... كم علوماً وحكمةً واختراعا

كلَّ يومٍ لكم روائعُ آثا ... رِ تتوالون بينهن تباعا

كم خلبتم عقولنا بعجيبٍ ... وأمرتم زمانكم فأطاعا

وبذرتم في أرضنا وزرعتم ... فرأينا ما يعجب الزراعا

ولمحنا من نوركم في نواصي ... حفلة اليوم لمعةً وشعاعا

وشهدنا من فضلكم أثراً في ... ها يروق العيونَ والأسماعا

ليتنا نقتدي بكم أو نجاري ... كم عسى نستردّ ما كان ضاعا

إن فينا لولا التخاذل أبطا ... لاً إذا ما همُ استقلوا اليراعا

وعقولاً لولا الخمول تولا ... ها لفاضت غرابةً وابتداعا

ودعاةً للخير لو أنصفوهم ... ملأوا الشرق عزةً وامتناعا

كاشفَ الكهرباء ليتك تُعنى ... باختراعٍ يروض منا الطباعا

آلة تسحق التواكل في الشر ... ق وتلقي عن الرياء القناعا

قد مللنا وقوفنا فيه نبكي ... حسباً زائلاً ومجداً مضاعا

وسئمنا مقالهم كان زيدٌ ... عبقريًّا وكان عمرو شجاعا

ليت شعري متى تُنازع مصرٌ ... غيرَها المجد في الحياة نزاعا

ونراها تفاخر الناس بالأحـ ... يآء فخراً في الخافقين مذاعا
أرض كولومب أي نبتيك أغلى ... قيمة في الملا وأبقى متاعا
أرجال بهم ملكت المعالي ... أم نضارٌ به ملكت البقاعا
لاعداك السمآء والخصب والأمـ ... ـن ولا زلت للسلام رباعا
طالعي الكون وانظري ما دهاه ... إن ركن السلام فيه تداعى

الى غليوم الثاني

لله آثارٌ هناك كريمة ... حسدت روائع حسنها (برلين)
طاحت بها تلك المدافع تارةً ... لما أمرت وتارةً (زبلين)
ماذا رأيت من النبالة والعلى ... في عدمهنّ وكلهنّ عيون
لو أن في (برلين) عندك مثلها ... لعرفت كيف تجلها وتصون
إن كنت أنت هدمت رمس فإنه ... أودى بمجدك ركنها الموهون
لم يغن عنها معبدٌ خربته ... ظلماً ولم يمسك عنانك دين
لا تحسبنّ الفخر ما أحرزته ... الفخر بالذكر الجميل رهين
هل شدت في برلين غير معسكر ... قامت عليه معاقلٌ وحصون
وجمعت شعبك كله في قبضة ... إن لم تكن لانت فسوف تلين
نظمت تجارتك المدائن والقرى ... فالنيل نآء بها ونآء (السين)
فبكل أرض من رجالك عصبةٌ ... وبكل بحر من لدنك سفين

نسري ونسرك أين لحنَ يظلها	لا الليث يزعجها ولا التنين
فالأمرُ أمرك والمهندُ مغمدٌ	والنهيُ نهيك والسرى مأمون
قد كان في (برلين) شعبك وادعاً	يستعمر الأسواق وهي سكون
فتحت له أبوابهـا فسبيله	وقفٌ عليه ورزقه مضمون
فعلامَ أرهقتَ الورى وأثرتها	شعواء فيها للهلاك فنون
تالله لو نصرت جيوشك لانطوى	أجلُ السلام وأقفر المسكون
سبعون مليوناً إذا وزّعتها	بين الحواضر نالنا مليون
ويلٌ لمن يستعمرون بلاده	القحطُ أيسرُ خطبه والهون
أكثرت من ذكر الإله تورّعاً	وزعمتَ أنك مرسلٌ وأمين
عجباً أتذكره وتملأ كونه	ويلاً لينعم شعبك المغبون
وكذلك القصابُ يذكر ربه	والنصلُ في غمد الذبيح دفين

تم القسم الأول في شاعر النيل

ويليه

القسم الثاني في أمير الشعراء

مطبوعات

المكتبة العربية لأصحابها عبيد إخوان بدمشق — صندوق البريد ١٩

قرش مصري	
١٢٠	تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧ أجزاء للشيخ عبد القادر بدران
٢٠	〃 〃 〃 〃 الجزء الثامن (تحت الطبع)
٦٠	النشر في القراآت العشر لابن الجزري جزآن
٢٥	مشاهير شعراء العصر (الأول في شعراء مصر) جمعه وشرحه أحمد عبيد
٣٠	روضة المحبين لابن قيم الجوزية صححها وعلق عليها 〃 〃
٢	أحكام النظر (مجردة من روضة المحبين) 〃 〃 〃 〃 〃 〃
٣٠	طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى اختصار النابلسي 〃 〃 〃 〃 〃
٧	سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم 〃 〃 〃 〃 〃
٢½	المراح في المزاح لبدر الدين الغزي 〃 〃 〃 〃 〃
٥	طرائف الحكمة جزآن جمعها ورتبها 〃 〃
٠½	في سبيل الأخلاق (قصيدة) نظمها 〃 〃
٢٠	ديوان البُحتري جزآن بالشكل الكامل مع فهرس القوافي
٥	〃 أبي فراس الحمداني
١٠	معاني الشعر للأشنانداني رواية ابن دُرَيد
١½	نظم اللآل في الحِكَم والأمثال لعبد الله باشا فكري
٤	الخيال في الشعر العربي للسيد محمد الخضر حسين
٤٠	موجز فن الجراثيم (بألواح ملونة) للطبيب الجراثيمي أحمد حمدي الخياط
٢٠	〃 〃 〃 (من غير ألواح) 〃 〃 〃 〃 〃
٣٠	صحة الأسرة ٣ أجزاء 〃 〃 〃 〃 〃
١½	ماجدولين والشاعر (خلاصة ماجدولين شعراً) للسيد خير الدين الزركلي
٥	المُعيد في أدب المفيد والمستفيد للبدر الغزي اختصار العَلْمَوي
٠½	نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر للحافظ السيوطي
١½	الأرَج في الفرج 〃 〃
٢	الآية الكبرى في شرح قصة الإسرا 〃 〃
١٠	سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي